ذكريات لا تنسى



محمد المجذوب

دار الاعتصام

ذكريات لا تنسى



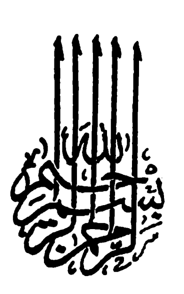
محمد المجذوب

دار الاعتصام

دار الإعتصام

٨ شارع حسين حجازى - تليفون ٣١٧٤٨/٢٦٠٣١ - ص.ب ٤٧٠ - القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا الكتاب الثاني الذى أتابع فيه تسجيل الانطباعات التى حملتها من رحلاتى فى بعض أرجاء العالم الاسلامى ، وهو الخاص بمشاهداتى وتأملاتى فى العديد من ربوع الهند .. أكرر فى تقديمه ما سبق أن قلته فى مقدمة الكتاب الأول ، من أنى لا أعرض معلومات موضوعية تحاور العقل ، بقدر ما أصور انطباعات ذاتية تتحدث الى القلب .

وما أحوج القارىء فى هذه المرحلة التائهة من حياة الانسان الى حديث القلوب !

من جوار مسجد « قباء »

محمد المجذوب

الى الهنـــــد :

كان المتوقع لرحلتى هـــذه الى الهند أن تبدأ قبل عامين أو قبـــل عام على الأقل ، لو وجدت دعوة الرائد الاسلامى الكبـــير الشيخ أبى الحسن الندوى استجابة من الجامعة الاسلامية ، تلك الدعوة الكريمة التى تكررت خلال العامين أكثر من مرة ، ثم شاء الله ألا تتحقق الا فى عهـــد فضـــيلة الدكتور عبد الله الزايد نائب الرئيس الجديد للجامعة ٠٠

ولا جرم أن سرورى بزيارة دار العلوم ، التابعة لنـــدوة العلماء فى لكناو ، لا يقل عن رغبة فضيلة رئيسها الشيخ أبى الحسن فى هذه الزيارة ، ذلك لأن فى نفسى من التقدير لهذه المؤسسة الاسلامية ما يجعلنى أستشـــعر السعادة حين يقدر لى الاسهام ببعض الواجب نحوها ٠٠ وهو شعور قديم مستمر النمو منذ عرفت فضـــل رئيسها الجليل من خلال آثاره الجدية فى الفكر الاسلامى المعاصر ، وبخاصة فى نطاق التربية والتعليم والتوجيه الاجتماعى، ومنذ تعرفت ثمـــار نـــدوة العلماء من خلال طلابها الذين ما تزال الجامعـــة الاسلامية تستقبل أفواجهم عاما بعد عـــام ، فتستقبل فيهم الخلق العالى ، والروح الاســـلامى الأصـــيل ، والاجتهاد المساعد على التفوق ، الى جـــانب العناية البالغة بلغـــة الكتاب العزيز ، حتى ليكادون يؤثرونها على لسانهم الموروث ، فيمتازون بفصاحتهم حتى على الكثير من العرب أنفسهم ٠

وفى الساعة ٢٥ر٦ من صباح الثلاثاء الثانى من صفر الخير عام ١٤٠١ أنطلقت بنا الطائرة من المدينة المنـــورة الى جـــدة حيث أنتقلنا الى الطائرة المتجهة نحو الكويت ، وحاولت تفقد حقيبة الأمتعة فى القاعة الخاصة من المطار ، ولكن موظف الاستعلامات أخبرنى أن لا حاجـــة لذلك ، ما دامت مشحونة من المدينة الى الكويت فهناك أتسلمها حتى ترفـــع الى الطـــائرة البريطانية التى ستقلنى الى دهلى (١)

وهبطت بنا الطائرة مطار الظهران فلبثت هناك قرابة نصف الساعة ، حيث حملت بعض المسافرين وأنزلت غيرهم ، ثم استأنفت رحلتهـــا حتى انحدرت الى مطار الكويت فى تمام الساعة ١٠ر٢ وكانت المفاجأة الأولى فقدان الحقيبة ، اذ لم نجد لها أثرا بين أمتعة النازلين هناك ٠٠ ورحنا نبحث عن مندوب الخطوط السعودية حتى وفقنا الى لقائه بعد ساعة ، فســـطر

---

(١) هذا هو اسم البلد الأصلى ، وقد حرفه المستعمر فقدم لامه على هائه٠

محضرا بالواقعة ، وذهب ليبرق بشأنها الى الجهات المختصة ، وسلم الى نسخة من ذلك المحضر بعد أن أخذ عنوانى فى لكناو وفى المدينة ٠٠ وهكذا قدر على أن أقضى بقية اليوم والليلة دون متاع ولا ثياب نوم ، ولا شىء سوى هذه الحقيبة اليدوية التى لا تتسع لغير الكتب والأدوية وبعض اللوازم الأخرى ٠٠ ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

السـجن الكبـير :

والانتظار فراغ ثقيـل ، ولعل أضناه للنفس انتظارك فى مطار ما مثل الساعات الطوال التى كان علينا أن نعانيها فى مطار الكويت ، خمس ساعات مفروض علينا قضاؤها فى ما يشبه السجن الكبير ٠ كل ما تملكه من الحرية هو أن تنتقل بين هاتيك الجدران الضخمة المتباعدة ، حتى اذا نهكت الحركة ساقيك تهاويت على أحد المقاعد المنثورة فى بعض أقسام المطار ٠٠

وما أدرى أكان ذلك المطار كما رأيت حقا ، أم هو القلق النفسى صوره لى على ما أرى ٠٠ انه لبناء هائل ذو دورين كبيرين ، ولكنه أقرب الى الحصون القديمة منه الى المطارات الدولية ٠٠ وقد كان الناس ـ المنتظرون مثلى ـ هناك قليلى العدد حتى ليبدو الدور الأرضى الذى حصرنا فيه أشبه بمجمع للحكم فى اللحظات الاخيرة من الدوام الرسمى ٠٠

خمس ساعات من حياتى بعثرتها بين الصبر الجميل والملل الثقيل ، ما فتئت خلالها أرجع البصر فى ساعتى لأحسب ما مضى منها وما بقى ٠٠ وقبيل الموعد المحدد فى بطاقة الطيران ـ وهو السابعة مســـاء ـ حملت حقيبتى اليتيمة الى جناح السفر استعدادا للعبور من خلال الممر المباشر الى الطائرة البريطانية ٠٠ ولكن ٠٠ ما ان استقر بى المقـام قليلا حتى لاحظت زجاجة المؤشر الالكترونى تسجل موعد اقلاعها فى الساعة ٢٠ز٨ وتعذر على ان أعرف سبب التأخير ، وربما كان عائدا الى اختلاف التوقيت ، مع العلم بأن الساعة ما بين المدينـــة والكويت لم تختلف قط ٠٠ وصبرت نفسى على تلك الاضافة من العناء ، مستسلما لليقين الذى ملأ كيانى بأن كل شىء مرهون بقدر الله ، وله سبحانه فى كل حركة وسكنة حكمة لا ندركها بمقاييسنا المـادية ٠

اخوة لا سبيل اليهم :

على أن ذلك اليقين لم يمنعنى من الأسف العميق ، الذى يقودنى اليه التفكير فى هذا السجن المضروب على بغير مسوغ من منطق الاسـلام ٠٠ لقد كان بالامكان الانتفاع بهذه الساعات الضائعة لو أبيح لنـا الخروج الى

البلد ، حيث ننعم بلقاء اخوة فارقناهم منذ سنين الى غير رجعة ، وقد ودعتهم يومئذ بل بكيت فراقهم بأبيات لعلهم لم يطلعوا عليها بعد ، وقد جاء فيها :

نودعكم والقلب يعصره الأسى	وليس لنا حول سوى الزفرات
ووالله لولا رادع الصبر والحيا	شغلنا عن الالفاظ بالعبرات
ولا غرو أن نبكي لفقد احبة	وجدنا بهم فى الحق خير أساة
صحبناهم حينا فكانوا عزاءنا	اذا فاضت الأيام بالنكبات
ويقصون عنا فجأة فكأننا	انامل كف عوجلت بشتات

واخوة آخرين ألف الله بيني وبينهم على حبه وخدمة دعوته وبذل المجهود المتاح لاعلاء كلمته ، ومع ذلك فلا سبيل الى أى منهم ، على حين ليس بيني وبينهم من المكان سوى كيلات ، ومن الزمان الا هنيهات هذا على الرغم من مراجعتنا والحاحنا بالاستئذان لاخلاء سبيلنا الى حين ، دون مردود سوى التوكيد على ان ذلك أمر ممنوع ولا مطمع فيه · ولقد هون على بعض هذا العبء ما علمته من مسلمين آخرين لا يزالون هناك منذ ليال وأيام ، ينتظرون المركب الذى سيحملهم الى بلدهم دون أن يسمح لهم بمزايلة حبسهم ·· ولا موجب لذلك الا الخضوع لقيود فرضناها على أنفسنا فزادت فى تمزق أمتنا ، ولم ينتفع بها سوى أعدائنا ··

وأقبل الليل وأقبل معه البرد يتسلل الى عروقنا شيئا بعد شيء ، وما أدرى كيف ساقضى ساعات الرحلة فى الطائرة ، وبعد الوصول الى مطار دهلي الذى سيكون مع الفجر ·· وها هى ذى أخيرا مذيعة المطار تعلن للمنتظرين موعد الدخول الى الطائرة ، فأسرعنا للاجابة ، وما هى سوى لحظات حتى كان كل منا فى مقعده ·

ومرة أخرى أجدني معطل السمع والنطق لأني لا أجد حولى من أتفاهم واياه ، فأسلمت أجفاني لغفوة أنستني لسعة البرد ، وردت الى جسدى بعض ما هو بحاجة اليه بعد ذاك العناء المرهق ·· ثم لم أعد الى الوعى الا على صوت مذيع الطائرة يذكر الركب بقرب الهبوط ·· وفى مطار دهلي – البادى الفقر – لمست أقدامى صعيد الهند للمرة الثانية ، وكان ذلك فى تمام الساعة ½ ١ ، أى الرابعة تماما بتوقيت الهند ·· وبذلك بدأت المعاناة الجديدة ، التى لا مندوحة لكل مسافر من ورودها ، حين يضعه قدره فى صف العرض الطويل الزاحف باتجاه المحققين فى الهويات ، ثم المدققين بالأمتعة ··

السلام عليكم :

وقد ضاعف من وحشتي مشكلة اللسان فلا أعرف سبيلا للتفاهم مع موظف ·· ولكن العناية التي لم تتخل عني في أي مأزق قط سرعان ما رافقتني بالحل غير المنتظر ، واذا أنا بواحد من الصف يبادرني بلغة القرآن . السلام عليكم ·· ومن هنا جاء الفرج ، فتم انجاز الجوازات ، وهداني الى موضع التفتيش على المتاع ··وكان المتوقع أن يكون ضياع أمتعتي سببا في تسهيل خروجي ، ولكن العكس هو الذي حدث ، وكأن المسئولين قد توجسوا ريبة في عدم اصطحابي المتاع ، فراحوا يحققون ويدققون ، ولم يدعوا لي سبيل الخلاص الا بعد أن استوثقوا من المحضر الذي يؤكد فقداني الحقيبة ··

وهكذا غادرت هذا الجانب من المطار لأبحث عن القسم الخاص بطائرة لكناو ·· وكان الامل أن القى هناك من ينتظرني من قبل الندوة ، لأن الجامعة قد أبرقت اليها بسفري منذ أول أمس ـ الاثنين ـ غير أن ذلك الأمل لم يتحقق ، وبات على أن أكدح بنفسي دون أن أنتظر عونا من غير الله ·· فأبرزت بطاقة السفر الى الموظف المختص فأشار على بالانتظار الى النهاية ، لأن البطاقة لم تحمل اشارة حجز الى لكناو ·· وبسر الله فتم الحجز اللازم، وفي قاعة المسافرين كان على أن أمضى قرابة الساعتين بانتظار موعد الطائرة ! ··

مزعجات ثم الفرج :

كان الضباب كثيفا يغطي كل شيء حتى لكأنه امتداد لليل ، وقد خدعني منظره حتى توهمت أن الفجر قد أطل منذ قليل ، ولم أكن قد غيرت مؤشر ساعتي التي كان عقربها على الرابعة والنصف ، فأديت الصلاة في جانب من البهو وانا حتى الان لا أعلم أقضاء وقعت أم أداء ···

ووجدت مكانا لي في أحد المقاعد المصنوعة من اللدائن فأسرعت الى احتجازه ، الا انى لم أكد استريح عليه حتى فوجئت بما أثار في نفسي شبه الغثيان . وليلعن الله حضارة الغرب التي مسخت المرأة المسكينة قردا عاري العورة ·· فقد وقع بصري على اوربية تنتظر مثلي في الصف المقابل ، وقد لفت ساقا بساق ، وبدا ما فوقهما تماما كالذي يبدو من مؤخرة بعض القرود ·· ولا حول ولا قوة الا بالله ! ·

وأخيرا جاء الفرج ولله الحمد ، وظهر رقم الرحلة على الاعلان الالكتروني ، وسرعان ما اخذت مقعدي في الطائرة المتجهة الى لكناو ومنها الى كلكوتة ··

حتى الطائرة الداخلية هذه تلوح عليها سيما الفقر الذى يتراءى للناظر فى معظم المشاهد التى يقع عليها بصره ، وقد عاودنى النوم نتيجة الرهق الذى كابدته حتى الآن ، فلم أر ما تحت الطائرة ، هذا فضلا عن أن ضيق مابين المقاعد قد حجزنى عن التطلع ..

واستغرقت الرحلة ساعة انتهينا بعدها الى مطار لكناو ، وهو مطار مسكين يعيش خارج حدود العصر .. ولم اجد حاجة للبحث عن أحـــد ينتظرنى ، فقلة الحضور وانصراف كل منهم الى شأنه ، أكد لى أن برقية الجامعة لم تصل فعلى أن أتدبر أمرى بنفسى ، وبقليل من العسر تم التفاهم مع موظف الهاتف فاستبدلت منه ببعض الروبيات بعض القطع المعدنية ، وحاولت استعمال الجهاز ، ولكنه رفض الاستجابة وأصر على الرفض رغم تعدد المحاولات .. وتلطف الموظف فوصلنى بالنـدوة عن طريق جهـازه ، وبتوفيق الله تم لى ما أريد ، فاذا بأحد الاخوة المسئولين هناك يرد على تحيتى بأحسن منها ، وكانت مباغتة لهم غير متوقعة ، وقال الأخ المجيب : ساعة ويكون اللقاء فى المطار ان شاء الله .

وقضاء ساعة دون حركة من المزعجات ، لذلك خرجت مـع حقيبتى اليدوية الى الفضاء المحيط بالمطار ، أقلب النظر فى هذه الاشجار الكبيرة لأتبين نوعها ، فبدت لى أشبه بشجر الخروب العتيق الذى ألفنا منظره فى الشام ، وقد غرقت فى جو حزين من الاهمال ، وعلى مقربة منهـا لاحظت كذلك بعض البنى الصغيرة ، وكل منها أشبه بصندوق مغلق من الاسمنت ، بعضها محمول على اربع ركائز وبعضها الآخر منثور على وجه الارض دون انتظام ، ولما لم أجد سبيلا لاستيضاح أمرها قدرت أنها قد تكون مستودعات لرماد بعض الموتى من مجوسى هـذه المحلة .. ولم أطق متابعة التجوال فى مثل هذا الجو الكئيب ، فعدت الى البهو الصغير لأسطر فى مفـكرتى بعض ما أخشى نسيانه من المشاهدات .

المأمن الذى أحب :

كان لقـاء الأخوين الشيخ محمد الرابع والشيخ محمود أزهـار نفحة طيبة من حديقة النـدوة ، التى طالما تشوقت الى الاجتماع فى ظلها بالنخبة الفاضلة من الرجال القائمين عليها .. وقد شاء الله أن أحـرم تحقيق هذه الأمنية أثناء احتفالها قبل خمسة أعوام بذكرى خمس وثمانين سنة على تأسيسها ، اذ بلغتنى دعوتها وأنا على أهبة السفر الى الشـام لرؤية الوالدة ، فأبلغتها عذرى عن طريق فضيلة الأخ الشيخ حماد الأنصارى .. وظللت على شوقى ذاك الى أن قدر الله لى هذه الفرصة الحبيبة .

وتحقق ما توقعته من تخلف البرقية ، اذ لم يعلموا بقدومى الا لحظة الاتصال الهاتفى ، وان كانوا على توقب لخبر سفرى بين الحين والآخر ٠ ولقد كان لاطلال الأخوين على ، حيث انتظرهم فى بهو المطار ، اثره الحاسم فى ازالة الوحشة وتبديد الارهاق ، وللتو شعرت بأنى انتهيت الى المأمن الذى أحبه ، فكأن أبا الطيب لم يرد سوى تصوير مثل هذه اللحظات بقوله الذى طالما هــز مشاعر ابن العميد

اذا ظفرت منك العيون بنظرة اثاب بها معيى المطى ورازمه

ولم نلبث أن أخذنا سبيلنا الى النــدوة فى غمرة من الشعور الاخوى السعيد ، وكان الطريق الذى سلكته بنا السيارة ناطقا بمثل الايحاء الذى واجهته حول المطار ، ذلك ان كل ما فى هذه الأرض من تراب ونبات ومناخ صالح لابراز الرائع من الحدائق والجنان ٠٠ لو وجـــد الارادة الحازمة واليد العازمة العاملة ٠ وارانى الآن أتذكر مشاهـــد الأرض الاندونيسية التى برز فيها نشاط الانسان نظافة وأناقة زبراعة ، فهنــاك رأيت الأرض والانسان ، أما هنا فارى الأرض ٠٠ ولكن ٠٠ أين نشاط الانسان ٠٠ ؟!

جولة فى رحــاب النــدوة :

وبعد ما يقارب الساعة من المسير فى ذلك الطريق المتعرج الشـــاق بدأنا نواجه شوامخ العمائر ذات الطابع العلمى ، فأسأل رفيقى عن ذلك الحى فاذا أنا على مشارف نــدوة العلماء ٠٠

أبنية لا اذكر عددها الآن ، وكلها يمتاز بالجو الذى تفرضه الأوساط الجامعية ، ومن خلالها تلوح منارة المسجد المضاعف الذى يضم فى كل من الأوقات الخمسة مئات المصلين ٠٠

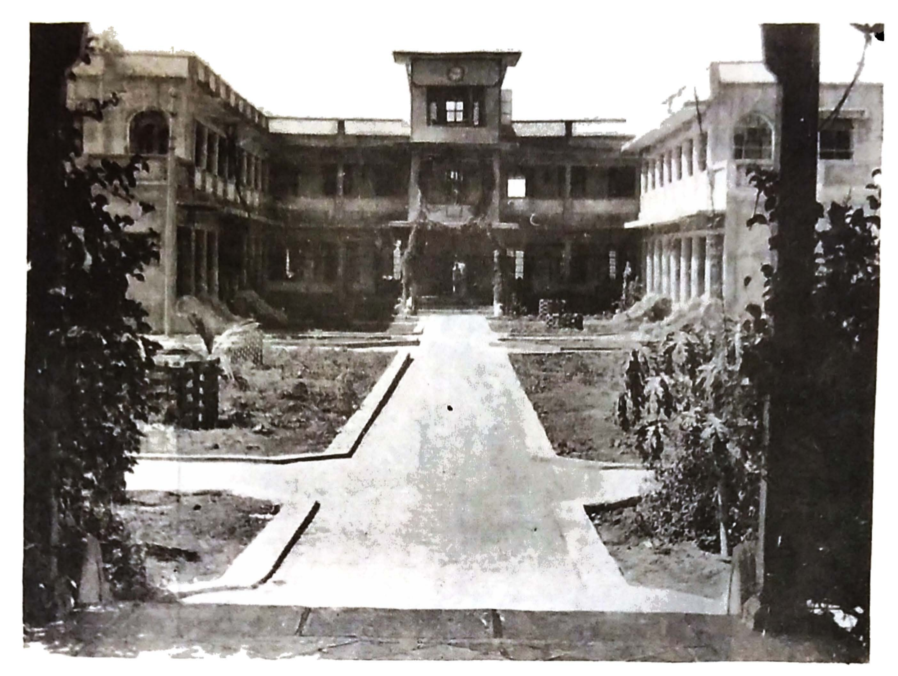
وفى جناح الضيافة من النــدوة أفردت لى حجرة صالحة تطل شرفتها الفسيحة على المسجد وما يليه من جنائن النــدوة وعمائرها ٠٠

وهنا احب ان ابادر للتذكير بأن دور الضيافة من الأقسام الرئيسية فى مؤسسات التعليم الاسلامية فى الهند ، ولعلى لا انسى ان اعرض لمـا شاهدته منها فى مختلف تلك المؤسسات التى زرتها فى العديد من حواضر الهند ، فهى والحق من المظاهر التى تسترعى الانتباه ، لما تحمله من آثار الحضارة الاسلامية العريقة فى هذه الديار ٠٠

ولمـا حانت صلاة العصر كنت قد أستردت الكثير من الراحة التى انا بحاجة اليها ومضينا مع الأخوة فى جولة على اقسام الندوة ووحداتها ٠



المبنى الرئيسى لنـــدوة العلماء



مبنى الفصـول الدراسية لدار العلوم بندوة العلماء



مبنى بيت الطلاب التابع لدار العلوم بندوة العلماء

وباحاتها الرحيبة ، وهى التى تحتــــل مساحة خمسة وثلاثين فدانا من الأرض ، أى ما يقارب مئة وأربعين الف متر مربع ··

والمشاهد للأبنية الخاصة بسكن الطلاب ، المأهول منها ، والذى لا يزال فى طور البناء ، يستطيع أن يتصور كثرتهم المؤلفة – فضلا عن ابناء مسلمى الهند – من الوافدين اليها من مختلف أنحاء العالم ، وكلهم يجد منزله المناسب دارسا وطاعما ومقيما ··

ولقد طالما قرأت وسمعت عن مميزات هذه المؤسسة العملاقة فى فن التربية الاسلامية حتى بت كبير التوق الى العيش فى وسطها ولو لأيـــام قليلة ، تمكننى من التزود بما يهمنى من المعلومات العملية فى هذا الميدان· وقد سبق أن أودعت بحثى المقدم الى المؤتمر العالمى للتعليم الاسلامى بمكة سنة ٩٧ بعض الاشارات الى تجارب هذه المؤسسة فى حقل التربية الاسلامية ووجهت أنظار المعاهد الاسلامية الى الانتفاع بها ، عن طريق ارسال بعثات طلابية للاقامة فيها لمدة محدودة ·· ومن ذلك أيضا أننى حثثت ادارة معهد منداناو الاسلامى ، فى مدينة ماراوى سيتى بالفلبين ، على أن تتخير عددا من طلابها تبعث بهم الى النـدوة للاقامة فيها بعض الأشـهر ، ليشاركوا فى دورات تربوية ، ويمارسوا بعض النشاط الذى تقوم به لترسيخ العربية فى ألسنة الطلبة ، وقد تعهدت للمعهد يومئذ أن أقوم بتسديد نصف تكاليف هذه البعثة ·· ولكن المعهد مع اقتناعه بهذه الفكرة لم يبد استعدادا لتنفيذها حتى الآن ··

وانما كان اعجابى بنـدوة العلماء حتى الأمس عن طريق السماع ، ثم عن طريق طلابها الوافدين الى المدينة ، أمــا الآن فقد تهيأت لى كل الأسباب التى تجمع بين الخبر والخبر ·· فلا غرابة اذا رأيتنى شــديد الحرص على تتبع كل ما أمكننى تتبعه من واقع الحياة وألوان العمـل فى هذا الصرح العلمى العالمى ··

انيسى الملازم :

وشد ما كان سرورى بالغا عندما رأيت بين مستقبلى ذلك الابن العزيز الذى كان أحد النماذج الكريمة ، التى قدمتها النـــدوة الى الجــامعة الاسلامية ، وبعد السنوات الأربع أعادته الجامعة الى النـدوة مدرســا ناجحا يجمع بين الحسنيين من اعداد الندوة وروحانية المدينة ، ولقد طالما أعجبت به طالب علم لا يكتفى بما يتلقاه من محاضراتى وزملائى فى الجامعة فهو يلاحق أساتذته بالسؤال عن كل ما غمض عليه ، ولا أنسى تلك الزيارات اللطيفة التى كان يخصنى بها فى منزلى من قبـاء للغاية نفسها بين الحين

والحين ٠٠ وانه والله لضرب من الوفـــاء ســـعيد أن أجد من أمثـــال أبى سحبان روح القدس هذا ، فى كل بلد زرته من العالم الاسلامى ، شبابا يؤدون رسالة جامعتهم الاثيرة على خير وجه ، ويحملون لى فى الوقت نفسه أكـــرم مشاعر الود وأطيب الذكريات ٠٠ وهم بعض الأحبـــة الذين قلت عنهم فى رائيتى الهندية

وهاأنذا أنى اتجهت فواجـد   صفيا يساقينى المودة والـبرا

ولكم يسرنى أن يكون هذا الفتى الصالح أنيسى الملازم مدة وجودى فى لكناو ، بل وفى معظم الامكنة التى قدرت لى زيارتها من الهند ، لا يكاد يفارقنى فى حل ولا ترحال ٠ ورأى الاخوة المسئولون أن يعفونى من مسئولية العمل ريثما ينظمون لى البرنامج المناسب ، وهكـــذا أتيح لى أن أقضى ساعات الأصيل فى جولة نستطلع خلالها معالم المدينة العريقة ٠٠ وآثرت أن تكون مطيتنا أبطأ الوسائل فى هذه الجولة ، ليكون استمتاعنا أكثر ، فوقع اختيارى على (الرتشاك) الذى جربته من قبل فى أندونيسية ، والذى هـــو ــ مع الدراجة العادية ــ أكثر شيوعا هنا بسبب الغلاء الفـــاحش فى أســـعار الوقـــود

اقــرأ باسم ربــك :

٠ وعبرنا الطريق الترابى باتجاه قلب المدينة ، ومررنا للمـــرة الثانية بمبانى جامعة لكناو الحكومية ، التى شاهدنا على مقربة منها بعض جنود الشرطة من حملة العصى لدى قدومنا من المطار ، وقد سألت مرافقى عن مهمتهم هناك فعلمت أنهم مكلفون حراسة الامن الذى لا ينفك مهددا بمشاغبات الكثير من طلابها ، الذين يمثلون أشرس اصناف الطلاب الجامعيين فى العالم ٠٠ ولا أدرى كيف قضى على الندوة أن تجاور هذه المؤسسة ، فتتعرض بين الحين والآخر لتحرشات هؤلاء الأشرار المشحونة صدورهم بالحقـــد على كل ما يمت الى الاسلام بصلة ، فلا يكادون يكفون شرهم عن شـــباب الندوة ، يهاجمونهم بأصناف الاساآت من وراء الجدر مهددين متوعدين؟ ويقودنى ذكر هذا الضرب من الطلاب الجامعيين الى استعادة ما أعرفه عن هاتيك التيارات الشيطانية التى جعلت تهاجم معاقل العلم فى أوربة وأميركة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، التى حملت الى العالم الصليبى بذور الفتن الحمراء ، فما برحت تزلزل أمته ، وتروع وجوده ، بما تفرز له من اجيال ثورية يجتاحها الرفض الصاخب لكل القيم الانسانية ، وتنشر سمومه فى كل مكان من عالم الانسان ٠٠

ومن حق هذا أن يذكرنى بالوجه المقابل من مواريثنا الاسلامية فى مضمار العلم ، حيث يكون من أولياته فى نفوس طلبته ومشبختة التعاون القلبى على نشدان الحقيقة والتنقير عنها ، ثم التحلى بأخلاقها المثالية التى أجملها التوجيه النبوى بقوله (ص) (تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار) (١) وطالب العلم فى مفهوم الاسلام ليس ذلك التلميذ الذى يلتحق بأحد فصول الدراسة أولية أو جامعية أو مسجدية . بل يشمل ذلك الوصف كل ذى صلة بهذه المنظومة ، يستوى فى ذلك أصغر التلاميذ وأكبر العلماء، لأن كل مسلم هو فى الحقيقة طالب للعلم . الذى به يعرف ربه ، وبه يتعرف سبيله القويمة فى مسالك الحياة ، ومن أجل ذلك لا يـــزال من خصائص الوسط التعليمى الاسلامى اسباغ صفة طالب العلم على أهل العلم مطلقا ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم يبدؤه من المهد ولا يفارقه حتى اللحد· ولا يستغرب ذلك من أمة أول ما نزل من وحى ربها على قلب نبيها (اقرأ باسم ربك) وهى الميزة التى خصت بها دون غيرها · فبها تنظر الى العلم على أنه نور من الله يهدى به من يشاء ، وبه يرفع الذين أوتوه مع الايمان أعلى الدرجات فى الدنيا والآخرة ·· وبذلك يكون لأهله عصمة من الفساد، ونجاة من الضياع ، وقائدا الى كل صلاح ورشاد لأنفسهم ولسائر أخوتهم من عبـــاد الله ··

وأين هذه القداسة من أعين ضلت طريق الحق ، فما تبصر الا من زاوية البطن والفرج ، ولا تفقه للحياة من معنى الا بمقياس الحقد والكراهية ، اللذين أحالا الحياة كلها محرقة تلتهم أول ما تلتهم طمأنينة الانسان ··

مساكن في قلب الانهار :

وعبر بنا الرتشاك الجسر القائم على نهر (غومتى) ذلك النهر العريض الذى يستمتع بتكريم الهندوس ، على طريقتهم فى تقديس المـــاء أيا كان حاله . ومع ذلك لا يستنكف عن أن يضربهم بطاماته الجارفة بين الحـين والآخر فيهدم ويقتل ويشرد حتى لا يجدوا منجاة من غضبه الا باللجوء الى السدود يقيمونها بوجهه على امتداد الطريق الذى سلكنا بعضه ، وقد أعدوا لمواجهته المضخات الجبارة يكافحون بها طغيان السيل الذى كثيرا ما يفاجىء السكان على حين غـرة متدفقا اليه من الأبعـــاد نتتولى السدود توزيع طاقاته ، بالحيلولة دون تلاقى السيل والنهر ، ثم تقـــوم أجهزة الضخ برفع ما وليها من مجمعات المياه الى قلب النهـر الغاضب ،

---

(١) من حديث شريف رواه ابن عدى فى الكامل والطبرانى فى الاوسط عن أبى هريرة ·

حتى يرتفع منسوبه عن مستوى المحال المحيطة به ·· وهى الوسيلة الوحيدة فى مكافحة السيول التى تستقبلها الهند فى كل مكان من سهولها ، المعرضة أبدا للغرق ، ولالتهام الآلاف من سكانها فى كل عام ··

ولفت نظرى على ضفة النهر بناء أقرب ما يكون شبها بالمسجد الصغير على حين ليس حوله أى مجموعة من المساكن فيظن أن سكانها يعمرونه بالصلاة ولما استوضحت عنه رفيقى أبا سحبان كان جوابه أنه منزل أحد الهندوس أقامه هناك تقربا للماء الذى هو أحد آلهتهم ··

وهكذا بدأت أفهم لماذا تقوم بعض المساكن فى قلب الأنهار أحيانا وعلى ضفافها فى هذه الاوساط الوثنية ، مع أنها تعرضهم لما يسميه علماء الصحة عمى الأنهار ، وربما كلفتهم حياتهم فى الكثير من الأحيان ··

الأخسرون أعمالا :

ان عبادة المياه لدى الهندوس لا تقف عند حدود السكن فى أوساطها وعلى ضفافها كما أسلفت ، بل أن المساكين ليتقربون اليها بالنقود أيضا، فيلقون بها الى أحضانها وربما فعل ذلك ذو الفقر الذى هو أحوج ما يكون الى هذه القطع يدفعها راضيا الى القاع ! · وقد ذكرنى هذا بما يصنعه بعض الشيعة الايرانيين عندما يطرحون النقود على قبور أهل البيت فى المدينة ، وكما يرى الزائر لبعض مشاهد الأولياء فى مصر حيث يدسع المضللون المال ، كل على قدر طاقته ، الى اقفاص القبور سائلين بها العطف والعون والمدد الذى لا يلتمسه الموحدون من غير الله ·· وعلى مقربة من تلك الأضرحة يتدافع المتسولون للحصول على ثمن القوت ولا يكادون يجدونه، فهم بازاء هذه الأحداث المحظوظة كما عبر عنهم حافظ ابراهيم بقوله :

من لى بحظ النائمين بحفرة	قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها	بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القبر باب المصطفى	ووسيلة تقضى بها الحاجات
وأنا المعذب فى الحياة وليس لى	يا أم دفر ما به اقتات (١)

وتثب الى خاطرى فى الوقت نفسه صور الاحداث الفقراء الذين شاهدتهم فى مياه باسيلان بالفلبين ، حيث يتجمعون حول السفن الناقلة للمسافرين ، يستحثونهم لالقاء النقود المعدنية الى البحر ، فلا يلبثون أن يتلقفوها قبل بلوغها القاع ·· ويظل الفرق بين الفريقين أن هؤلاء الأحداث يقومون بمسابقاتهم لاعبين رابحين ، على حين يقدم الآخرون على عملهم ذاك جادين عابدين خاسرين ! ··

---

(١) أم دفر كناية عن الدنيا ·

وتأبى الوثنية الا أن تفرض مظاهرها فى كل شـــارع ومنعطف .. فعلى كتف نهر غومتى ينهض أكثر المعابد التى شهدناها فى ساحات لكناو أناقة ، اذ بنى على جانب من الجادة العامة فلا يدنو منــه سوى القاصد اليه ، وقد طلى ظاهره وداخله بالالوان الجميلة ، ونصبت فى صدره وعلى جوانبه الاوثان ذوات الاختصاصات المخالفة ، وعلى مقربة من المعبد وقف باعـة الزهــر الاصفر - شـبيه الاقحوان - بانتظـــار العباد فيشترون منه ما يعوزهم لاسترضاء الآلهة ، ثم يسلمونه الى السادن الذى يضعه بين يدى المعبود المنشود . وعلى مقدم الزهر حينئذ أن ينحنى راكعا أو يخر ساجدا لتمثاله ، ثم ينهض جامعا بين راحتيه وهو يتمتم بالطلب الذى يريد .. ويختم المشهد بضربة من قبل السادن يقرع بها الجرس المعلق ايذانا بانتهاء النوبة فيدفع اليه العابد جعله المعلوم ويمضى لوجهته .. وبذلك يتفرغ لغيره وغيره ممن ينتظرون دورهم ..

وأى سوق سلكت لا بد أن تجد فيها معبدا أو اكثر ، معدا لاستقبال العابدين ، وبجانب كل منها بائع الزهر الذى لا مندوحة عن تقديمه للآلهة .. وأصلح الأمكنة لاقامة هذه المعابد فى تصورهم ما جاور الأنهار والاشجار . ولم ار ثمة معبدا الا رأيت فيه السادن الذى يستقبل الزائر ويتناول منــه الزهر ليضعه على المعبود الذى يقصده . وطبيعى أن له على ذلك جعــلا لا بد منه ، وان كان غير محدد ، فالمعابد اذن كأى حانوت تجارى يبتغى القائم عليه أمنيته من الربح ، ولهذا ترى هؤلاء المرتزقة جادين فى عرض مغرياتهم بمختلف أنواع الزخرفة المناسبة ..

والحديث عن هذه المعابد وملحقاتها طويل ، سأعود اليه فى حلقة أو حلقــات أخــرى ..

القصــور أم قبـــور :

وأثناء عبورنا بحى (قيصر بار) استوقفت نظرى تلك البنى الشامخة المترفة ، وكأنها بعض القصور الملكية القديمة ، التى كنا نقرأ عنهـــا أو نتصورها فى قصص المتخيلين .. انها طبقات بعضها فوق بعض . وقد ازدان كل منها بالعديد من الشرفات المقوسة .. وأحاطت بهـــا الحـــدائق الواسعة المفروشة بالناعم الانيق من العشب السندسى ، وكانت مفاجأة غير متوقعة أن اسمع الأخ أبا سحبان يحدد لى هوية هذه البنى بأنها قبور بعض ملوك الشيعة ، الذين كانوا ذات يوم حكام هذا البلد ، بل حكــــام امارة (أود) كلها حتى انتزعها من أيديهم غـــزاة الاستعمار الانجليزى بعد معارك هائلة ، لا تزال آثارها بارزة فى أطلال القصور الملكيـــة التى سنزورها فيما بعد ان شاء الله ..

الفن المدمر :

وفى الشارع القريب من ذلك الحى ادركنا وقت المغـرب فاتجه بى صاحبى نحو أحد المساجد الشعبية ، وكان علينا أن نعبر اليه من خـــلال زقاق لا يتسع لاكثر من اثنين ، ومع ذلك فقد صفت على جانبيه العشرات من الرسوم التى تعرض أجسام النســـوة العاريات تماما الا من عطـاء العـورة الغليظة ·· ومثل هذه المعروضات الجنسية أمـر معروف فى ظل المجتمعات الوثنية القائمة على عبادة الشهوات . وقد رويت فى كتـــابى (تأملات فى المرأة والمجتمع) ما حدثنى به زميلى فضيلة الشيخ عبد الغفار حسن المدرس بالجامعة الاسلامية ، عن مرئياته فى أحد المعابد الهندوسية ، وبينها صورة امرأة ورجل فى الوضع الجنسى ، وبجانبهما رجـــل آخر ينتظر دوره ! ·· وطبيعى أن أول مؤثرات هذه المشاهد ، وبخاصـــة فى المعابد ، اسقاط منزلة المرأة من المستوى الانسانى الى أدنى الدركـات البهيمية ، فى اطار من مصطلحات الفنون ·· وهو نفسه الوضع الذى صارت اليه مدنية اليونان والرومان من قبل ، ثم ورثته مدنية الغرب من بعد ، حتى أصبح الجنس هو الطابع المميز لحياة الناس فى كل مكان ودخلت اليه سموم هـــذه المفاســـد ·

النظـــافة المفقـــودة :

وعلى مقربة من مدخل ذلك المسجد الشعبى المتواضع أقيم اثنان من المطاهر يفصل بينهما حاجز من الصفيح ، ولا يكادان يخلوان من قاصدين صباح مساء ، دون أن يحجبهما عن أعين الناس ساتر ·· ومثـل هـــذا المنظر المؤذى شهدت فى شوارع أخرى من ذلك البلد ·· ومـــا أدرى أكان وضعا قصد به الاساءة ، أم هو من الامور العادية التى لا يراد بها سوى التيسير على الناس ! ·· وأرجح هذا التفسير للأخير قياسا بما رأيته من قلة الاهتمام بالنظافة العامة فى العديد من شوارع لكناو وأزقتها ·· واذكر من ذلك اننا دخلنا ذات مساء احدى الأسواق الشعبية العامرة ، فما كدت اتجاوزها الا بشق النفس ، لكثافة الروائح الكريهة التى شحن بها فضاؤه ، متصاعدة من مجارى المياه الملوثة المتدفقة أبدا بفضلات البيوت ·· ومـــع ذلك فالعشرات من الناس العاملين هناك والمارين لا يرون فى ذلك أى بأس ، لأنهم الفوا لأمثاله فى مختلف الامكنة وبخاصة القديمة منها ··

الغـلاء والضرائب والدراجات :

ونبهتنى برودة المساء الى ما كدت انساه من حاجتى الى الثياب فى حقيبتى التى لا أدرى موعد عودتها ·· فعرجنا على بعض المتاجر العامرة

جدا فى شـارع (حضرة كنج) حيث اشتريت قطعة من القماش ومنامة وبعض الجوارب بأضعاف ثمنها المعهود لمثلها فى المدينة العزيزة ، على الرغم من أنها كلها من مصانع الهند ، وهو غـلاء يسترعى الانتباه ٠٠ وقد استوضحت السبب فكان الجواب أن ضرائب الدولة تستولى على الجزء الأكبر ، حتى أن الدخل الذى يبلغ مئة ألف مثلا تستحوذ منه على الثمانين٠ ومع ذلك ، ومع أن السلع مسعرة من قبـل الدولة أيضا ، فهى متفاوتة الثمن بين مكان وآخر ٠٠ ومن أمثلة ذلك أن شالا كشميريا ، سألت عن ثمنه فكان مئتين وتسع روبيات ، وسألت عنه فى متجر آخر فاذا هو مئتـان وتسـعون ٠٠

وبهذه المناسبة أذكر القارىء بأن أروع ما حققته الهند لنفسها حتى الآن هو الكفاية الذاتية ٠٠ ولكى تدرك ذلك تصور ان كل شىء يقع عليه بصرك فى المنازل والفنادق والحوانيت ، وكل ما تراه يتحرك فى شـوارع الهند من الآليات ، ولعلى لا أغالى اذا قلت أيضا : كل ما يئز فوقـك من محركات الطائرات هو كله من صناعة الهند ٠٠ فهى لا تسمح باستيراد أى شىء من الخارج ، الا أن يكون هبـة دون مقابل من المال ٠٠ اللهم الا النفط الذى لم توفق حتى الان الى حاجتها منه فى أراضيها ، فهى تستدرك أمره برفع أثمانه الاستهلاكية لتكـره الناس على الاقـلال من استعمال السيارات ، ومن أجل ذلك يكثر الزحام على القطارات للسفر الداخلى لانها أوفر وأقل استهلاكا للنفط ، وبعض هذه القطارات تسير بالتيار الكهربائى، ولذلك أيضا يكثر استعمال الدراجات الثنائية للافراد ، والثلاثية ـ الرتشاك ـ للنقل الجماعى ، وأكاد أجزم بأنى لم أر فى لكناو بخاصة سيارة أجرة صغيرة واحدة ، الا تلك التى يسمونها التاكسى وهى ليست أكثر من عجلة بدائية تنفر العين من منظرها ٠٠ والناظر الى شوارع لكناو الرئيسية مثل أمين أباد وأمثاله ، وبخاصة ساعة الأصيل ، يكاد لايرى فى أوساطها الا الدراجات على أنواعها تتحرك ، ويكاد لا يجد موطئا لقدمه خلالهـا الا بصعوبة ، وهذا ما شاهدناه بعد ذلك فى سائر الحواضر الهنـدية التى قدرت لنا زيارتها ، الا فى دهلى ، ولا سيما بومباى حيث يبلـغ عـدد السيارات كما قيل لنا خمسة وسبعين ألفا ، ومعظمها من الاصناف الصغيرة ـ التاكسى ـ وكلها مصنوعة فى الهند وبأيد هندية ٠٠ ولا غرابة فى كثرة هذه الآليات ، وشدة ازدحام الشوارع بالمارة فى بـلد كالهند زاد عدد سكانه على ستمئة مليون ـ كما اتضح فى آخر احصاء ـ ٠٠

قصـة الاكتفـاء الـذاتى :

وقد يتساءل القارىء كيف استطاعت الهند ان تحقق لنفسها كل هذا

التقدم الصناعى الذى أمن كل حاجاتها ، بل أمن لها حتى دخول نادى الذرة الذى لم يتح حتى الان الا للندرة من دول العالم ! ..

وللاجابة على ذلك لا مندوحة من تذكير القارىء بحركة العصيان المدنى التى سبقت عهد الاستقلال ، حيث قام زعماء الهند ، وفى مقدمتهم رجال الاسلام ، باعلان المقاطعة العامة لمنتوجات بريطانية ، التى اتخذت من الهند سوقا لاستهلاك مصنوعاتها .. وحيث كانت استجابة الشعب على أتمها لتلك الدعوة ، فامتلأت ساحات الهند بالبضائع الانجليزية التى استحالت رمادا ، واتجه الناس عندئذ الى انتاج ما يحتاجون اليه بأيديهم وبمعاملهم البدائية التى اخذت سبيلها الى الترقى المستمر . حتى اضطرت بريطانية العظمى الى الركوع أمام ذلك التصميم الجبار ، وما لبثت أن دعت زعماء الهند الى لندن للتفاوض على الاستقلال . ولا ننسى هناك موقف غاندى ، وقد دعى لمشاهدة المصانع الانجليزية التى عطلتها المقاطعة وجعل رئيس وزراء انجلترة يثير رحمته بالملايين من عمالها العاطلين ، فكان جواب غاندى له يومئذ « لو رأيت مئات الملايين من الهنود الذين جنى عليهم استعماركم لانستك مأساتهم مصيبتكم » ..

أضف الى حركة المقاطعة هذه ما سبقها أيضا من عملية التصنيع التى بدأها المستعمر ، الذى لم يكن ليفكر قط بمغادرة الهند ، اذ رأى أن الاستمرار على استيراد السلع المصنعة من انجلترة من شأنه أن يرفع تكاليفها الى حد لا تستطيع معه منافسة الصناعات العالمية الاخرى ، وبخاصة اليابانية ، فخير تدبير اذن هو الاستفادة من رخص الايدى العاملة الهندية بتشغيلها فى مصانع تقام فى الهند نفسها . وسرعان ما نفذت الفكرة وبوشر بابتعاث الهنود الى انجلترة للتدريب على مختلف الصناعات .. فكان ذلك فى نهاياته البعيدة ، تقديرا الهيا وضع الهند فى المسار الصحيح الى الاكتفاء الذاتى الذى نلمسه الان ..

وانى لأتساءل وأنا أسطر هذه الملاحظات وفى القلب غصة لاذعة : لقد أعلن العالم الاسلامى مقاطعة المستعمرين العديد من المرات ، وكثيرا ما اقدم على اتلاف مصنوعاتهم كما فعلت الهند ، ومع ذلك لم يستطع بلد اسلامى واحد ان ينتقل من المقاطعة الى العمل ، ومن الاستيراد الى الاكتفاء الذاتى الذى انتهت اليه الهند .. فما سبب ذلك ؟ .. ولماذا لم نحقق بعض ما حققته الهند الصابرة حتى الان ؟!

النفط يجــر الى التمرد :

واعود الى موضوع النفط وما تقوم به حكومات الهند من محـاولات جادة لحل أزمته عن طريق التقليل من استهلاكه ·· فأنقل للقارىء ما علمته عن هذا الامر ، وخلاصته آن طلائع النفط قد برزت فى منطقة أســـام فى أقصى الشرق الشمالى من الهند · وكان المأمول أن تساعد هذه المكتشفات هنالك فى تخفيف الضغط الذى تعانيه هذه البلاد بسبب فقدانه بين مصادرها الاقتصادية ·· الا ان الواقع جــاء معاكسا للمتوقع ، ذلك ان سكان تلك المنطقة قد وجدوا فى ظهور الذهب الاسود فرصة لتوكيد مطالبهم الانفصالية فهم اليوم فى شبه تمـــرد على السلطة المركزية ، يعلنون ارادتهم بالحكم الذاتى . كبعض المناطق الاخرى التى تميزت عن جسم الدولـــــة بكيانها الخاص ·· ومن هنا كان الجمود الذى طـرأ على أعمال النفط فى ذلك الجانب من البلاد ، لان أهلها مصممون على الاحتفاظ بتلك الثروة الجديدة لمنطقتهم وحدها ·

وهذه النزعة الذاتية هى التى جعلت صدور القـــــوم ضيقة بهجرة المسلمين من بنغلادش الى أســـام المجاورة ، فلم يجدوا سبيلا لترجمـــــة تعصبهم الا بالمجازر الدامية يوقدون نارها فى أوساط أولئك المســـــاكين الذين ضاقت بهم الارض والحياة ، فلم يروا مفرا من شقائهم الا بالنزوح الى جيرانهم فكان نصيبهم القتل الجماعى بسكاكين هؤلاء الجيران !··

اللقـــاء الأول :

الخميس ١٤٠١/٣/٤

ضحى اليوم ، وكنت فى شرفة المضافة العليا أطالع بعض الصحف الاسلامية ، أقبل الاخ الشيخ واضح رشيد ليطلعنى على برنامج العمل الذى أعدره لى ، وقد اتفقنا على اقراره بعد قليل من التعديل ، وبهـذا البرنامج بت مسئولا عن محاضرة واحدة فى كل يوم ، أربع منها فى مادة الادب ، واثنتان فى التربية والدعوة ، والسابعة خطبة الجمعة ٠٠ وقد رأى الاخوان أن يبدأ ذلك منذ اليوم ، حيث يجمع لنا طلبة الدراسات العليا فى لقــاء للتعارف بقاعة المحاضرات ٠

وفى الساعة العاشرة ق ظ تم ما ارادوا ، اذ ملئت القاعة بالطلاب ، وأخذنا مكاننا مع الاساتذة على مدرج الخطابة ، وبدأ الحفل بآى من الذكر الحكيم تلاها أحد الطلاب من سورة الشورى ٠٠ وما أروع أن يكون بينها قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ٠٠) وأعقب التلاوة الأخ الشيخ واضح فقدمنى الى الحضور بكلمة كريمة لا أشعر انى أهل لمثلها ، بيد أنها فيض من الحب الذى يكنه كل منا نحو الآخر ٠٠ ولمـا جــاء دورى أبلغت الحضور من الاخوة تحية الجامعة الاسلامية ممثلة بفضيلة نائب رئيسها الدكتور عبد الله الرائد ٠ وأسرتها الكبيرة من الشيوخ والطلاب ، الذين يعرفون الكثير عن هـــذه الندوة العزيزة ،ممثلة فى رئيسها الرائد الاسلامىفضيلة الشيخ أبىالحسن الندوى ، وفى خريجيها الوافدين الى الجامعة الاسلامية ، وهم فى أخلاقهم العالية ، واجتهادهم المميز ، واقبالهم الفائق على لغة القـــرآن العظيم ، صورة طيبة لمعطيات هذه المؤسسة المجاهدة ٠٠

ووقفت جانبا من كلمتى على تذكير هؤلاء الطلبة بالمهمـــة الضخمة التى هم مرشحون للنهوض بها فى طريق الدعـــوة الى الله ، من ترسيخ لقواعد الاسلام الصحيح ، والاسهام فى عملية الانقاذ العام لهذا العــالم المتخبط فى كثيف الظلمات ٠٠ تحقيقا للغاية العليا التى من أجلها أنشئت هذه الندوة قبل تسعين سنة ، فكانت بفضل الله ، ثم بجهود أساطينها ، احدى المنارات التى تنشر أنوار الاسلام لا فى الهند وحدها ، بل على مستوى العالم الانسانى بعامة ، والعالم الاسلامى بخاصة ٠٠

وقد استغرقت الكلمة قرابة الساعة ، وكانت ولله الحمد محفوفة بنفحات من توفيقه سبحانه ..

الاتفاق والصدق سبيل النجاح :

ومرة ثانية نستمتع بفترة الاصيل الخارج عن برنامج العمل ، فحملتنا سيارة الجامعة الى شارع أمين أباد فى صحبة الأخوين الشيخ سعيد الأعظمى وأبى سحبان ، وعرج بنا الشيخ سعيد نحو أحد الخياطين ، من أصدقاء الندوة .. وسرنى من هذا الخياط سمته الاسلامى ولحيته الجميلة ، ولكنى أشفقت عليه حين رأيته مكبا على شيشة نحاسية يمتص حلمتها فى نهم المدمنين .. وقد وفقنا الى بعض الخير حين وجدنا لديه الالمام بخياطة الثياب العربية ، ووعد بانجاز المطلوب فى مساء اليوم التالى. ومن ثم مضى بنا الشيخ سعيد الى صانع الاسنان الصينى الذى وصفه بالبراعة والاستقامة ، فاتفقنا معه على صنع جهاز كامل بدل القديم المنهوك .. وجزى الله الدال عليهما كل خير ، اذ أنجز كل منهما عمله فى موعده على أفضل وجه .. أما أجرة الثوب فمثلها لدى خياطى المدينة لم تزد على سبعين روبية ، أى ثلاثين ريالا ، ولكن تكاليف الجهاز الاسنانى لم تزد على سبع المطلوب هنا ، مع أنه من أفضل المواد وأرفعها ثمنا بالنسبة الى غيرها ..

ومن ذلك الشارع حصلنا على بعض الحاجات الضرورية من مجاسد (ثياب تحتانية) ومعلبات ، ولما سألت دليلى عن مواضع المعجنات الصاحة توجها بى الى حانوت احتشد على بابه الناس فى زحام يعز اختراقه .. وبعد جهد حصلا لى على ما يعوزنى من معروضاته الشهية حقا .. ولما سألت عن بواعث هذا الزحام على هذا المكان بخاصة ، فى حين تكثر معارض المعجنات من حوله ولا زحام عليها ، فكان الجواب : ان هذا مصنع احد المسلمين وقد اشتهر بالصدق والاتقان ، فالناس من اجل ذلك يؤثرونه على غيره ..

فى مجلس العلامة النعمانى :

كان بين الكتب التى أهديت الى من مطبوعات الندوة واحد لفت انتباهى بعنوان (دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب) وهو من آثار العلامة محمد منظور النعمانى . وقد سبق ان لقيت هذا الفاضل اثناء وجوده مع الشيخ أبى الحسن فى المدينة الحبيبة ، ولكن الفرصة لم تتسع اثناء اذ للاحتكاك به كثيرا ، فلم أعرف عنه الشىء الكثير .. أما بعد اطلاعى على هذا الكتاب فقد وجدتنى على معرفة عميقة بسيرات هـذا

الرجل · انه ذو علم واسع بما يتحدث عنه ، وعرض بارع لما يقـرره ، هذا الى موهبة عقلية تستولى على احترام القارىء وتقديره ، يتوج ذلك كله نزعة فاضلة من حب الحق وانصاف أهله · فبهذا الكتاب الذى لا تجاوز صفحاته المئة والخمسين يكشف الستور الكثيفة التى طالما حجبت حقيقة الدعوة السلفية التى نهض بها الامام محمد بن عبد الوهاب ، ولا سيمافى الاوساط العلمية من الهند ، حتى بلغ التعصب على هذه الدعوة أن كتب فى العدوان عليها وعلى صاحبها عشرات المجلدات المشـحونة بأكبر المفتريات · وبعضها بأقلام جلة من أهل الفضل الذين لا يرد كلامهم عند جماهير العامة وكبار المتعلمين ، فجاء العلامة النعمانى هذا يتتبع بدقة عجيبة مجارى الخطأ الذى تسرب الى أحكام هؤلاء الفضلاء فشوهها وشوه بها وجه تلك الدعوة البريئة النقية ··

ومن هنا جـاء تقديرى الكبير لهذا الجهد النحرير . وللمترجم الذى نقل ذلك السفر النفيس الى لغة القرآن بأسلوبه الحاذق البصير بخصائص كلا اللسانين العربى والاردى · وانى لاتوقع أن يجعل الله لهذا الجهـد المبرور فى خدمة الحق أثره الصالح فى قلوب محبى الحـق من قارئى الأصل والترجمة بفضله ومنه ، حتى ياتى على الكثـير من بقـايا ذلك التعصب الهدام الذى لا نزال نواجهه لدى الكثيرين من المضللين والمضللين أينما حللنا من ربوع الاسلام ·· ولا سيما عندما نتذكر ان غير قليل من أصحاب ذلك التعصب انما يتابعون رجالا أحسنوا بهم الظن فراحـوا يرددون أقاويلهم دون مناقشة ولا تطلع الى دليل ·· ولـو أتيح لهم من يحسن الحوار معهم بالحكمة والموعظة والجدال بالتى هى أحسن ، لعادوا الى ما أدركوا من الحق وهم فرحون · وفى ترجمتى للداعية المرحـوم الشيخ عبد الله القرعاوى من كتابى (علماء ومفكرون عرفتهم) عرضت مثلا واقعيا لهذا الضرب من الرجال فى أحد شيوخه من علماء الهند الذين قرأ عليهم الحديث ، وكان لا يفتأ يدعو على الشيخ محمد بن عبد الوهاب كلما عرض له ذكر أو فرغ من درس ، حتى كان ذلك اليوم اذ وضع المرحوم القرعاوى على منضدة شيخه كتاب التوحيد من عمل الامام المظلوم ، بعد أن خلع غلافه الدال على مؤلفه ، فما أن أطلع على مضـمونه حتى راح يطريه ويدعو لمصنفه الذى يتمنى ان يعرفه ·· وهناك أعلن الطالب الحكيم لأستاذه ان الكتاب الذى سره هو من قلم الرجل الذى يتقـرب الى الله ببغضه ·· ومن ذلك اليوم تحول الشيخ من الصف المخاصم للحركة الوهابية الى جانب أنصارها العاملين على نشرها ··

ولا جـرم أن ذلك مصير كل منصف يريد وجه الله اذا وجد اليـد الهادية الى الطريق القويم ·· لا أستثنى من ذلك فردا ولا جماعة ، الا أن

يكون هذا الفرد أو الجماعة من الاتباع العميان لـ (أمام المبتـــدعين فى الهند أحمد رضا خان البريلوى) (١) الذى يصفه العلامة النعمانى بأنه كان ـ على تقدمه فى مختلف الفنون ـ (مسارعا فى التفكير متطرفا فى التكفير ، دائم التعقب لكل حركة اصلاحية تستند الى صميم السنة النبوية. حارب نـــدوة العلماء وعلماء ديوبند ، وكفر كل من قال فى الوهابية كلمة الحق ، ولم يمت حتى ترك وراءه أمة مبتدعة .. دائمة الصراع مع أهل الحق فى شبه القارة الهندية) (١) ..

وما أحسنها مناسبة أن أجدنى على مقربة من منزل الشيخ فى ذلك الشارع ، فطلبت الى الأخوين أن يصحبانى اليه .. وعند مدخـل المنزل المنشود شاهدت بعض مظاهر النشاط العلمى الذى يقوم به ، فهناك مكتبة الفرقان وفيها الكثير من كتب التراث الاسلامى قديمها وحديثها ، وكثـــير منها من مطبوعات المكتبة نفسها التى تعد من أكبر دور النشر فى الهند . ولا ينفك العاملون فيها مشغولين بتجميعها واعدادها للشحن الى مختلف الانحاء ، هذا الى مجلة شهرية باسم (الفرقان) أيضا . مستمرة الصدور منذ خمسين عاما ، ويسهم فى تحريرها عدة من كبار علماء الهند ومفكريها ويتولى الشيخ كتابة الأبواب الثابتة من « معارف الحـــديث » و « تفسير القـــرآن » ..

واستقبلنا على المدخل صهر للعلامة هو الشيخ محمد زكريا المدرس فى دار العلوم بالنـــدوة ، وما ان صرنا الى صـــحن الدار حتى فوجئنا بالشيخ مقبلا نحونا يتوكأ على عصاه ، وقد بدا عليه الكبر والتعب فهـو يتحرك نحونا بجهد منظور ، فتأثرت لذلك وأقبلنا نسلم عليـه وأنا أقول : ما ينبغى أن نكلفك السير الينا ، فأنت أحق بأن نسعى اليك ..

وجلسنا الى الشيخ فى حجرة متواضعة كل شىء فيها يحمل طابع العلم والزهد والوقار .. وترجمت له مشاعرى نحو كتابه الذى قـرأت، واستوضحناه عن بعض المسائل ذات الصلة بالحديث الشريـف . واستمعنا اليه يذكر بعض مؤلفاته فى خدمة هذا العلم ، الذى يوشك أن يكون وقفا على أمثاله من علماء الهند ، واذا بين هذه المؤلفات تصانيف لا ينبغى أن تحبس فى لغة واحدة ، بل لا مندوحة من ترجمتها الى مختلف ألســـنة المسلمين ، ليعم نفعها كل مكان من العالم الاسلامى .. وانى لأكتب هذه الكلمات وبعض ما يخالجنى من أمل أن يطلع عليها أولو الغيرة من رجال

---

(١) انظر كتاب (دعايات مكثفة ..) ص ٩١ و ٩٢

الدعوة فى رابطة العالم الاسلامى بمكة ، ودار الافتاء والدعوة والارشاد بالرياض ، والجامعة الاسلامية بالمدينة ، فتتألف لجنة من أهل العلم والتحقيق للاطلاع على بعض تلك المؤلفات ، وتقرير ما ينبغى ترجمته منها الى العربية وغيرها ..

عمالقة الفكر الاسلامى بالهند :

لقد أتى على المسلمين حين من الدهر تمكن خلاله أعداؤهم من التفريق بينهم حتى لا يشعر فريق من المسلمين بما يعانيه الفريق الآخر .. ومن ذلك التعتيم الذى فرضوه على أخبار علماء المسلمين فى شبه القارة الهندية ، حتى باتت علومهم من الامور المجهولة فى معظم البلاد العربية، وحتى لتسمع بعض المثقفين منهم يتساءلون عما اذا كان لمسلمى الهند أى مجهود فى نطاق العلوم الاسلامية ! .. وقد كان من نعم الله ان زالت هذه الحجب ، وعاد التواصل بين اجزاء العالم الاسلامى ، على الرغم من طواغيت الحكام ، وبذلك أتيح للكثيرين من العرب أن يطلعوا على الثمرات اليانعات من العقول الاسلامية فى هذا الجانب من الارض ، فيدركوا أن هناك قمما من العبقريات التى ثبت بها الله دينه بوجه الزلازل المتبرة ، وأسهمت ولا تزال تسهم فى نشر نوره الذى عجزت وستظل تعجز عن اطفائه العواصف المدمرة .. وها هى ذى صدور المسلمين على امتداد عالمهم الكبير تتفاعل اليوم بالافكار المضيئة من علوم شبلى النعمانى وسليمان الندوى وأبى الأعلى المودودى وأبى الحسن الندوى وشاعر الاسلام محمد اقبال ، والعشرات من عمالقة الفكر الاسلامى فى الهند وباكستان .. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .. والله ذو الفضل العظيم ..

ولقد أبى الشيخ متع الله بحياته أن نفارقه الا بعد أن وعدناه بقبول دعوته الى غداء الغد ، وذلك مما يسرنى دون ريب لأنها فرصة جديدة للاستزادة من الخير والبركات ..

الخطبـــة الأولى :

الجمعة ١٤٠١/٢/٥

« الحمـــد لله الذى كسانى جديدا من غير حول منى ولا قوة » كررت هذا الحديث الشريف أكثر من مرة وأنا أرتدى الثوب الذى خاطه لى ذلك الصناع الهندى ، وقد وجدت لهذا التحميد النقى طعما خاصا زائدا على ما كنت استشعره له كلما ارتديت جديدا من نعم الله ، وذلك بالطبع عائد الى كونه أحد اثنين لا أملك هذا سواهما بعد فقدان الحقيبة وفيهـــــا كل ما يعوزنى من عدة السفر ، وهاهى ذى ثلاثة أيام تمر على وصولى دون أن أتلقى عنها خبرا ٠٠ ومن يدرى فقد تكر الايام تلو الايام ونحن بالانتظار وإذن فلا مناص من تلافى الامر بشراء ما يكفى من الملابس على الاقل ٠٠

وغادرت الحجرة مع الأخ الشيخ سعيد رأبى سحبان الى المســجد المجاور ، وقد امتلأ فضاؤه المزدوج بحشود المصلين ، أكثرهم من طــلاب دار العلوم وأساتيذها ، وآخرون من مختلف الانحاء ، وبخاصة جـــيران النـــدوة من المسلمين ٠٠

وبعد أداء السنة التى لا بد منها عند الأحناف نصب المكبر ورقيت المنبر ، وكان موضوع الخطبة الاولى قول الله تعالى من خواتيم سورة الأحزاب : (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) ووقفت عند كل من أجزاء الآية الكريمة ، أوجــه العقـــول والقلوب الى معانيه بشىء من التفصيل والتبسيط ، الملائم لجمع فيه الفاقهون لألفــاظ الآية ، من طلبة العلم ، وفيهم المتعمقون لأبعادها من الشيوخ ، وبينهم الذى ليس من كلا الفريقين ، فهو يأنس بمجرد سماع الكلام الآلهى ، ويكاد يفطن لمدلولاته من خلال لهجة الخطيب ، وانفعال مشاعره بما يرى ويسمع ٠٠

وهكذا أدرت الحديث على النـــداء الأعلى للمؤمنين . ثم الأمــــر الحكيم بالتقوى ، وقد قرنت بسداد القول ، كارتباط السبب بمسببه ، لان تفاعل القلب بالتقوى هو الذى يبعث المؤمن على محاســـبة النفس حتى يلجمها عن كل قول لا ينسجم مع حقيقتها ٠٠ ومن ثم يأتى الجواب المحدد لعواقب الأمرين صلاحا للأعمال ، ومغفرة للذنوب ٠٠ وهما من خصوصيات

المؤمن الذى يأخذ نفسه أبدا بهذا الضرب من المحاسبة الذاتية ·· وأخيرا يشرق ذلك التذييل المبشر بأسمى ما يتطلع اليه الانسان مطلقا ، وهو الفوز العظيم الشامل لكل ضروب الخير والتوفيق والسعادة ، ولا سبيل الى ذلك الا بطاعة الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وبالكتاب الذى يهدى أبدا للتى هى أقوم ، مقرونة بطاعة ذلك الرسول الرءوف الرحيم ، الذى بمسلكه الأعلى جسم للناظرين والسامعين والقارئين كمال رسالته الخاتمة ، فلم يدع خيرا الا دل عليه ، ولا شرا الا حذر منه ونهى عنه ، حتى تركنا على بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك ·· ومن هنا أطلت بالسامعين على حياة الصدر الاول من السابقين ومن تبعهم باحسان، وذكرت بتطبيقهم العملى لهذه التوجيهات الربانية ، وما انتهوا اليه بسبب ذلك من حيازة تامة لعز الدنيا والآخرة ·· ثم لفت البصائر الى واقع المسلمين فى أوضاعهم الراهنة ، وكيف انصرفوا عن رسالتهم الى تقليد أعدائهم ، وتأييد كل ناعق ممن لا يريد بدين الله خيرا ، فكانت عاقبة أمرهم الخسار الذى يتخبطون اليوم فى ظلماته ، وسيظلون فى ضياعهم وتخبطهم حتى يعرفوا طريق العودة الى طاعة ربهم ونبيهم ، فيتقوا ويسددوا فيعودوا كما كان سلفهم خير أمة أخرجت للناس ··

ومن ثم أدرت الخطبة الثانية على قوله تعالى من خواتيم سورة الكهف (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وعرضت لما بين الآيتين كلتيهما من تقرير حاسم لوسائل الفلاح التى لا تخطىء أبدا ، وبالتزامها يسلك المسلم سبيله الاقوم على نور من ربه فلا يضل ولا يشقى ، وتحذير حازم من فراق ذلك النور الى مفاوز الضياع ، حتى يصبح كل عمله خسرا وضلالا ، وذلك هو الواقع الرهيب الذى انتهى اليه الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فجرفهم الغى الى مزالق الفرقة والاقتتال والانسياق لكل ما يأمرهم به شياطين الانس والجن ، اذ أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ، فضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، فدمروا أنفسهم ، وخربوا ديارهم ، وهم مع ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعا ! ··

وكنت أشعر وأنا ألقى بهذه المعانى فى أسماع المئات من المصلين أن مددا من وراء القدرة الشخصية هو الذى يسدد لسانى الى الخير الذى وفقنى الله اليه ··

وأثناء طعام الغداء أطلعنى الاخ الشيخ واضح رشيد على برقية الجامعة الاسلامية فى شأن قدومى ، ومعنى ذلك أن أربعة أيام بلياليها قد مرت على سفرها بـ (التلكس) ما بين المدينة ولكناو ·· اذ كانت قد

سلمت الى صاحب التلكس بالجامعة منـــذ ظهر الاثنين ، على ان تاريخ صدور البرقية يؤكد أنها لم تغادر المدينة قبل يوم الاربعاء ، وبذلك يتقاسم الشطران تبعة تأخيرها فيكون لتلكس الجامعة يومان ولمصـلحة العاكس الفضائى فى الهند اليومان الأخران ، وهنا وجـــدتنى أتساءل : أفى كل الايام يحدث مثل هذا (الاهتمام) ! ٠٠ أم هو واقع خاص بأهــل الشرق وحدهم ! ٠٠ واذا كان هذا نصيب البرقية العجلى ، فماذا على ان أتوقع بشأن الحقيبة الضائعة ليت شعرى ؟ ٠٠ أغلب الظن أنها لن تصل ـ اذا وصلت ـ قبل عودتى الى المدينة ، حيث أكون فى غنية عن كل محتوياتها، ولا غرابة فقد مضت لنا تجربة أشد قسوة وأدعى الى التساؤل عن هذه وتلك ، وذلك بفقدان سبعة عشر صندوقا من مؤلفاتى شـحنت من بيروت الى الرياض قبل أربع سنوات ٠٠ يضاف اليها صندوقان من مؤلفاتى الاخرى شحنت من دمشق الى الرياض فى السنة نفسها ، وكان لها المصير نفسه، وحتى الان لم نعثر لهؤلاء المشحونات بأى اثر ، على الرغم من عشـرات المراجعات وتقديم أوثق البينات ٠٠ ولا حول ولا قوة الا بالله ! ٠٠

هــؤلاء جنـــود القـــرآن :

ما أروع منظرا شهدته صباح هذا اليوم ـ السبت ١٤٠١/٢/٦

لقد دخلت المسجد لصلاة الفجر فاذا الدوى يملأ أرجـاءه ٠٠ انهم طلاب تحفيظ القرآن يتحلقون فى المستطيل السماوى من داخل المسجد ، وكل منهم يتلو حزبه من كتاب الله بمسمع ومشهد من شيخ مجموعته ، وقد شغل بواجبه عن الآخرين ٠ ولعل أروع ما هنالك أن ينقطع التيـــار الكهربائى وهم على شأنهم هذا ، كدأبه كل فجر ، فيستعيضوا عنه ببعض الشموع ، دون أن تسكت أصواتهم عن التلاوة ٠٠

ان هذا المشهد ليذكرنى بكلمة ذلك السائح الرومى الذى جاب بعض اقطار المسلمين فى الصدر الاول ، فكان مما رآه من خصائصهم ذلك الدوى المماثل لما أسمعه الان ، يتعالى بآيات الذكر الحكيم من أعماق بيوتهم ، فى وقت هو أحب ساعات النـــوم عند الشعوب التى عرفها أثناء تجواله فى الأقاليم الأخرى ٠٠

اجــل ٠٠ ما اروعــه مشهدا ٠٠ وما سـعده صباحا أفتتح به هذا اليوم من حياتى ، الذى سيكون مباركا كله ان شاء الله ٠٠

لقد لبثت مليا اتأمل فى خلفيات هذا المنظور فأطل من خلالهـا على المستقبل ، وقد انتشر هؤلاء الفتية فى مختلف الارجاء من أوطانهم المتباعدة

يتلون هذا الكتاب الخالد ، وينشرون نـــوره فى ظلمات الناس ، فيسهمون فى الحفاظ على ميراثه السماوى بين أهل الارض ، تحقيقا لقوله تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وليت شعرى كيف سيتم حفظ هذا القرآن لو خلت البلاد من هؤلاء واخوانهم ومشيختهم فى عالم الاسلام !٠٠

الا بارك الله عملك يا ندوة العلماء ، واخواتك الناشطات لاذاعة كلمة الله فى شبه القارة الهندية ٠٠

وبارك الله عملك يا جامعة كونتور واخواتها الدائبات على حمل هذا المشعل المنقذ فى الجزر الاندونيسية ٠٠

وبارك الله جهود وزارة التعليم فى الحرمين المباركين ، وسائر انحاء المملكة العربية السعودية ، التى اكرمت جهود القائمين بخدمة هذا الكتاب الكريم ، ورعت بعطفها نصب الحفاظ له من الطلبـــــة ، فكافاتهم بالمشجعات السخية ، وقدرت لهم جهـــــدهم المبرور فالحقتهم بالمستويات المناسبة من فصول الدراسة ٠٠

وليبارك الله أخيرا عمل كل عامل فى خدمـــــة هذا الكتاب الذى به وحده حياة العالم بأسره ٠٠

وليت الأزهر ، وهو المعقل الاسلامى العريق ، يعود كـــرة أخرى الى خطته المثلى ، التى صرف عنها فى العهد الاخير ، فلا يقبل بين ولابه الا الحافظ للقرآن العظيم ٠٠ كى يستعيد المكانة التى كانت له ايام القمم من مشايخه ، والصفوة العليا من طلابه وخريجيه الذين بأجيالهم الفاضـــلة ادى امانته للعالم الاسلامى جميعا ٠٠

لا ســوق ســوداء هنـــا :

ولم يكن لدى من عمل سائر هذا اليوم اذ أبلغنى الأخ واضح أن جدولنا سيبدأ من ظهر الاثنين ـ بعد غد ـ لأن كثرة الأساتذة مدعوون غدا للسفر الى قرية (تكيه كلاه) لحضور الحفل الذى سيعقد هناك بمناسبة قـــران ابن المرحوم الاستاذ محمد الحسنى ، فقيد الاسلام ، والداعية الموفق الذى أسال فقده دموع الآلاف من قرائه المنتشرين فى أنحاء العـــالم الاسلامى ، تغمده الله بجزيل الأجر والغفران ٠ وكان على أن استبدل ببعض الدولارات التى احملها ما انا بحاجة اليه من الروبيات ، فقصدت مع أبى سحبان أحد الأسواق ، فلم نجد راغبا في هذه الدولارات الا فى حدود السعر الرسمى ، اى لكل مئة دولار اميركى سبعمئة وسبعون روبية ٠٠ وذلك أمر طبيعى فى

بلد تقوم سياسته الاقتصادية على الكفاية الذاتية فليس لتجاره حاجة الى الاستيراد ، والمنفذ الوحيد لتصريف العملة الاجنبية هو عند الراغبين فى السفر الى الخارج ، وحتى هؤلاء اذا وجدوا لا يزيـــدون عن التعـــرفة الرسمية الا قليلا ٠٠

وانتهينا الى احد المصارف ، الذى قيل أن له صلة تبادلية مع احـــد صرافى المدينة ، وتولى أبو سحبان أمر التبديل المراد ، ولبثت انتظره على الرصيف ، وهناك شاهدت عجلة عليها مقادير من اليوسفى ذى المنظـــر الجميل ، فطلبت من بائعه كأسا من عصيره ، ولكنى لم أستطع اساغته لانه جعل فيه ملحا على عادتهم فى مزج الاشربة ، حتى الاناناس الذى نستلذ طعمه ، يأبون الا أن يغيروه باضافة الملح الى فصوله ٠٠ على عكس المألوف فى أندرنيسية ، حيث يدخل السكر فى كل طعامهم تقريبا ، ولا أدرى اذا كان لاختلاف المناخ بين البلدين اثره فى نشدان السكر والملح ، أو أنها مجرد عادة تكررت فألفت ٠٠

منظـــر مؤســـف :

وكان أبو سحبان قد عاد الى فناولته الكأس ليشربها عنى ٠٠ وأثناء ذلك لمحت منظرا آسفنى ، ولم أعرف له تفسيرا ٠ ذلك أن فتى متين البنية كأنه من هـــواة الرياضـــة ، قد ارتفع الى الرصيف ، وعليه ثـــوب ليس بالبالى ، ولكنه غارق فى طلاء من الأوساخ الكثيفة ، وعلى مقربة من بائع العصير انحنى ليلتقط فصولا من برتقالة نبذها أحد الآكلين ، وبعـــد أن مسح عنها التراب جعل يقذفها فى فمه واحدا بعد الآخر ! ٠٠

وما أرانى أستغرب منظرا كهذا فى بلد يتراوح دخل العامـــل فيه ما بين ثلاث وثمانى روبيات فى اليوم ، أما الوسخ فيكاد يكون من مستلزمات الكثيرين من ناســـه ، حتى ان الحانوت الذى نشرب فيه القهوة بالحليب يقوم بخدمة رواده ــ الكثيرين ــ فتى يتعذر على المحدق أن يستبين لون ثيابه الأصلى من وراء الأوســـاخ ٠٠

وغير بعيد من هذا المشهد المؤسف وفرة المتسولين الذين يلاحقـــونك بمثل الحاح المستجدين فى دمشق ، قبل قيام الجمعيات الخيرية التي قضت على هذه الظاهرة فى مختلف انحاء الشـــام ٠٠

الى مقـــر الشـيخ :

الأحـد ٧ ـ ٢ ـ ١٤٠١

بالأمس ودعنا الأخ الشيخ واضح رشيد زمو فى طريقه الى مقـــر الشيخ أبى الحسن فى (تكيه كلاد) ولكنه لم يلبث أن عاد ضحى اليـوم الى النـــدوة ، حيث كنا نتهيأ للسفر الى هناك ، وعلمت أثـــر ذلك أن أبا الحسن ـ حفظه الله ـ قد أعاده لكى يرافقنى اليه ، فجزاهما الله عنى كل خـــير ٠٠

وفى تمام الساعة ½ ٩ تحركت بنـا السيارتان ومعنـا الأخـوان المصريان المبعوثان من قبل الأزهر للتدريس فى دار العلوم : الشيخ ابراهيم مطاوع والشيخ ربيع عبد الدائم ، وبقية الاخوة من الاساتذة ٠٠

الطريق كغيره فى هذه البلاد ، وفى البلاد التى زرتها من جنوب شرق آسية ، محفوف بالخضرة زروعا وأشجارا ضخاما ٠٠ ومررنا بالكثير من حقول الخردل والعدس ٠٠ وقد استوقف نظرى من هذا الاخـير ارتفاعه على غير الهيئة التى عهدناها فى مزارع الشـام ، حيث لا تعدو شـــجرة العدس هناك نصف المتر ،على حين أراها هنا تتجاوز المتر الى المتر والنصف ٠٠ وثمة مالا يحصى من شجر المانجو وقصب السكر والنيم ونحو ممـا يقتصر عطاؤه على الظل والخشب ، ومعظمها منثور على غير انتظـام ، وهى الظاهرة البارزة فى كل شىء هناك حتى الابنية ، وقلما نعبر دسكرة لا نرى فيها المعابد الوثنية ذات الشكل شبه المخروطى ، وقـد نصبت على جوانبها تماثيل الآلهة ، وهى على الغالب ضيقة القاعدة تنبىء بأن العبادة فيها فردية ، بمعنى أن المـار بالمعبد يكتفى بالسجود السريع لهـا ، أو بالاشارة اليها براحتيه المطابقتين تحية واجلالا ٠٠ ومن هذه الظواهر الماثلة فى كل مكان مررنا به من الهند يتراءى لى أن النفس الهندية مجبولة على التدين ، وان كان الكثير من جيلها الجديد قد تجرد من هذا التصور ، الى حد ألا يتورع عن أكل لحوم البقر المقدس فى ديانته اذا وجد غفلة من الاعين ومع ذلك فهو لا يزال يمارس هذا النوع من عبادة الحجارة جريا مع التقاليد والتزاما للهوية القومية ، بل انه ليتجاوز بعبادته تماثيل الأحياء الراقيـة الى كل ذى نفس من الحيوانات والهوام والطير ، حتى الجرذ والحية والقرد والبعوضة ، لا يمس منها شيئا بسوء ، ايمانا من الهندوسى بأن كلا منها

لا بد أن يكون روحا لواحد من أسلافه ، وهى نفسها أصل عقيدة التناسخ التى تسربت من هنا الى الدروز والنصيرية وغيرها من النحل الباطنية ٠

تقـــدير شـــــعبى :

وبعد اجتياز الستين ميلا انتهينا الى قـرية (رأى بريلى) فاخترقنا اسواقها وأزقتها الضيقة المتعرجة ، باتجاه دسكرة الشيخ القـائمة فى عزلة من أطرافها ٠٠ وفى أفضل تلك الاسواق شاهدنا بلاطـة كتب عليها بالحرف العربى (شارع أبى الحسن الندوى) ٠ وما أحسبها الا عاطفـة شعبية وضعتها هناك اعترافا بجميل الشيخ ، وتقديرا لفضله ٠٠ وما أبعد البون بين تسمية يطلقها ضمير الشعب على شارع أى مؤسســـة تخليدا لذكرى أحد المحسنين وأخرى تفرضها السلطة الباغية على مدرسـة أو ثكنة ، لتكره الشعب على ألفة ذلك الاسم ، لا لمأثرة قدمها صاحبها لبلده او أمته ، بل لمجرد كونه كان واحدا من المؤسسين لتلك السلطة ، أو واحدا من أذنابها الذين اسهموا فى اذلال بلدهم المسكين ٠٠

وكان على السيارة أن تعبر الى مقر الشيخ طريقا خاصا مصنوعـا لهذه الغاية ، وهو مرتفع عن بسيط الارض المحيطة به ، ولكنه من الضـيق بحيث استشعرت الخوف على السيارة أن تنزلق بنا هنا أو هناك ، وبخاصة عندما وازينا المنحنى الحـاد المائل نحو الحى المنشود ، بيد أن السائق كان على غاية من الاطمئنان لانه سبق أن قتل هذا الجسر خبرة من قبل ٠

ولقد استرعى انتباهى زورق مستلق على مقربة من الممر ، وسألت عن الباعث على وجوده هناك ، فأنبئت أنه وسيلة المواصلات لسكان هذه البقعة ، كلما دهمهم النهـر المجاور بطغيانه ٠٠ وقد شهدنا آثار مده عندما أدينا صـلاة الظهر فى مسجد المحلة ، القائم على كتفـــه ، حيث لا يزال الخط الذى تركه على الوسط من جدرانه بارزا يذكـــر المصلين بضرورة الاحتياط لمواجهته كيلا يأخذهم على حين غـرة ٠٠

وفى ساحة (تكية كالنه) وهو اسم الجانب الذى يسكنه الشيخ ، وله اسم آخر هو (تكية الشاه علم الله) كان فضيلته ينتظر الوافدين مع ثلة من أصحابه ، وما ان علم بوصولنا حتى نهض لاستقبالنا ، وكان عنـــاق بينى وبينه حميم ٠٠ اذ كانت المرة الاولى التى تتلاقى فيهـا على أرض الهند ، ومن ثم جلسنا الى جانبه مع الاخوة الآخرين ٠ وتداولنـــا بعض الأحاديث المفيدة ، وكل حديث مع الشيخ مبارك ومفيد ٠٠

ومعتكف شعرى وروحى :

وقد راقنى جو هذا الحى بما يجلله من الهدوء المساعد على التامل . أنه معتكف شعرى توافرت فيه كل أسباب الانطلاق الروحى ..

فها هنا منزل آل الشيخ تجمع بين البساطة والمهابة ، وعلى مقربة منها المسجد الذى اليه يثوب سكان الحى لتجديد الطاقات المؤمنة خلال الصلوات الخمس ، وبجوار المسجد يتدفق نهر (سى) فى خشوع العابد الذى لا يغفل عن ذكر ربه ، وهنا وهناك حدائق (الجوافية) الفيحاء تحمل الجمال والثمار للقوم الذين يقدرون نعمة الله .

وفى هذا الجو المهيب أتحفنا الشيخ بضمة نفيسة من تاريخ هذه البقعة التى احتضنها التاريخ فيما احتضن من مآثر المسلمين فى أرض الهند ..

فها هنا عقد المجاهد الاسلامى العظيم السيد أحمد عرفان الشهيد المؤتمر الأول الذى نهض بعبء التعبئة لتحرير الهند من براثن الاستعمار الانجليزى الغشوم .. وكان ذلك عام ١٢٤٢ هـ ..

لقد شهد ذلك الاجتماع التاريخى أساطين الرجال من المعنيين بقضية الاسلام علماء وتجارا ورجال أعمال ، وكلهم ممتلىء الجوانح أسى ونقمة من ظلم أولئك الطغاة ، الذين خربوا حياة المسلمين فسلبوهم عزهم وكرامتهم وأمنهم ، وكانت حصيلة المؤتمر ذلك القرار العظيم القاضى بوجوب العمل القتالى لتطهير البلاد من أرجاس الغاصبين .

ولا حاجة لنكأ الجراح بعرض ما رافق ذلك الجهاد الكبير من انتصارات باهرة ، ثم ما أعقبها من مآس مدمرة كادت تأتى على وجود الاسلام والمسلمين فى هذه البلاد ، بسبب التعصب الوثنى الذى جر الكثيرين من غير المسلمين الى جانب الأعداء ، فأنزلوا بدعاة الحق والخير والحرية اقسى واشرس ضروب الابادة والتنكيل ، حتى كانت المذابح الهائلة تفرغ بعض الحواضر الهندية الكبيرة من سكانها المسلمين جميعا ..

والحق أن ما كتبته من ترجمة للشيخ أبى الحسن فى كتابى (علماء ومفكرين عرفتهم) كان ينقصه بعض نفحات هذه البيئة . وتتبع آثارها الطبيعية والتاريخية فى تكوين الشيخ العقلى والروحى .. ولعلى ا لو قيض لى أن أعيد طبع الكتاب ، أن أستدرك ما فاتنى من هذه الروافد المثيرة والمؤثرة ..

على مائدة ابى الحسن :

وتابعت وفود المدعوين للعرس ، ومدت الموائد ، ودعينا للطعام مع الشيخ ، وكان شهيا بسيطا ، يتألف من (القاورمة) وهو لحم مسنوق ثم مقلى . ومعروض فى غمرة من المرق اللذيذ ، ومعه أطباق الأرز المطبوخ على طريقة (البريان) مصبوغا بالزعفران ومخلوطا باللحم ٠٠ واقرب ما يكون الى الطبخ العربى ، وبخاصة الشامى منه ، ولا يفوتنى هنا أن اشير الى نفاسة الطعام الذى تمتاز به مائدة المسلمين فى الهند ، فقد حضرت العديد من هذه الموائد فى مدراس ولكنار وبنارس وأعظم كره ودهلى وبومباى وكجرات ، فلم أذق قط أطيب طعما ولا أحسن طبخا ولا أزين عرضا منها ٠٠

وقصارى القول أن الطعام كان سائغا لاذا ، وقد ضاعف متعته تناولنا اياه مع الشيخ والاخوة المرافقين والمدعوين ٠٠

وفى أعقاب الطعام لاحظت أن بعض المدعوين يقبلون على الشيخ لتوديعه ، وفى ايمانهم ظروف يحاولون أن يضعوها فى يده ، الا أنه يعتذر عن قبولها بأدبه المعهود ، ففهمت من ذلك أنها هدايا مالية يقدمونها بهذه المناسبة ٠ وكان فى نيتى أن أهدى الى العروسين تقدمة صغيرة ، فترددت خشية أن يكون حظها كغيرها ٠٠ وقبل دخولنا سيارة العودة أخذت بيد الأخ الشيخ سعيد الأعظمى الى خلوة قريبة ، وهناك فاتحته برغبتى ، وبخاصة أن العروس - الزوج - هو ابن المرحوم الاستاذ محمد الحسينى الذى عز فقده على كل قارىء للرائد والبعث ، وكذلك العروس - الزوجة - هى ابنة أخينا الشيخ واضح رشيد ٠٠ وكلهم من أنسباء الشيخ أبى الحسن ومن احب الناس الى فى هذه الديار ، التى يقومون فيها بأفضل الخدمات للدعوة على المستوى العالمى ٠٠ ورجوت من الاخ سعيد أن يؤازرنى لاقناع الشيخ بقبول هديتى ، ولكنه تهيب أن يذهب معى اليه ، واشار على بعرض الفكرة عليه بنفسى ٠٠ ولم اتريث فقدمت الى الشيخ ، وفى خلوة صغيرة كاشفته بامنيتى فاعتذر واصر ٠٠ واخيرا قال لى : يمكن أن نقبل منك هدية رمزية ، قلت : انها كذلك لا تزيد عن مئة دولار ٠٠ فاجاب : لا ٠ بل دولار واحد فقط ٠٠ وطبيعي انى لم أرض بذلك ، ولم يتح لى أن احقق من امنيتى شيئا ٠٠

ذلك هو الملك والله :

وقبل أن أفرغ من الحديث عن ذلك الحفل الكريم ، احب أن اضع بين بين يدى القارىء صورة مصغرة عما شهدته هناك من تقدير الناس لهذا الرجل الذى احبه المسلمون فى كل مكان من أرض الاسلام ٠٠

فى الحديث الصحيح (اذا احب الله تعالى العبد نادى جبريل، أن الله يحب فلانا فأحببه فيحبه جبريل ، فينادى فى أهل السماء أن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض) (١) ٠٠

ولعمر الحق ان فى حياة هذا الرجل ومـــا يحيط به من حب أولى الايمان لدليلا على انه واحد من هؤلاء الذين اكرمهم الله بحبه ، فبهـــذا التوفيق الربانى يستولى على العقول والمشاعر ، فما يرسل الكلمـــة فى آذان مستمعيه حتى تصير الى قلوبهم فتهز وجدانهم ، وتحرك ضمائرهم ، وتبعث فى صدورهم الاشواق المتوهجة الى اكرم المثل ٠٠ ورحم الله امام التابعين الحسن البصرى ، الذى سأله أحد كبار الخطباء عن رأيـــه فى خطبته فأجاب . (يا هذا ، أقلبك المريض أم قلبى ، فانى لم أجد لكـلامك طعمـــا ٠٠)

ولا عجب ان يكون لأبى الحسن مثل ذلك التأثير فى قلوب محبيـــه من المؤمنين . وهو الذى أدب نفسه بأدب الوحى ، وروى قلبـــه من معين النبوة ، فهو ينظر بنور من ربه ، ويتكلم بروح من قلبه ، وشتان ما بين جنان جف من رواء الكتاب والسنة ، فلا يتجاوز بيانه الآذان ، وجنـــان اشرق بضيائهما فهو يتجاوز السمع الى أعماق الجنان ٠٠

وانى لأنظر الى هذا الحب والتكريم الذى شهدته موجها الى هـــذا الرجل فى (تكية شاه علم الله) وفى لكناو ، وفى بومباى ، وفى المدينة المنورة ، وفى مكة المكرمة ، وفى الدوحة وبيروت ودمشق و ٠٠ فلا أتمالك أن أتساءل : أين الملوك والرؤساء والكبراء ٠٠ عن بعض هـــــذا التقدير المنبثق من أعماق اعماق القلوب ! ٠٠

ان لبعضهم مواكبهم ومهارجهم وحشودهم الهائلة ٠٠ ولكنها تدوم ما دامت لهم الدولة ، فاذا زالت نسيهم الناس وأداروا لهم الظهور بعـد ذلك الظهور ٠٠ وأين هذا من ذاك ! ٠٠

هنا العلم والفضل والزهد الذى يحوطه الحب ، ويغمره الود الخالص ٠٠ وهناك الجبروت الذى لا يجرؤ على مواجهة الناس الا فى سـياج من الحرس المدجج بالحديد والنار والرادار ٠ ٠

يحدثنا التاريخ ان والدة المتوكل ـ الخليفـة العباسى ـ أطلت ذات يوم من شرفة قصرها تستطلع انباء الضجة المتصاعدة من الساحة المواجهة

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة (رض) ٠

وسألت : من هذا الذى الذى يتقدم الجماهير ؟ فجاءها الجواب قائلا : انه عبد الله بن المبارك احد امراء المؤمنين فى علوم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقالت : ذلك هو الملك والله ، لا ملك المتوكل .

وما أشبه الليلة بالبارحة ..

وبعـــد .. فما شهدنا الا بما علمنا .. فغفرانك اللهم ولا نزكى عليك أحدا من عبادك ..

المحرومون في كل مكان :

الاثنين ٨ ـ ٢ ـ ١٤٠١

حبست نفسي على القراءة الى منتصف النهار ، اذ لم يكن في جدولي أي عمل لهذا اليوم الا محاضرة ما بين العشاءين ، حتى اذا صلينا الظهر وتناولنا الغداء ، واخذت بعض الراحة في غفوة قصيرة ، حملتنا سيارة الندوة الى شارع أمين اباد حيث أصلحنا وضع الاسنان عند صانعها الصيني ٠٠

اثناء الطريق الى الشارع وعند نهاية الجسر باتجاه الحديقة العامة لاحظت مجموعة من المساكن المصنوعة من الاعشاب ، ومن ورق المقوى ، تقوم في أسفل الجسر على امتداد طويل ، وقد تألفت من حجرات ـ بل جحور ـ متصلة في حيز ضيق ، وقد تراكم عليها الغبار المتناثر من حركات السيارات والمشاة ٠٠ وعلمت من مرافقي انها مأوى بعض الأسر الفقيرة ٠ فتذكرت أمثالها من الجحور البائسة التي شاهدتها في بعض حواضر أندونيسية ، وتذكرت كذلك اولئك التعساء من الأسر التي تعيش على الأرصفة في مدراس ـ بالهند ـ ومانيلا ـ بالفلبين ـ وطفت على ذاكرتي كلمة ذلك الأخ الفلبيني الذي كان رفيقنا في مانيلا ، اذ سألته عن معيشة هؤلاء وعملهم في طلب الرزق ، فقال لي :انهم يعيشون على ما يستخرجونه من صناديق القمامة ٠٠

منظفات شعبية :

وامام جامعة لكناو الحكومية في الطريق الى الندوة شاهدت الغسالين ينظفون الثياب في النهر ، ثم يضربون بها الحجارة ، على الصورة التي طالما رأيناها اثناء الطفولة في الساحل السوري وجباله . حيث كان النسوة يخرجن بالثياب الى ضفاف الانهار او الينابيع أو السواقي ، فيجمعنها بعد نقعها على صفائح الحجارة ، ثم يشرعن في ضربها في قوة بالمخباط ٠٠ وقد أراح الله نساء اليوم وثياب الناس من ذلك الضرب الموجع ، الذي يذهب بجدة الثوب وقدرته على (الصمود والتصدي) ٠٠

على ان شيئا جديدا لم اسمع بمثله قط ، وهو ما حدثني به الأخ الشيخ مطاوع ، من أن هؤلاء الغسالين يعرضون الثياب الملطخة بالدهون

ونحوها الى عملية أخرى ، هى نقعها فى محلول من خثى البقر لا تلبث أن تزيل ما عجز عنه الماء والمنظفات المختلفة ·· ويسأل الاخوة عن هـذه العملية من حيث النجاسة والطهارة ، والذى أراه ان لا نجاسة فيها ، لأن فضلات البقر لا تدخل فى النجاسات ، ثم لأن آثار هذا المحلول سيزول بعد ذلك بالماء الطهور ··

يحسبون أنهم يحسنون صنعا :

وكان شارع ظهير أباد نصف مغلق ، والناس يتقاطرون منصرفين ، فسألت الأخ أبا سحبان عن السبب فقال : انهم خائفون من امتداد حادثة أول أمس بين أهل السنة والشيعة الى هذه الامكنة · ولعلى نسيت الاشارة اليها فيما تقدم ، وهأنذا أجملها فيما يلى

من العـادات المألوفة لدى طائفة الشيعة بلكناو أن يتخـذوا من مناسباتهم الدينية فرصا للخروج فى مسيرات شعبية ، يظهرون فيها أحزانهم على شهداء آل البيت المطهر ، وأثناء ذلك يرفعون عقائرهم بذم الصحابة الذين رضى الله عنهم فى محكم كتابه المجيد بمثل قوله سبحانه : (لقـد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ـ الفتح ١٨) وقوله جل اسـمه فى آخر السورة نفسها : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفـار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ··)

والغريب فى أمر هؤلاء أنهم يطلقون مذماتهم على أولئك الأطهـار وهم يتلون مدح الله اياهم فى هذه الآيات البينات من كتابه العزيز ، الذى يجمع المسلمين كلهم تحت رايته ! ·· وتزداد هذه الغرابة قوة اذا تذكرنا أن القوم لا يخلون من ذوى مواهب لا تعجز عن ادراك معانى هذا الثناء الآلهى لو أخلصوا النية فى طلب الحق ··

ان الله تبارك اسمه يعلن فى هذه الآية رضاه عن صحابة نبيه الذين بايعوه يوم الحديبية وهم ألف وأربعمئة ، ويشهد بصحة اليقين التى تنطوى عليه قلوبهم ، والذى به استحقوا السكينة والاثابة والفتح ، ثم يسـبغ عليهم اكرم النعوت اذ ضمهم الى معية نبيه ، ووصفهم بافضل ما يميـز الصفوة من عباده ، شدة على الكافرين ، ورحمة بالمؤمنين ، واخلاصا فى الجهاد والعبادة لرب العالمين ··

ويستحيل على عاقل نزيه بعد هذا ان يتصور امكان تسرب الزيغ الى رجال من هذا الطراز ، بعد ان أيد الله خيريتهم بشهادته من فوق سبع

سموات ، الا اذا كان من الذين يجرؤون على رد شهادة ربهم لمحض الهوى الذى هو من عمل الشيطان ٠٠

الطريق الى التفاهم :

وبهذه المناسبة اذكر ان ممثلا لكبير كبراء الشيعة فى البلاد العربية قد علم بوجودى فى بومباى اثناء هذه الرحلة ، فابدى رغبته فى الاجتماع بى فلم أر مانعا ، ولما ضمنا المقام ، وشرع فى الكلام عن الاســـلام ، والحاجة الماسة الى تعاون المسلمين وتناصرهم ، امام النوازل التى تهاجمهم من كل حدب وصوب ، لم اتمالك أن افضى اليه بذات نفسى ٠ وكان مما قلته له : من المحال أن يتم تعاون سليم بين الشيعة واهل السنة والجماعة اذا لم يسبقه اطمئنان كل من الفريقين الى الآخـــر ولا سبيل الى هـــذا ما دام أحد الفريقين يتحدى مشاعر الآخرين باهانة مقدساتهم ٠٠ وذكرت الشيخ الفاضل بحماقات شيعته فى لكناو ، التى تعتبر من اخطر وسائل الهدم فى صفوف المسلمين ، ولفت نظره الى موقفهم الجامد من المجازر التى ينزلها الهندوس بأهل السنة فى مختلف المناسبات ، دون أن تتحرك ألسنتهم بكلمة احتجاج ، وأيديهم بأية معونة للمنكوبين ٠٠ والسبيل القويم الى تبديد هذه الغيوم ، بين فريقى المسلمين فى الهند وغيرها ، هـــو فى كف السفهاء ألسنتهم عن ذلك البذاء ، واحترام هؤلاء الباغين مشاعـــر اخوانهم السنيين ، الذين لا يستطيعون مجاراتهم فى ميدان السباب ، لان حبهم الصادق لآل البيت المطهر يلجم ألسنتهم الا عن الثناء عليهم ، والدعاء الخالص لمحسنهم ، والاستغفار القلبى لمسيئهم ، رضى الله عنهم أجمعين٠ وأنهيت ملاحظاتى تلك بتذكيره أيضا المآسى الكثيرة التى طالمـــا رافقت استفزازات السفهاء ، حيث سقط العديد من الضحايا ، على أعين السلطة التى لم تكن بعيدة عن اثارتها والتشجيع عليها فى اكثر من مناسبة ، وان بدت هذه المرة أقرب الى الحياد بازاء الفتنة الاخيرة فى لكناو ، اذ كـــان لها موقف مشكور فى الحيلولة دون امتداد النار ، بمنع مواكب التحـــدى من تجاوز أحيائها ٠٠

واكدت على سيادته أن من حق هذه الوقائع عليه أن يـجعلهــــا فى ذاكرته اثناء اتصاله بمقدمى شيعته فى مختلف الارجاء التى سيزورها من الهند ، وفى رأسها لكناو ٠٠

وكان تجاوب الشيخ مرضيا اذ أكد لي أن فى رأس مهماته العمـــل لتحقيق هذا التفاهم بين الجماعتين ، وأبدى لى عميق رغبته فى التلاقى مع الأخ الشيخ أبى الحسن للهدف نفسه ، فوعدته بعرض الأمــــــر على فضيلته ، وتم العرض وتقبل الشيخ الزيارة ، فأبلغته ذلك هاتفيا ، وكنت على أهبة السفر ، فلم أتمكن من حضـــــور الاجتمـــاع ، ولكن توقعى أن

اجتماعا كهذا قد يعود بالخير على قضية المسلمين ان شاء الله ، ولا سيما بعد أن لمسنا أثر التجربة السابقة يوم اجتمع مسلمو الهند على اختلاف فرقهم فى مؤتمر لبحث موضوع الأحوال الشخصية ، التى أرادت السلطة العلمانية ان تمد يدها اليها بالتغيير المخرب لحياة المسلمين ، فكان من ثمرات ذلك المؤتمر وقف الهجمة المدبرة على أحكام الشريعة المطهرة ، بما واجه مخططيها من وحدة الكلمة لدى فرق المسلمين كافة ..

وهنا يثب على لسانى هذا التساؤل الجريح : أليس لليل الفراق والشقاق بين السنة والشيعة فى الهند من آخر ..

ألم يأن للمسلمين هناك أن يعلموا أن الوثنية المتربصة بهم هى وحدها الرابحة فى هذه المعارك التى لا تكاد تنتهى ؟ ..

ليت شعرى : ألا من سبيل الى حوار يسير بهؤلاء المسلمين الى هدنة صالحة ترد خاطئهم الى الحق ، وتفتح الاعين المغلقة على الواقع ؟! ..

تجربة نجحت فلنعدها :

لقد كنا فى الحرمين نعاني الأمرين من حجاج ايران بما يقومون به من أعمال منافية لوحدة المسلمين .. فقلما نرى واحدا منهم ينتظم فى صفوف الجماعة لصلاة ، بل على الضد من ذلك لا يكادون ينقطعون عن المرور بين صفوف المصلين طوال وقت الصلاة .. وطالما تأذى المسلمون من تصرفاتهم فى مسجد قباء ، اذ كانوا يحتشدون للزيارة والصلاة قائمة ، فيطلقون أصواتهم بصورة مزعجة ، ويعلو أزيز بوقهم ، الذى يتولى توجيههم ، على نحو يكاد ينسى المصلين ما هم فيه بين يدى الله ..

ولكن ذلك كله قد انتهى ـ ولله الحمد ـ بعد أن أصدر الامام الخمينى أمره الى هذا الحجيج بالصلاة وراء أئمة السنة وبالتخلى عن القرص الذى يضعون عليه جباههم فى سجودهم ، وبالتزام الهدوء اللائق فى المساجد ، وتجنب كل ما يؤدى الى التشويش . وبذلك أراحنا من تلك المشاهد المؤسفة ، اذ وجدنا القوم ينتظمون معنا فى الصفوف بمنتهى الهدوء والخشوع ، وقد غابت الاقراص المفرقة ، بل المؤرثة للاحقاد ..

فلم لا نجرب مثل هذه المحاولة مع شيوخ القوم .. حتى يأتى اليوم الذى تأخر طويلا .. اليوم الذى فيه نردد ، وفى شعور حى جديد ، قول ربنا تبارك وتعالى : (وكفى الله المؤمنين القتال ..) .. فلقد والله طال ليل الشقاق بين شيعة الهند وسنتها ، وآن له أن يذهب الى غير رجعة ، رحمة بأجيال المسلمين ، وقطعا لدابر الفتن التى يؤرثها السفهاء والمضللون ولا ينتفع بها الا الظالمون الكافرون ..

ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..

مكانة العربية فى دار العلوم :

كان موعد المحاضرة الاولى الساعة ½ ١١ من هذا اليوم — الثلاثاء ٩-٢ وقــد حضرها طلبة الصفوف العليــا من قسم الدعوة والمعلمين فى قاعة المحاضرات من (دار العلوم) وهى احدى الاربع التى خصصت للأدب فى جدول العمل ٠ واستغرقت أكثر من ستين دقيقة ، واستمعت الى صورتها التسجيلية ، فحمدت الله على ما قدره لها من التوفيق ٠٠

لقد سرنى ما لمسته فى أولئك الشباب من انتباه دقيق ، وفطنــة تستدعى الاعجاب ، وضاعف سرورى تلك الاسئلة التى تلقيتها منهم عقيب المحاضرة ، وكلها مما يتصل بصميم الموضوع ، أما استيضاحا لغامض ، أو توسعة لموجز ، أو استزادة لبعض التفصيلات ٠٠

ومن خلال هذه الأمثلة تبين لى مدى العناية التى تبذلها دار العلوم لخدمة لغــة القرآن ، على يـد الاخوة العــاملين من مدرسيها وأخص بالذكر منهم المشايخ محمد الرابع وأبا العرفان وسعيد الأعظمى ومحمد واضح وشفيق الرحمن وشمس الحق ٠٠ واخـــوانهم من المسئولين عن الدراسات العربية ، والانشطة الادبية ، التى تقوم فيما تراءى لى على أحسن تنظيم ٠ وحسبك أن تطالع بعض ما يكتبه هؤلاء الاساتيذ من بحوث فى مجلة (البعث الاسلامى) الشهرية ، و (الرائد) نصــف الشهرية ، وما تمتاز به هذه البحوث من عمق فى الفكر ، وطرافة فى المادة ، وبلاغةفى الاسلوب ، حتى تتصور الاثر البعيد الذى يتركه هــؤلاء المجاهدون فى ألسنة طلابهم ، وفى تقويم أفكارهم ، وفى التوجيـــــه المحكم لمواهبهم ، وما أسعد طلاب العالم الاسلامى حين يتوافر لهم مثل هؤلاء المربين ، فــلا يسمعون منهم عبارة سوقية ، ولا كلمة ملحونة ، ولا يلمحون فى سلوكهم الا ما ينبغى أن يراه طالب العلم فى معلمه الصالح من مؤهلات الاســوة الحســـنة !

وأنا حين أشير الى رعــاة العربية فى دار العلوم لا أنسى جهــاد زملائهم القائمين على خدمة الجوانب الاخرى من مناهج الدراسة فى هذه المؤسسة العريقة ٠ فلقد لمست آثار فضلهم فى تكوين شخصية الطلاب ، الذين اتيح لى الاحتكاك بهم فى الندوات العلمية ، وفى الاجتماعات الخاصة وفى الزيارات التى كانوا يخصوننى بها كل ليلة ٠٠ والحق أن لكل فئــة هنا من المدرسين البالغين ، قرابة الخمسين ، نشاطها الجاد فى خدمــة هذه الآلاف من شباب الاسلام ، الوافدين من مختلف اقطار العالم الاسلامى والذين عهد الى هذه المؤسسة أمر اعدادهم لتمثيل الاسلام وتمثيـــله



المنظر العام للعمارة الشـامخة ذات طوابق ثلاثة وهى مسكن الطلبة
ويحتوى على مستودعات المواد الغذائية اللازمة والمطبخ وقاعة الطعام



منظر آخر لعمارة حجرات الدراسة من جانب

وحراسته فى كل مكان يصيرون اليه ٠٠ فالجميع هنا طلابا ومدرسين وعمالا كقرية النمل لكل جزء من سكانها واجبه النافذ فى خدمة الكل ٠٠

العمل بعشرة آلاف :

وتحضرنى هنا بعض الطرائف التى وقعت عليها خلال احاديث الاخوة الذين كنت استمتع بلقائهم فى حجرتى اثناء الامسيات الخاصة ، وقد ردنى الى تذكرها مراجعتى للمذكرات اليومية التى ألفت تدوينها يوما فيوما وحينا فحينا ٠٠

فمن هذه الطرائف ما حدثنى به الطالب النجيب ظهير ، الذى لا انسى اهتمامه بى ، والذى أرجو أن يكون بين المقبولين فى الجامعة الاسلامية العام القادم ان شاء الله ٠٠ يقول ظهير : ان له اخا مهندسا فى الكهرباء ، ويتولى تدريس هذه المادة بالمعهد الحكومى فى بومباى ، وهو يتطلع للسفر الى المملكة للعمل هناك ، ولكن السماسرة يطالبونه بعشرة آلاف روبية مقابل تامين تعاقده فى احدى المؤسسات أو الشركات ٠ وحتى الان لم يتحقق ماموله لانه عاجز عن تقديم هذا المبلغ ٠٠

نموذج ينتظر التصحيح :

ثم طرفة اخرى ارانى حريصا على تسجيلها ، وخلاصتها أن الأخ أبا سحبيان ، وهو المتخرج فى كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الاسلامية ، والمنتدب للتدريس فى دار العلوم على نفقة دار الافتاء بالرياض ، والرفيق الذى لا يكاد يفارقنى جزاه الله خيرا ، قد فاتحنى برغبته فى استكمال شطر دينه ، وقد وقع اختياره على فتاة تحمل الليسانس فى مادة الانجليزية ــ ومدة هذه الشهادة فى الهند سنتان ــ ومما دعاه الى هذا الاختيار كون والدها من زملائه فى الندوة ، ومتخرجا فى مكة المكرمة ، ثم فى جامعة الازهر ٠٠ ووفق التوجيه النبوى تحدث مع والد الفتاة يستطلع رايه فى الامر ليقف على جوابه سلبا أو ايجابا ٠٠ وذات يوم دعاه الرجل لزيارته فى منزله ، وهناك رآه أهله من وراء الحجب ٠٠ فرضوا عنه : وجاء والد الفتاة ينبئه بموافقتهم ، ويسأله عن مطالبه ٠٠

كل هذا من الامور المالوفة فى معظم البلاد الاسلامية ، ولكن القارىء لا بد أن يتساءل عن مراد الرجل بهذه (المطالب) وتفسير ذلك أن الخاطب المثقف هنا لا بد ان تقدم اليه الهدية المناسبة لحالة أهل الخطيبة ، سيارة او منزلا او مقدارا معينا من المال ، وللخاطب ان يحدد بنفسه نوع الهدية٠

والويل للفتاة التى لا يكرم ابوهـا خطيبها بتحقيق مطالبه ، فهى موضـع الازدراء من الجميع ·· ولعلهم قد قبسوا هذه العادة الدخيلة من جيرانهم الهندوس ، أو من تقاليد المستعمرين الانجليز ··

وهنا تقفز الى خاطرى ذكرى طرفة مماثلة حدثنى بها الأخ الهندى الدكتور ف عبد الرحيم ، اثناء وجودنا فى بهو المسافرين من مطار جدة وكنا فى طريقنا الى الفلبين اذ جاءه أحد موأطنيه من المستخدمين فى جدة ليساعدنا فى انجاز اجراءات السفر ·· فكان من حديثه أن هـذا الفتى الهندى قد خرق تقاليد قومه فى الزواج ، تلك التقاليد التى تثقل كاهـل الزوج بمـا تحمله من أعباء لا يطيق النهوض بها الا أن يحمد الى الدين المرهق ·· ترضية لاهل الاسرتين ، ومنافسة للآخرين من عبيد الشهوات · فأبى أن يعدو حدود طاقته ، ورفض أن يكلف ذوى الفتاة مالا يطيقـون مكتفيا من ذلك كله بأبسط المظاهر ، وكان عمله هذا مشجعا لأمثاله على البدء بتصحيح الواقع الفاسـد ··

وقريبا من هذا صنع أبو سحبان ، اذ كان جوابه لوالد الفتاة فى شأن (المطالب) أنه ملتزم بأدب الاسلام فى كل شىء ، وقد الزمه الاسلام أن يكون هو الذى يكرم خطيبته بالهدية المناسبة وفق طاقته ، وأن يهيىء المنزل الذى سيتخذه سكنا فى حدود قدرته ، ولأبيها بعد ذلك أن يخص ابنتـه بما شاء من تكرمتـه ، عن طيب خاطر ودون قيد أو شرط ، والمعهود فى أوساط أهل العلم من المسلمين الا يزيد الصداق عما يسمونه بالمهـر (الفاطمى) الذى لا يتجاوز عشرة الآلاف من الروبيات ، أى ما يقـارب الاربعة الآلاف بالأريلة السعودية ··

وسألت أبا سحبان عما اذا كان قد شاهد الفتاة التى تمت خطبتـه عليها ، فنفى ذلك ، لان تقاليد الناس هنا ترفض أن يقع بصر احدهما على الآخر دون حجاب ، الا بعد اجراء العقد الشرعى ، على الرغم من معرفة ذوى العلم بالاثر الذى يقول : (أنظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما) ! ··

اصرار على المحافظـة :

ولقد أثرت موضوع الرؤية مع بعض اخوانى من شيوخ النـدوة . وذكرتهم بتطبيقات الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ للتوجيه النبوى ، ومافى اغفاله من عواقب ربما لا تكون فى مصـلحة الزوجين ، اللذين لم يعرف احدهما صاحبه الا ليلة الزفاف ! ·· فلم أجد منهم أى تجاوب فى هـذا الموضوع . بل احسست انهم مصرون على الوضع المالوف دون اى تعديل·

وقد سبق أن عالجت هذا الموضوع بتوسع فى كتابى (تأمـــلات فى المرأة والمجتمع) فلا حاجة بى لبسطه فى هذه الاحاديث القصيرة ·· والشىء الذى تقرر فى ذهنى تفسيرا لتشدد اخواننا مسلمى الهند فى هذا الجانب هو انه جزء لا يتجزأ من روح المحافظة التى يمتازون بها فى شأن المرأة ، على معظم الشعوب الاسلامية ، فالحجاب هنا هو الاســـاس فى نظامهم الاجتماعى ، والسفور هو الشذوذ المرفوض ، الذى لا يقدم عليه الا المفارق لجماعة المسلمين ·· وما اذكر انى شاهدت قط فى كل المدن التى زرتها من الهند مسلمة واحدة دون نقاب ، او فى ثوب مصنوع على الطريقة الاجنبية ·· بخلاف ما شهدته فى الجزر الاندونيسية ، حيـــث يعتبر السفور المتفرنج هو الاصل فى معظم أوساط المسلمين ·· والغريب أن بعض من لقيناهم فى جاكرتا من العرب الزائرين مأخوذ بهذا التقليد ، حتى ليعتبر المسلمة المتحجبة ضربا من (الفزاعات) المخيفة ــ على حـــد تعبيرهم ــ ··

مقـــارنة بين بيئتين :

ومما يرسخ فى نفوس مسلمى الهند روح المحافظة شعورهم بالتميز الذاتى عن اصحاب النحل الاخرى ، فهم لا يزالون يتوارثون عن اسلافهم روح العزة التى هى احدى خصائص النفس المسلمة ، على الرغم من كل التقلبات التى عانوها فى ظلال العدوان الوثنى ، والاضطهاد الانجليزى ، لا بل ان هذين العاملين من أهم الاسباب فى استمرار خاصية المحافظة فى المجتمع الهندى المسلم ·· ولا جرم أن لهـــذه المحافظة المتميزة فضـــلها الكبير فى بقاء الاسلام ، وصمود المسلمين بوجه التيارات العاصفة ، التى لا تزال تخض وجودهم فى هذه البلاد ، سواء على المستوى الشعبى الحاقد أو الرسمى الذى لا ينفك عن محاولاته التسلل بسمومه الى مقومات الحياة الاسلامية ، فى التعليم وفى القساء وما اليهما من الوسائل الحكومية ·

وأخيرا ان فرق ما بين المجتمع الاسلامى فى الهند وأندونيســـية فى نطاق القضية النسوية ، عائد الى ظروف كل من البيئتين ، فشعور المسلم الاندونيسى بالتفوق العددى لجنسه فى بلاده يقـــوده الى الاســـترخاء والاطمئنان ، فلا يرى أى ضرر على مقوماته الدينية اذا هو استسلم لبعض المؤثرات الدخيلة فى حياته اليومية والمنزلية ، على حين يرى المسلم الهندى وجوده الملى مهددا بالدمار بين أمواج الوثنية المتلاطمة من حوله ، ولا عاصم له من ذلك ــ بعد الله ــ الا التشبث بكل خواصهم المتميزة ، التى هى له بمثابة سفينة النجاة للركب المعرض للغرق ··

ولعمر الحق لو وعى المسلمون واقعهم ، وما يحيط بهم ، وما يخطط لهم ، لاستيقنوا أن الاستمساك بمقومات الذات الاسلامية هو الوسيلة الوحيدة للبقاء ، ثم لاستعادة الميراث الذى فقدوه من حقهم فى القيادة العالمية .. وبذلك يلتقون مع اخوتهم مسلمى الهند فى ايثارهم سبيل المحافظة ، على الانسياق فى طريق الانحلال ..

على الضـــفة الثانيـــة :

١٠ـ٢ـ١٤٠١

كان اليوم موعد المحاضرة الثانية في تاريخ الادب · وقد فرغت منها في تمام الساعة ½ ١٢ وبعد الاجابة على استفسارات الطلاب مضـينا الى المسجد لأداء صلاة الظهر وهناك التقينا سماحة الأخ الداعيـــة الجليل الشيخ أبى الحسن ، الذى وصل قبيل قليل من قريته ، ومعه تناولنا طعـام الغـــــداء ··

وعقيب صلاة العصر استأنفنا جولاتنا فى المدينة مع أبى ســحبان وعبرنا لاول مرة نهر غومتى فى أحد الزوارق ذات المجاديف ·· وشد ما أسفت لتأخر هذا العبور الى الضفة الثانية حيث ينهض العديد من مظاهر العمران ، التى تروع السائح بجدتها وتناسقها اللتين تفتقدهما الامكنـة الاخرى ، التى مررنا بها من لكناو حتى الان ··

حدائق بارعة بين فائقة الاناقة والسعة ، ومقاعد من الرخام الابيض لمن شاء الاستراحة ، وعلى جنب منها برج مشيد بالرخام نفسه يذهب فى الفضاء قرابة الخمسين مترا . يحيط به على الزرايا الاربع من قاعـدته تماثيل رؤوس الفيلة المنحوتة فى الرخام أيضا ···· وقد أقيم فى جانب آخر من الحديقة تمثال كامل لفيل كبير أضعاف حجم الفيل الطبيعى ، على غاية من الدقة والاتقان ·· ثم الشوارع الانيقة تنطلق من هنـا وهنـاك ذاهبة فى الابعاد ، بعضها يأخذ مسلكه بين القصور الملكية ، التى كانت ذات حقبة من عمر الزمان منازل حكام لكنا والمسلمين الى ما قبل الاجتياح الانكليزى ·· وسيكون لها حديثها فى ما يلى من الحلقات ···· وبعضها يمضى باتجاه الجامعة الكبيرة القائمة مرافقها على كلا الجانبين منه ، مارا بالحدائق الرحبة المونقة ، وقد أعد بعضها لاستقبال الاحفال الرسمية التى تضم عشرات الالوف ، ورفع فى احداها مجسم ضـخم للكرة الارضـية معروضا بين محوررين يخيل مرآهما للناظر أنهـا على وشـك أن تتحرك عليهما ····

واذا أطلقت بصرك نحو النهر المجاور واجهك المقصف المتنقل يقـدم للمتنزهين أصناف الشراب والطعام ، وعن كثب منه معبـد هنـدوسى ذو دورين ·· وهو من المشاهد المألوفة فى هذه البلاد ، حيث يتسابق السكان

المحافظوالن للسكن قرب الانهار او فى أوسطها ، كما ترى المعابد منتشرة على ضفاف الانهر وفى أوساطها احيانا ، وذلك لمكانة الانهار فى عقائد القوم ، التى تقدس كل الاشياء التى يجدون فيها المنافع كالماء والبقر والشجر والنار والشمس والقمر ·· وهلم جرا ··

مشاهد غير سارة :

وامتطينا ريتشاك الى داخل البلد . وصليت بالناس فى المسجد الشعبى الذى سبق الحديث عنه ، وعقيب السلام سمعت بعض اللغو من الصفوف الخلفية ، ثم علمت من ابى سحبان ان القوم كانوا يعجلون السجود قبل الامام ، حتى أن بعضهم كررالسجدة الواحدة ثلاثا لانهم معتادون العجلة ، فكانت تسبق تفكيرهم فى متابعة الامام ورأيت بعض الشباب يؤدى السنة قاعدا ، كما نلاحظ البكستانيين بالمدينة ، فكلفت الاخ أبا سحبان أن ينكرهم بما يخسرون من الاجر فى تعجلهم ذلك لان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبرنا أن القيام فى الصلاة جميعا هو الاصل، ثم تنقص درجتهم فى غير القيم ، الا لذاى عذر ، وليسوا كذلك ولا حافز لهم لايثار هذه الصورة الا نشدان الراحة فقط ·· وطبيعى أنهم يفعلون ذلك فى النافلة والرواتب من السنن دون المكتوبات ··

ومضينا نفتش عن الحمر ·· الذى يسمونه أملى ــ فحاجتنا اليه بعد ن افتقدنا ما يغنى عنه من القثاء والخس ، واضطررنا من أجل ذلك الى اجتياز (لاتوس رود) وهو من الاسواق القديمة ·· زيؤسفنى أن أقول بأنها أقذر مكان مررت به فى اقطار جنوب آسية الى الان · وحتى سوق اللحم والخضار فى مدينة بنجرماسن من جزيرة كلمنتان بأندونيسية ، والروائح تبلغ حد الاختناق ، ومياه الفضلات تملأ الممار ·· والظلمة توشك أن تعم ·· ومع ذلك ، بل الاغرب من ذلك كله ، أن ناس هذه السوق لا يختنقون ولا يموتون ·· ولعل خياشيمهم قد تعطلت فلا يشمون ! ··

معارض الشقاء :

على اننى ــ وقد عدت أول أمس من رحلتى الثالثة الى الهند ــ أرى من الانصاف للكانو العريقة أن اسجل نسوقها تلك (نظافتها) المقبولة بازاء ما شهدته مؤخرا فى بومباى ، حين اضطررنا للدخول الى (كاماتى بور) ذى الشوارع الاربعة ، فاذا نحن كالخائض فى دردور ، كلما أوغل فى التقدم انحدر الى اسفل ، ولا سبيل له الى معاد · ومهما انس لا انس معارض الشقاء البشرى الذى واجهناه هناك فى كل شىء : الناس والاشياء والهواء على السواء ··

كانت المياه ذات اللون القاتم تنثال على حافات الشوارع وهى تحمل أصناف الاوساخ وتشحن الفضاء بالروائح التى لا يجدى فى دفعها أى منديل تضعه على أنفك ... ومع ذلك فالعشر من المخلوقات الادمية ملقاة هناوهناك وهنا لك فى استرخاء لا تحس بالحاجة الى مفارقته ، حتى للسيارات التى تشق سبيلها خلالها بصعوبة فائقة · وما أكثر أن ترى ثمة رجال وأحداثا فى صحوة النهار متجردين من ثيابهم ، وما أدرى اذا استبقوا لعورتهم سترا ، قد أخذوا بتنظيف أجسامهم بالصابون أو بدونه على مشهد عشرات المارة .. ولعل أدعى هذه المشاهد للحزن منظر بعض العجائز من النساء يجهدن فى تسريب تلك المياه الكريهة المنتنة ، فلا تنفك الواحدة منهن تغالب ما بين يديها من تلك الاوساخ فى مشقة مبكية ..

وفجأة وجدتنى أتذكر هنالك ما سبق أن قرأته من أنباء رهيبة عن غزوات الهيضة ـ الكوليرا ـ لشبه القارة الهندية بين الحين والحين ، حيث تذهب بالمئات من ألوف الضحايا فى كل موسم ، وتشكل بذلك المصنع الاكبر لهذا الوباء الهائل يضرب أنحاء العالم عن طريق المسافرين .. فلا يسعنى الا أن أربط بينه وبين هذا الواقع الذى شاهدته من قبل ، وأشاهده الان من هذه المناطق الوبيئة ما بين لكناو وبومباى ..

محاضرة توقظ الذكرى :

ويشاء الله أن أستمع ليل أمس فى نادى المدينة الادبى الى طبيب ذى اختصاص عال يحاضر عن (عوامل المخاطر فى أمراض القلب) فيستعرض طائفة من الأسباب المساعدة على شيوعها ، والمؤدية بالتالى الى تدمير الطاقات البشرية فى الكثير من الشعوب المتخلفة · وفى مقدمة تلك الاسباب سوء التغذية وفساد البيئة الصحية ، فتقفز الى ذهنى صور هاتيك المناطق التى أهمل بها الانسان حتى انحدر الى ما دون مستوى القردة والبقر .. وهيهات لهؤلاء المساكين أن يحلموا ببعض حظهما من النعيم الذى يتوافر لهما حيثما وجدا من ربوع الهند : وأنى لهؤلاء المحرومين المنسيين أن يتطلعوا الى مثل الاوضاع السعيدة التى شاهدنا عليها قردة لكناو وهى تقوم بتدريباتها الصباحية فى منطقة المعابد المواجهة لفندق (كلار أود) فلا تفتأ تتواثب على أعالى الاشجار فى مرح لا يشوبه أى شعور بالحاجة والحرمان ..

ولا عجب أن تتكاثر فى هذه الاوساط البائسة أسراب المتسولين يحيطون بالغريب احاطة السوار بالمعصم ، فلا يكادون يدعون له متنفسا ، وبخاصة اذا كان الغريب من ذوى الجلابيب العربية التى تصور لاخليتهم أن وراء

كل جلباب أبيض بحيرة من الذهب الاسود · حتى ليتشبثون بنوافذ السيارة التى تحمله ، فلا يفلتونها الى أن تغلبهم سرعتهــا على أرجلهم · واذا كان هذا من الأمور المألوفة جدا فى كل شارع من بومباى فهو هنــا فى منطقــة (كاماتى بوره) هذه أشد بروزا وأتعب للمارة ولا سيما الغرباء منهــم مثلنا !·

ونعود هنا لنتســاءل من جديد : من المســئول عن هذه (المدمرات) المهينة للانسان سواء في بومباى أو لكناو ؟! أهى الهيئات الصحية الحكومية أم هو الشعب الذى ألفها فلا يستغربها فضلاً عن أن يستنكرها ! ···

بيد أن لبومباى ، وهى احدى حواضر الدنيا سعة وعظمة وكثافة سكان ، واحتواء للتناقضات الكبرى ، حديثا آخر سنعرض له بالتفصيل فى حينه ان شاء الله ·

في حديقة الحيوان : ـ

الخميس ١١/٢/١٤٠١ هـ ٠

موعد محاضرتي مساء اليوم بين العشاءين ، فلدى ٠٠ اذن فراغ استغله بالتجول في بعض المعالم ، التي لم ارها بعد وعرضت الامر على الاخوة فوضعوا السيارة تحت تصرفي ، ومضينا أولا الى مكتب خطوط لكناو فلم نجد المسئول ، فواصلنا المسير الى حديقة الحيوان ، ومن حسن حظنا أن يكون مديرها مسلما من أبناء العلماء ، فما عرف هويتنا حتى أحاطنا بالرعاية الكريمة ، ومضى معنا مرافقا ومفسرا حتى مررنا على سائر أقسام الحديقة ٠٠

ومع أن المعروضات محدودات الانواع الا انها جميلة ومفيدة ، وأكثرها من الطيور وأصناف الغزلان ٠ وقد شاهدنا من ضروب الحيوان الاسود والنمور والدببة السود ، والخرتيت الهائل الحجم ، وفرس البحر ، والأنواع العديدة من أفاعي الهند صغيرها وكبيرها ،وبخاصة الكوبرا ذات الرأس الرقيق المفرطح ، وهي التي يضرب المثل بخطرها على الرغم من ضآلة هيكلها ، وما أكثر القردة وأصنافها وأشكالها بين مكشوف السوأة ومستورها ٠ ولو كان معنا من يسمى لنا هذه المرئيات بالعربية لتمت المتعة ٠

مسجد الزجاج :

ومن هناك عدنا باتجاه الخطوط ، وفي الطريق عرجت بنا السيارة الى زقاق في شارع (حسين كنج) لنشهد ذلك المسجد المسمى بمسجد الزجاج والحق أنه على صغره تحفة من العمل الفني الرفيع ، فجدرانه وسقفه ومنبره وأعمدته كلها مغطاة بفيفساء من المثلثات الزجاجية رصفت باتقان ودقة بالغة ٠ وحدثنا امام المسجد بأن منشئه قد استورد له هذه البلورات من ايران ، وجاء معها بثلاثة من خبراء هذا الفن هم الذين تولوا انزالها منازلها ٠٠

ولقد شرع بعض هذه الفصوص يتساقط ، وسيأتيها يوم قد يكون قريبا لا يبقى منها شيئا ٠ وتلك هي سنة الله الذي انفرد وحده بالديمومة سبحانه ٠٠ على أن المؤسف أن المحسنين المنفقين على أمثال هذه الزخارف لا يذكرون أن احداث مدرسة بتكاليفها يعلم فيها أبناء المسلمين دينهم ، ويعدون لاعلاء كلمة الله في مختلف الميادين ، احب الى الله وأنفع لعباده وأوفر للاجر عنده من ملايين النقوش تزين بها حيطان المساجد وأعمدتها وقبابها ٠٠

وقد رأينا ضريح بانى المسجد بجوار مدخله ، ولا بد انه أوصى بدفنه هناك طلبا للبركة ، كشأن الكثيرين من الفاعلين لذلك فى الشام ومصر وسواهما ، وهو عندهم من (القربات) التى لا نعهدها أيام السلف الصالح فضلا عن مخالفتها لصريح النهى النبوى ..

مظاهرة ضد أنديرا :

واستأنفنا التحرك نحو مكتب الخطوط حيث وجدنا مسئوليه ، وقد الفينا لدى أحدهم واسمه (تى أن سيلى) منتهى اللطف والاهتمام . واتصل بدلهى هاتفيا يسأل مكتب الخطوط البريطانية عن مصير الحقيبة الضائعة ، فلم يجد لديه خبرا .. وأخيرا اضطررنا لتكليف مدير مطبعة الندوة المسافر الى دلهى أمر البحث عنها هناك بالتعاون مع موظف السفارة السعودية ، وهو قريب الشيخ محمد الرابع والله المسئول أن يعقبنا خيرا .

لدى مغادرتنا مكتب الخطوط فوجئنا بالشارع المقابل مكتظا بحشود الناس . وسرعان ما علمنا انها مسيرة احتجاج على موجة الغلاء . وكانت دقيقة التنظيم اذ التزم جمهورها من الرجال والنساء صورة متناسقة من العدد والحركة والهتاف ، فهم ممتدون على مسافة طويلة رفى صف متشابه كالجدول المتدفق فى قناة الى مصبه ، وبين المجموعة والاخرى يقوم أفراد يشرفون على المسيرة ويطلقون الهتافات التى يرددها الجمهور ..

ولدى الاستفسار عن مضمون هذه الهتافات علمنا أنها تصرخ بسقوط حكومة أنديرا غاندى ، وبالدعوة الى مكافحة الغلاء . وكان الغلاء قد تفاقم سريعا فى بعض الضروريات ، كالارز الذى أرتفع ثمن الكيلو منه الى ثمان روبيات ، والسكر الذى بلغ العشر من الروبيات ، بل لقد اخبرنى بعض الاخوة فى كجرات عقيب ذلك أن كيلو السكر قد بيع بخمس عشرة روبية .. أى بما يعادل ستة أريلة ، مع أن الهند من البلاد المنتجة للسكر والارز .. وقد سمعنا من يعزو هذا الغلاء الى سبب سياسى هو تصدير الحكومة هذه المواد الغذائية الى روسية بأرخص الاثمان بل دون ثمن الا ما تستورده من مواد حربية تمدها بها مصانع الشيوعية .

لعبة شيوعية جديدة :

وبهذه المناسبة اذكر أن ثمة لعبة روسية ترمى الى اثارة فتنة جديدة بين الهند وباكستان ، بحجة أن هذه تستعد لحرب الهند ، فعلى الهند أن تسبق الى الضربة الأولى .. وقد جربنا مثل هذه اللعبة الشيطانية عام ١٩٦٧ عندما ملأ الاعلام الروسى فضاء الشرق الاوسط بأخبار استعداد اسرائيل لغزو سورية ، فكان ذلك هو الحافز الرئيسى لدخول دول المواجهة

معركة لم يستعدوا لها ، بل اقحموا فيها على عجل ، ليسقطوا فى الفخ الذى اطار من أيديهم المزيد من الارضين ، وفيها القدس الغالية التى نرفع اليوم عقائرنا بالاحتجاج المهين على ضعها نهائيا الى المكاسب اليهودية ٠

وطبيعى أن الروس انما يريدون بلعبة اليوم حصر باكستان المسلمة بين النارين ، لتدمير الوجود الاسلامى كليا فى أفغانستان - لا سمح الله - ومن ثم القضاء على كل أمل بنجاح التجربة الباكستانية فى تثبيت دعائم النظام الاسلامى المنشود ٠٠

ولقد أكد هذه الحقيقة رئيس وزراء الهند السابق (مرارجى ديسائى) حين أعلن لوكالات الانباء تعقيبا على مدعيات بريجنيف وعمليته أنديرا فى هذا الصدد ، فكان من هذا التعقيب الحر كشفه الستار عن محاولة موسكو معه نفسه ، اذ بذلت المستحيل لجره أيامئذ الى مواجهة باكستان على اعتبار أنها تستعد لغزو الهند ، فلا مندوحة من مبادرتها بالتأديب الرادع فكان جوابه أنه على أتم الثقة من حسن نوايا باكستان ، وكل ادعاء مخالف لذلك فهو أوهام ٠ ومعنى هذا أن بريجنيف يعاود اليوم المحاولة نفسها عن طريق حكومة أنديرا ولا هدف من وراء ذلك سوى اضعاف الدولتين الجارتين ، والتمكين للغزو الروسى من مخانق أفغانستان ٠٠

مأدبـــة تعـــارف :

وكان فضيلة الشيخ أبى الحسن قد أبلغنا منذ الصباح أنه سيقيم لنا مأدبة تعارف يجمعنا خلالها بأساتذة دار العلوم جديعا ، فكان علينا أن نسرع بالاوبة الى الندوة ، وبصعوبة كبيرة تمكن سائقنا الحاج نصر من التسلل أواخر المتظاهرين ، حتى انتهى بنا الى الندوة فى الوقت الملائم وعقيب صلاة الظهر فى مسجدها انتقلنا الى قاعة سليمان الندوى حيث تناولنا طعام الغداء مع مجموع الاخوة الزملاء الذين يقاربون العشرين ٠

وتفضل الاخ الشيخ محمد الرابع بكلمة كريمة أجبنا عليها بما يناسب المقام فذكرنا فضل الندوة وعلاقاتها بقلوب العاملين فى نطاق التعليم الاسلامى بكل مكان ٠ واعتبرت وجودى زائرا لها فرصة سعيدة حققت لى الكثير مما كنت أتطلع اليه من لقاء هؤلاء الفضلاء ، والانتفاع بخبراتهم فى ميدان الدعوة والتربية ٠

وفى المساء ألقينا محاضرتنا الثالثة فى القاعة القائمة تحت مهجع الطلبة ، وقد تكرم فقدم لها فضيلة الشيخ حفظه الله بواحدة من نفحاته القلبية طوقتنى منها بما لا أستحقه ٠٠ وقد ساعد الجو العلمى على نجاح المحاضرة ولله الحمد ، اذ كانت تتمة للحلقة السابقة من سلسلة التعليم والتربية والدعوة ٠٠٠

فرص صالحة للدعـــوة :

الجمعة ١٢ـ٢ـ١٤٠١

كانت الساعة السابعة والنصف عندما قـدم الأخ ظهير أحمد يبلغنى أن الشيخ على وشك سفر الى جنوب الهند فهو يريد ان يزورنى للوداع · فقلت : أنا الذى أزوره ولا أكلفه صعود الدرج ·

ومضيت الى مقر الشيخ فوجدته يتصدر المجلس وحوله جمهور من أهـل الفضل فى نصف حلقة ، وتحدثنا مليا ، وتمنيت له سفرا موفقـــا وذكرته بمالا يفوته من ضرورة التركيز فى توجيهاته على ابراز معـــانى الاســلام من خلال حياة المسلمين ، حتى يتبين المشاهد والمتعامل الفـرق الحسى بين الاسلام وغيره فى ضوء الحياة العملية ، فيكون ذلك أهم وأنجح وسائل الدعوة اليه ، وبخاصة فى هذا البحران من الوثنية التى تحـدق بجماهير المسلمين ··

وشد ما اسعدنى وطمأننى قول أبى الحسن حفظه الله أن الغالب على مسملى الهند تميزهم بسلوكهم ومعاملتهم على سائر المواطنين حتى أنهم فى بعض مناطق الهند ليحتلون المكانة العليــا بنظر السلطات الحاكمة بسبب تفوقهم فى الامانة والاستقامة والكفاية ·

وطبيعى ان يستقبل فضيلته ملاحظاتى هذه بالرضى لانه يدرك أكثر منى ارتجاج الكيان الهندوسى الذى يسرع نحو الانهيار ، بسبب اتجاه القوم بحكم ديانتهم المادية الى عبادة المــال والجنس حتى لا يكادون يســألون سواهما ، ولا يستنكفون عن نشدانهما من اى مكان وعلى أية حال ، وقد بات واضحا أن فى مناسباتهم الدينية أياما لا بد لهم من المغامرة فيها على طريقة نصارى الغرب ، بل يزيدون عليهم التوهم الذى يشبه اليقين بأن الذى لا يشارك فى هاتيك الايام لا بد ان يكون معرضا للاخفاق طوال عامه، ولا شك أن فى هذه الاوضاع القلقة مجالا رحبا لانتشار الاسلام اذا أحسن دعاته عرض حقائقه وعرفوا الطريق القويم الى الاستفادة من الظـــروف الراهنــة ··

بما أرانى بحاجة الى تنبيه العاملين فى حقـل الدعـوة هنـا الى الفرص الواسعة التى يواجهونها بين ظهرانى هؤلاء الضائعين من عبـــدة الطبيعة الذين يملكون الفطرة الدينية ولا يعرفون الطريق الى تحقيقها خارج المواريث الطفوليــة ··

ان الطبقة المتعلمة على اتم الاستعداد لقبول الحوار النير فى موضوع الاسلام ، وغير قليل منهم الذين اعلنوا اسلامهم فعرضوا انفسهم بذلك لأفدح المخاطر ، ولم ينجهم من نقمة متعصبيهم سوى الهجرة من مواطنهم الاصلية الى الارجاء البعيدة ، وعندنا من هؤلاء أخ تخرج فى الجامعة الاسلامية ويقوم اليوم بالتدريس فى (كلية الحديث الشريف) منها ، بعد أن نال درجة الدكوراة من جامعة الملك عبد العزيز فى مكة المكرمة ، فلقد تحول هذا الاخ من الهندوسية الى الاسلام فى قرية (بلريا كنج) القريبة من أعظم كره ، ولما أحس به متعصبة أهله اجمعوا قتله ، ولكن الله نجاه من مؤامرتهم بتيسير سفره قبل ساعة من موعد التنفيذ ..

غاندى والاسلام :

وقد بلغنى من مصادر موثوقة ان ثمة حوارا جادا قد ينتهى قريبا الى تحول مليون من الطبقة المنبوذة الى الاسلام . وقبل ثلث قرن ظهرت بادرة تاريخية من هؤلاء المنبوذين أوشكت أن تصير بهم الى المجموعة الاسلامية فى تحول جماعى ، الا أن المسلمين لم يحسنوا متابعة الحدث الى نهايته فافلتت الفرصة من أيديهم ، وكان لغاندى أثره الكبير فى تجميد تلك الحركة ايامئذ اذ فتح للمنبوذين أبواب المعابد التى كانت مغلقة فى وجوههم ، وتعهد لهم برد الكثير من الاعتبار الانسانى اليهم بعد الاستقلال اذا هم حافظوا على انتمائهم للنحلة الهندوسية ، وانما فعل ذلك خشية ان تزداد بهم قوة المسلمين ..

وقد دفع غاندى حياته ثمنا لهذه المحاولة ، حيث لقى مصرعه على يد بعض السيخ الذين هالهم اقدامه على تلويث المعابد بدخول (الانجاس) اليها ..

ومن حق القارىء أن يشفق اذا نقلت اليه ما حدثنى به الزميل الهندى الاخ الدكتور ف عبد الرحيم من أمر هؤلاء المنبوذين يوم كنا فى مدراس ونحن فى طريقنا الى الفلبين .. لقد سألته اثناءئذ عن مدى نشاط المسلمين فى دعوة القوم فكان جوابه : ان المسلمين هنا لا يرون من مصلحتهم اقبال المنبوذين على الاسلام ، لان ذلك سيصرفهم عن العمل فى مصلحتهم فتتعطل هذه الخدمات ولا يجدون من يقوم بها الا بكثير من الصعوبة والمزيد من التكاليف ! ..

وياله من تعليل فاجع يسوغون به وقف المد الاسلامى الذى هو غاية وجود المسلم فى هذه الارض ، ورضى الله عن خامس الراشدين الذى رد

على عامله فى مصر ، يوم فسر له تكاثر الدخل الرسمى بأن مرده الى رفض الحكام الامويين اسلام النصارى ، استبقاء لموارد الجزية ، فكتب اليه قائلا: ويلك ·· أن الله لم يبعث محمدا صلى الله عليه وسلم جابيا ولكن بعثه هـاديا ·· »

الفـــردية الوثنيـــة :

والمتأمل فى شأن وثنيى الهند اجمالا لا يفوته النظر الى اثر دياناتهم في تمزيق وشائجهم الاجتماعية ، وحسبه من العلم بذلك أن يلاحظ الطابع الفردي الذى تقوم حياتهم عليه ، فهم فى عباداتهم فرديون ، لا يكـادون يعرفون التلاقى عليها الا فى مواسم محدودة هى اقرب الى اللهو منها الى الجد ·· وحتى فى النحلة الواحدة تواجهك هذه الفردية بشكل لا تعرفه فى غير الهند ، ولعل أول الامثلة على ذلك الواقع الغريب هـــو ان ترى المسافرين منهم اذا ادركهم الجوع ، راضطروا الى تناول الطعام عمد كل منهم الى زاده يزدرده فى عزلة عن الاخر ، وربما أدار كل منهم ظهــره لرفيقه أثنائذ ، اللهم الا ان يجمع الاكلين رباط الاسرة ·· على حين تــرى المسلم ، غنيا كان أو فقيرا فى مثل هذا الموقف لا يمس طعامه حتى يدعــو من حوله الى مشاركته ولو بكلمة (تفضـــل) على الاقل ··

مـــذابح المســـلمين :

ومما يتصل بهذه الاوضاع الشاذة لدى معظمهم حرمانهم أنفسـهم من طيبات الطعام، والغذاء بأصناف النبات مع تقديسهم الموروث للحيوانات التي لا تنفك تغير على مدخراتهم من الاغذية دون أن يســمحوا لانفسهم بمنعها من ذلك الا فى اضيق الحدود · وقد اخبرنى بعض العــارفين ان القرود تهاجم مهاجع الطلبة فى الجامعات فتحرمهم ما هم فى أمس الحاجة اليه من الاطعمة ، فلا يكادون يحركون ساكنا لابعادها ، مع أنهم من أشد المخلوقات ضراوة في العدوان على المسلمين ··

ومعلوم أن هذا العدوان قد بلغ أشده بعد انفصال باكستان . اذ كان بمثابة التمزيق لجسم الهم الاعظم الذى هو أرض الهند ، وقد كان مجـــرد اقدام المسلم على ذبح بقرة كافيا لاحداث مذبحة تذهب بالمئات من المسلمين· أما بعد التقسيم فقد بات اعتداء الهندوسى على المسلمين ولو بغير سبب من المآثر القومية التي تعد لها المنظمات ويدرب للقيام بها الالاف من الشباب في كل مكان ·· وقد أصبح هذا الهيجان القومى الهندوسى من أهم العقبات فى طريق المد الاسلامى ، لان هؤلاء المتعصبة من جماعة (جن سن R.S.S) بالمرصاد لكل من تظن به المسالمة للمسلمين فضلا عن التحول الى دينهم ·

وليست مذبحة المسلمين فى مصلاهم يوم عيد الفطر الاخير ، بمدينة مراد آباد وبرشاشات رجال الشرطة أنفسهم ، الا واحدة من عشرات المجازر التى نفذها ذلك التعصب الوحشى ، الذى ملأت أخباره الصحف العالمية منذ قيـــام باكستان حتى الان ··

تطـــور هـــــام :

على أن مما لا ينبغى تجاهله هو ذلك التطور الذى أطلت بوادره فى أوساط الطبقات المثقفة من اولئك الوثنيين ، وكان سببا فى تعديل الكثير من عاداتهم الصارمة ، فغير قليل منهم أولئك الذين يقدمون اليوم على التهام اللحوم فى مطاعم المسلمين ولو بطريقة سرية ، وقد بدأ بعض مفكريهم فى دراسة الاسلام ، ولم يحجم عدد منهم عن اعتناقه فى حذر ، وفى اعتقادى أن الفرص مفتوحة الابواب أمام دعـــاة الاسلام هذه الايام ، فبقليل من الحكمة والدأب يستطيعون تحقيق الكثير من الخير فى أوساط اولئك المواطنين ولا سيما المنبوذين منهم والبوذيين ·· ولا ريب أن ثمة قلوبا كبيرة تدرك هذه الحقيقة أتم الادراك ، وتملك من الاخلاص لدين الله ، والرحمة بالانسانية التائهة ، ما يؤهلها للقيام بالدور المنشود فى هذا الصدد ··

تجــربة اســـلامية :

فى احدى القرى من ولاية مدراس اندلعت النار فى بعض أحيـــاء الوثنيين فالتهمت عشرات المنازل وشردت اصحابها ، فكان للجماعـــــة الاسلامية هناك أكبر الاثر فى معالجة هذه المحنة ، ذلك أن لجنـــة منهـا قدمت الى مواطن النكبة فمسحت أوضاعها ، ثم لم تلبث أن نهضت بواجب المواساة ، فجمعت التبرعات الكافية ، وقامت باعادة الابنية المتهدمة الى خير مما كنت عليه ··

وكان عاقبة ذلك تغييرا جذريا فى نفوس القوم ، الذين كانوا الى عهد قريب اشد سكان الهند على المسلمين ، فأصبحوا بعد هذه الخدمة الانسانية من اكثرهم تقديرا لهم وشفقة بهم ··

وانها لتجربة تستدعى من المسلمين أن يفيدوا منها فى نشر الخير ، الذى لا يجد من يكرهه اذا أحسن دعاته عرضه والدعوة اليه ··

ســـؤال ينتظــر جـــوابا :

واحب أن أعرض هنا للقراء فكرة خطرت لى اثناء وجودى بجامعة (فلاح الدارين) فى تركيسر من ولاية كجرات ، لقد لاحظت أن فى جوار

المسلمين هناك سكانا من المنبوذين يعملون فى الزراعة ، وقد وصفوا لى بأنهم فقراء كالكثر شيعتهم فى ولايات الهند ، فسألت الاخوان هناك عن مدى علاقتهم بهم ، وعن مدى استعدادهم لقبول الاسلام ٠٠ ثم طرحت على الاساتذة موضوعا لم يمر ببالى من قبل ، وهو تخصيص المسلمين جـزءا من زكـــاة اموالهم لاهل الحاجة منهم ، على اعتبارهم من المؤلفة قلوبهم الذين خصهم الله بأحد المصارف الثمانية من أموال الصدقات ٠٠ ومع أن بين اولئك الاخـوة فقهاء يشار اليهم بالبنان لم يروا ان يقطعوا بالموضوع يومئـــذ ٠٠

وهـا أنذا أعيد طرح الفكرة على أصحاب الفضيلة من فقهاء المملكة وأتمنى لـو نسمع تقريرهم بشأنها ٠٠ ولعل الله أن يجعل فى ذلك خيرا لدعوته ليس فى الهند فقط بل فى كل مكان من أرض الله ٠

القصـــور والحسينيات :

عقيب صلاة العصر توجهنا بسيارة النـــدوة مع الأخوين سعيد وأبى سحبان الى الجانب الشيعى من المدينة ، وهناك رأينا العجائب المبكيـــة المضحكة معا فى الشارع المسمى (امام بـار) ٠٠

عمائر لا ينالها الوصف ولا يستوعبها الكشف ، وما ادرى أى أسـلوب ينبغى ان أتخذ لنقل صورها الى القارىء لانها فوق قـــدرة الكاتبين والواصفين ، ولعل رسومها التى تنشر مع هذه الحلقات أوفى رسيـــلة لتعريفها ٠٠

القصـور الملكية فى لكناو :

أول ما يواجهك من هذه المعالم العمرانية مداخلها التى هى ضرب من القصور الشاهقة ، فاذا تجاوزتها الى ساحـات القصـــور الملكية ، أو الحسينيات الشيعية ، فوجئت برحابها الفسيحة وقد فرشت أوساطها بعشب الزينة كبسط السندس ، ويستقبلك على مقدم بعضها التماثيـل البرونزية بأزيائها التاريخية تكاد تتكلم ، وفى جوانب الساح نهضت الابنية المشيدة على صورة المساجد ، وما هى الا مكاتب موظفين ووزراء ٠٠ وحجاب ٠٠

ووقفنا تلقاء المبنى الكبير المطل على الحديقة ، والذى يحجب الفضاء بضخامته ويبهر البصر بنقوشه وزينته ٠٠ ولكننا لم ندخله لمـا رصف لنا من هــول دهاليزه التى لا يحسن التجوال خلالها ومغادرتها سوى الدليل الخريت المدرب ، وفى أعلى كل جدار اشباه المنائر التى لا تزال تمتاز بها مؤسسات المسلمين التعليمية فى الهند كنـــدوة العلماء ٠٠

وقد زرنا من هذه القصور اثنين على هندسة واحدة ، احدهمـــا اضعاف الثانى ، واجتزنا اليهما طريقا معبدا فوق جسور مقامة من عهـد بنائهما كاقوى وافخم ما تكون الجسور ، وبازاء هذه المعالم يشمخ برج عـال لساعة كبيرة يقال انها من العهد نفسه ، وغير بعيد منه برج آخـر هائل أسوانى الشكل ذو أربعة أدوار ، لعله كان مركزا لحراسـة هـذه القصـــور ٠٠

ان الناس يصفون هذه المعالم واشباهها من بقايا العهود الاسلامية ، سواء فى مصر أو الهند أو الاندلس أو دمشق أو بغـــداد ٠٠ وعشرات الحواضر التاريخية الاخرى ، بكونها آثارا اسلامية ، ويعتبرونها عصورا شاهدة بحضارة الاسلام ٠٠ أما أنا فلا اراها اكثر من شواهد عادلة على ان منشئيها قد سجلوا بانصرافهم الى انشائها انصرافهم عن رسالة الاسلام، الذى ينتسبون اليه ، وعن حضارته الربانية ، فهم لم يصنعوا شيئا بهذه

المعابث سوى انهم دفنوا ثروات الوطن الاسلامى ، وأحالوا طاقات المسلمين الى حجارة جامدة تلهب الاحقاد فى صدور الفقراء والضعفاء والمخالفين فى الدين ، وشتان بين هذا العبث المترف وبين الروح الاسلامى ، الذى يفرض توجيه مثل هذه الجهود الى نشر العدالة بين الخلق ، وبث العلم الموصل الى الحق ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ٠

ولقد وقفت طويلا افكر فى واقع الهند ، وهذا الصراع الذى لا يكاد يعرف الخمود ، الا ريثما يجمع مقوماته لاستئناف الملاحم بين مسلميها ومئات الملايين من وثنييها ، فأتساءل مرة اخرى : أين كانت عقول هؤلاء المغرورين ببهارج الدنيا ؟ ٠٠ ألم يمدوا أبصارهم الى ما وراء آنافهم ؟ ٠٠ ألم يفكروا بمصير الاسلام فى المستقبل البعيد أو القريب ! ٠٠

أغلب الظن ان هذه الثروات الهائلة التى انفقت على هاتيك المترفات لو وضعت فى خدمة الدعوة الاسلامية ، ولو بذلت فى تأليف قلوب أولئك الضائعين من عباد الحجارة والحيوان ، لتغيرت مسيرة التاريخ فى شبه القارة كلها ، ولعادت هذه القطعان التائهة الى نور ربها راضية مرضية ٠٠

ولا غضاضة عند ذلك أن نبيت فى الخيام أو فى العراء ، لاننا قوم سفر نعبر ممر الدنيا الى الدار الآخرة ، فعلينا أن نترك للمساكين خلفنا الصوى التى ترشدهم الى الهدف الاعلى ٠ ويرحم الله ربعى بن عامر الذى دخل سرادق الجبار الفارسى رستم ، وهو يتوكأ برمحه على طنافس الاستبرق والديباج فيخرقها ، ليعلم أولئك المخدوعين بمتاع الدنيا أننا أمة من طراز جديد ، لا تبهرها زينة زائلة ، ولا تصرفها العاجلة عن الآجلة ٠٠

فاعتبروا يا أولى الالباب :

وقد بقى ما يجب أن يعلمه القارىء عن مصير الذرية التى خلفها أولئك السفهاء ، الذين شغلوا عن الحق الخالد بالمتاع الزائل ، واستكمل العبرة التى لا يحسن بعاقل أن يغفلها ٠ لقد حطم المستعمرون الانجليز عروش أولئك العابثين ، فسلبوهم نعيم الدنيا ، ودمروا عليهم ما كانوا يصنعون وما يعرشون ، ثم تصدقوا عليهم بفتات من تلك النفائس لا تسمن ولا تغنى ، حتى اذا هلكوا قطعوا عن ذرياتهم ما أجروه عليهم ، فهم اليوم فى الحضيض ، يبيعون أعز ما يملك الانسان لتأمين ضرورياتهم الاولية !٠٠

فأين المعتبرون ٠٠ وأين أولو الالباب ! ٠٠

وشاء الله ان يتمم لى ما فاتنى من هذه المشاهد أثناء تلك الرحلة ، وكان ذلك أيام رحلتى الثانية الى لكناو لحضور الندوة العالمية للادب

الاسلامي مع الاخوة الزملاء في وفد الجامعة الاسلامية فانتهزنا فرصة الفراغ الذي سبق موعدها وقصدنا بعض هذه المنشآت التي أصبحت موردا سياحيا لحكومة الهند ·· وهناك قضينا بعض الوقت في زيارة الحسينية الكبيرة ومسجدها الفسيح الذي استحال خلاء تصفر فيه الريح ، ولا يحمل من آثار المصلين سوى ذلك الصندوق المشحون بالمثلثات الخشبية ، التي كان مصلو الشيعة يسجدون عليها وفق مذهبهم ، الذي لا يجزىء غيه السجود الا على شيء من نتاج الارض المباشر ··

وكانت العواصف تزأر بقوة والغبار يحجب مجال الرؤية ، ولولا لطف الله بنا لسحقتنا الحجارة التي سقطت بجوارنا من أعلى المدخل ··

ذكريات وذكريات :

وأثناء العودة الى الفندق وجه أحد الاخوة المرافقين نظرنا الى مسجد غير بعيد من تلك الحسينية وهو يقول : من هذا المسجد انطلقت زحوف الثورة الاسلامية التي قادها الامام احمد عرفان الشهيد ·· ولا يزال بعض فضلاء الشيوخ يقصدونه للصلاة والدعاء في الظروف الهامة ، تبركا بما شهده من ذلك الحدث الذي أريد به وجه الله واعلاء كلمته ··

وما ابعد الفرق في الدلالة بين ذكريات الجهاد الذي انطلق من ذلك المسجد فخلد معانيه في قلوب المؤمنين وبين ذكريات الترف الملكي الذي تمثله تلك القصور البائسة ، وتمثل معه غفلة بناتها عن مسئولياتهم نحو دينهم وأمتهم وانفسهم ·· حتى اصبحوا اليوم عبرة لكل من كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ! ··

التعقيم والسدود :

ومن حي القصور الملكية انتهينا الى شارع أمين أباد ، وقد سبقت الاشارة الى كثافة المارة خلاله ، حتى لا تكاد تجد موطئا لقدميك الا بمشقة وفي هذا الشارع من قلب لكناو ، وفي شوارع بومباي الاخرى ، وهي كقرية النمل لا تجد فيها ساكنا ، تقع على التفسير الواضح لعل حكومة انديرا غاندي في فرض التعقيم على السكان ابتغاء وقف السيل الدافق من النسل الهندي ·

والمتجول في ارجاء الهند وهو يرى سعتها ، ويلمس خصب تربتها ووفرة مياهها ، لا يتمالك من العجب لاقدام المسئولين فيها على معالجة توافر السكان بفرض التعقيم·· ذلك ان هذا الضرب من العلاج الساذج لا يخرج عن طريقة القوم في علاج السيول التي كثيرا ما تجرف المدن

والقرى ، فتذهب بعشرات الالاف من الناس وبالعديد الذى يفوت الاحصاء من المساكن والدساكر · ولعلى ذكرت ذلك الحاجز العالى من التراب الماثل بين ندوة العلماء ونهر غومتى ، وقد أقيم لحماية المنطقة من طغيانه ، وانفقت الاموال الطائلة لدعمه وتصفيحه بالحجارة ·· رمثل ذلك شاهدنا فى قرية الشيخ أبى الحسن ـ تكيا علم الله ـ حيث ارتفع فيضان النهر المجاور ذات يوم الى انصاف المنازل ، وسجل اثاره على وسط المسجد المبنى أعلى الربوة القائمة على كتفه ·· كما رأينا كذلك بعض الزوارق خلال البيوت . وقيل لنا انها تستعمل وسائل للمواصلات ايام الطوفان ··

وطبيعى ان الحواجز والزوارق لست سوى وسائل مؤقتة لمواجهة الطوارىء فى مواسم الفيضان ، أما العلاج الحقيقى فهو الذى يقوم على مسح شامل ودقيق لارض الهند ، ثم اقامة السدود على أساس ذلك حيث تستدعى اوضاع الارض ، وبذلك يتم تحويل السيل القاتل الى ترياق شاف يمد الهند بكل ما يجعل الحياة سهلة وجميلة وميسرة ·· ويا ليت الهند ولينا معها نتعلم من هولاندة الصغيرة كيف تعمل لتحمى بلادها الواطئة من سدود الاطلسى ، فتكسب كل عم جديدا من قاعه توسع به مساحتها الاقليمية ··

الرؤية الايمانيـــة :

وكما عالج المسئولون فى الهند أخطار السيل بتلك الحواجز المرتجلة أقدموا على مواجهة ما يسمونه (الانفجار السكانى) عن طريق محاربة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ·· فكان اختيارهم لهذه الوسيلة كعمل طبيب يعالج الصداع بقطع الرأس ! ·· ولو أن دعاة التعقيم ، سواء فى مصر أو الهند وغيرهما ، يملكون الرؤية الايمانية الى واقع الناس والارض لأيقنوا ان الله لم يخلق نفسا الا وقد تكفل برزقها ، وانما تضيق الحياة وتتسع وفقا لتصرف المخلوقات بخيرات الارض ، وقد حدثنا أبو داوود ـ صاحب السنن رحمه الله ـ أنه رأى فى مصر قثاءة بلغت ثلاثة عشر شبرا وشاهد اترجة فلقت شطرين لتكون حمل جمل ··

ولقد ادركنا نحن طرفا من أيام الخير ، اذ كان الارز المصرى يغطى حاجة الشرق الاوسط ·· ولا تزال شعوب المنطقة على امتدادها تطلق اسم (المصارى) على كل نقد تتداوله ·· وهى شهادة جماعية على أن مصر هى مركز الثقل فى اقتصاد هذه الاقطار ·· وها هى ذى مصر اليوم تشكو الضنك والعسر وشح الارض ، حتى لا يرى المسئولون فيها مناصا من تعقيم سكانها ، بدلا من ان يبحثوا فى العمق عن اسبابذلك التغير الذى بلـــغ

أشده على يد السرطان الاشتراكي الذى اتى على كل شيء فدمره باسم (الكفاية والعدل) ٠

الخمر وتحديد النسل :

وليس الامر فى الهند ببعيد عن واقع مصر فكلاهما حسب وصف الشاعر :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

انهما مضرب المثل فى التربة الطيبة المعطاء التى لا تعرف البخل ٠٠ ولكن سوء التصرف هو الذى يضعهما فى قفص الاتهام ، ثم يزعم ان كل ضرب من الحرمان يعانيه البؤساء فمرده الى عجزهما عن العطاء ٠٠٠ وما أحكم قول بشار فى الرد على مثل هذا الزعم

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

ومع ان حملة التعقيم الرسمية فى الهند قد خفت حدتها كثيرا بعد سقوط أنديرا غاندى ، وترك أمر التعقيم الى قناعة الناس دون تدخل من قبل الدولة ، فالملاحظ ان موقفها بعد عودتها الى الحكم لم يتغير بالنسبة الى أصل القضية ، فهى على اتم القناعة بضرورة الحد من النسل الهندى ولكن الوسيلة الى ذلك ليست وقفا على التعقيم المباشر وحده ٠٠ ويقال ان الغاءها قانون تحريم المسكرات مؤخرا عائد الى النظرة نفسها ، اذ ان فى العودة الى الخمر موردا جديدا للدولة ، فضلا عما تستتبعه من توسيع لابواب الشهوات ، التى من شأنها ان تضعف من الاقبال على تكوين الاسر بالانصراف الى الثمرات المحرمة ! ٠٠

فكرة عابرة للاصلاح :

والمفكر الذى يسمع بقصة التعقيم لا مندوحة له عن التساؤل : أليس ثمة من وسيلة لاصلاح الوضع العام عن طريق آخر غير التعقيم والخمر وتفجير الشهوات ؟! ٠٠ ولعل كثيرين قد فكروا بذلك واستعرضوا أنواعا من الوسائل لحل الازمة ٠ وعلى طريقتهم الفضولية أرانى أفكر فى الموضوع ثم اجدنى بازاء الفكرة التالية

ان ادارة شبه القارة الهندية من عاصمة مركزية ولحبة أمر مخالف لمصلحتها ، ولا يمكن استمراره الى الابد ٠ وفى أحداث آسام ، وما سبقها

من التطورات فى المناطق الاخرى ، مؤشر صحيح الى التحولات المستقبلية وخير للهند من مواجهة المفاجآت ان تقوم هى بتكوين مؤسسات حكومية ، على مستوى القارة ، تتولى كل منها ادارتها الذاتية فى اطار الدولة الأم. وبذلك يتاح لكل واحدة أن تقبل على بناء اقتصادها وفق مصلحتها وامكانات أرضها فى تعاون متكافل لصالح الجميع · وهكذا تتحول هذه المئات من ملايين البشر شعوبا منظمة تعمل لتكوين نفسها ، وتسهم فى بنيان العالم، بدلا من ذلك الضياع الذى تتخبط فيه ، والذى يحجب الرؤية السليمة عن قادتها ، حتى يكادوا لا يرون متنفسا لضغط الواقع الا بالاستعداد للحرب، انسياقا مع اهواء الملاحدة من طواغيت موسكو ، وخضوعا لاغــراءات اميركة ، وكلاهما عدو للعدالة والانسانية ··

لقد امكن للهند ان تصون ثرواتها الاقتصادية من التسرب الى الخارج فهى تنتج اليوم كل ما يعوزها من المصنوعات سواء بأيدى ابنائها ، او عن طريق الخبرات الاجنبية التى تقيم مؤسساتها على أرض الهند ·· ولكن وقوعها تحت كابوس السياسة العسكرية يمتص معظم هذه الفوائد ، ويحجب خيراتها عن السواد الاعظم من سكانها ، حتى ليضطر الهنــدى لشراء الماش والسكر ــ المنتج فى بلاده ــ بأضعاف ثمنه فى الخارج ، فتقــوم التظاهرات احتجاجا على الغلاء الذى لا تعرف السلطات السبيل الى علاجه لانها سائرة فى الطريق الخاطىء · وصدق الله العظيم القائل فى كتــابه الحكيم : (قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ·· الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ــ سورة الكهف) ·

في المعبد الأكبر :

السبت ١٣-٢-١٤٠١

خصصنا أصيل هذا اليوم لمشاهدة ما وصف لنا بأنه أكبر معابد الهندوس في لكناو وأحفلها بأنواع التماثيل التي تصور معتقداتهم · ولم يكن بعيدا عن ندوة العلماء فسلكنا اليه بعض الجواد ، ثم عبرنا بعض الأزقة البائسة ، التي تنتشر على جانبيهم المساكن ذوات الدور الواحد ، وقد جثمت فوق مدخل كل منها صور المعبودات · وما أذكر أني رأيت منزلا هنالك لا يعلو مدخله أنواع منها ، حتى انتهينا الى المعبد ، وهو عبارة عن مسكن عادي كأحد هذه المنازل المجاورة ، قسم ثلاثة أجزاء أحدها للمعبودات والثاني للبقر ، والثالث لسكن الاسرة ، التي تقوم بخدمة المعبد مقابل الاجور - الهبات - التي يتلقونها من قاصديه ··

واستقبلنا على الباب أحد السدنة وعليه سيما الفقر والجهل ، واذن لنا بالدخول بعد أن نخلع أحذيتنا في الخارج ·

ووقفت أجيل البصر في ما هناك فلم أر ما يسترعي الانتباه ، سوى تلك الصومعة الذاهبة في الفضاء وقد نهضت في وسط الفناء على اربعة أضلاع يقارب كل منها الاربعة الامتار ، وطوق ظاهر القسم الاعلى من جدرانها بعشرات الصور المنحوتة أو المصنوعة من الجبس ، وكل منها يحتل جزءا من الاساطير التي يتداولونها عن آلهتهم ، كالتي تعرض في كتبهم المدرسية ويراد بها ترسيخ الصلة بين الجيل الحديث والاجيال الوثنية الضاربة في القدم · وسأحاول أن أعرض للقارىء نماذج من هذه الاخيلة التي لا يرى رجال التربية والتعليم من الهندوس بأسا في عرضها، على أساس من كونها تراثا قوميا شاملا لسائر سكان الهند ·· فكأن القاعدة بنظرهم : (ما دمت هنديا فلا مناص من أن تكون وثنيا ··)

وتبرز من خلال هذه المصورات الكثيرة أدق خصائص العقلية الوثنية في هذه البلاد ، اذ لا تقتصر على رسوم الآلهة على هيئة البشر ، بل تشمل كل ذي نفس حية من البشر والبقر والقردة والخنازير والعقارب والفئران وما اليهن ·· ولكل منها قصتها منفردة أو مكملة لغيرها ، وهذا ما تشهده مجتمعا على المحيط الاعلى من الصومعة ، اما داخلها فهناك عدد من التماثيل موزعة في الوسط والزوايا ، وبعضها جاثم في الخارج على انفراد

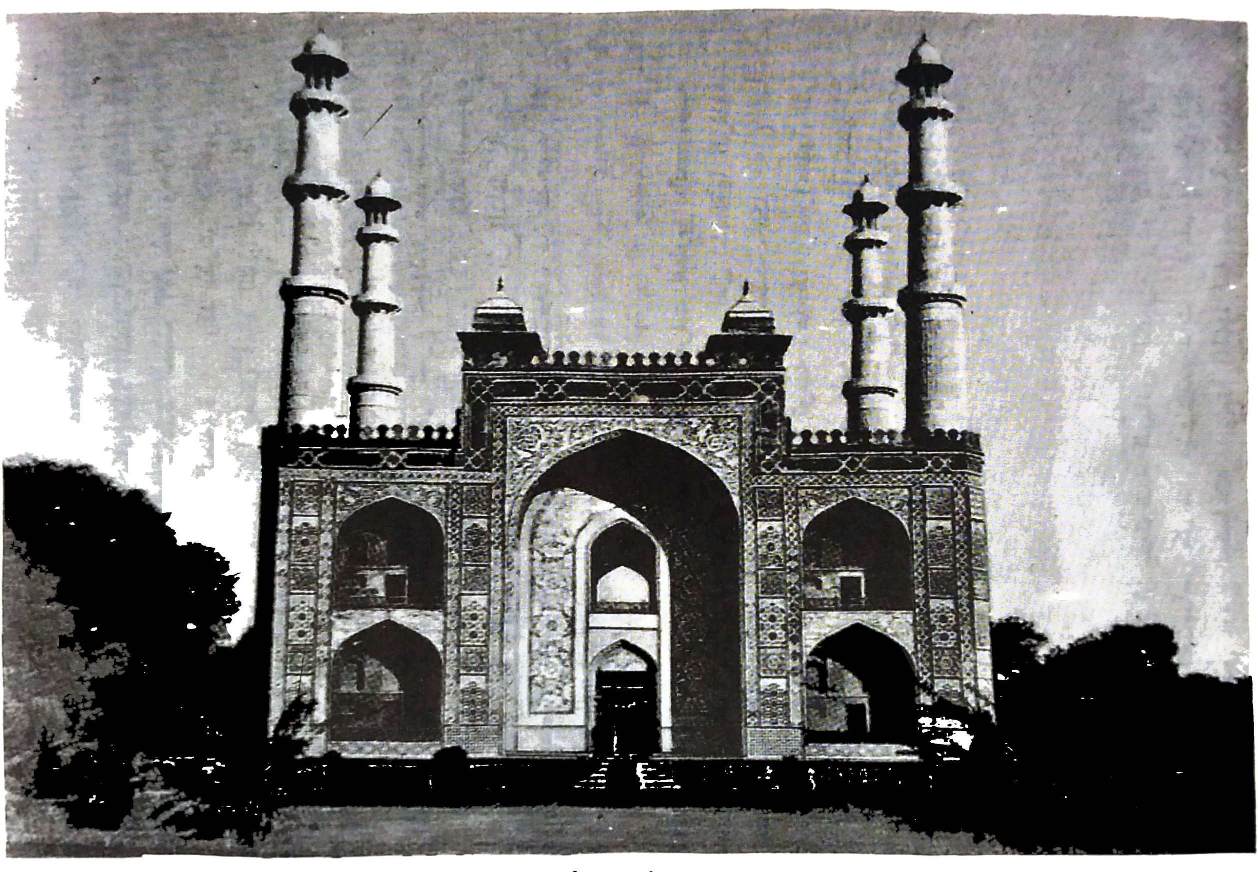
وفى مفكرتى كتبت عن هذه المصورات :

(ان هنا مجموعة من المنحوتات تمثل رجالا يحملون الابواق كأنهم على وشك نفخها ٠٠ وآخرين يحملون دلاء صفراء ٠٠ وعلى زاوية كل من الجدران تمثال تنين طويل ، وفى الصدر المواجه للمدخل صورة رجل يرفع بيمينه مشعلا وهو خارج لتوه من فم حيوان هائل له عينا انسان ٠ وتطفو على ذاكرتى وأنا ألاحظ هذه الصورة الاخيرة قصة نبى الله يونس (ع) التى قصها الله تبارك اسمه علينا فى مواضع من كتابه الحكيم ، ومن ذلك قوله فى سورة الصافات (وان يونس لمن المرسلين ٠ اذ ابق الى الفلك المشحون ٠ فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أن كان من المسبحين ، للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) فأتساءل فى نفسى: هل لهذا الذى أراه من علاقة بأخبار ذلك النبى الكريم ؟ ٠٠

وعندما نعود الى الاصول البعيدة لهذه الوثنية نتبين ان وراءها رسالات النبيين التى حرفها المضللون ، وما زالوا بها حتى حجبوها نهائيا بهذه المنحوتات وبالقصص والاساطير التى نسجوها حولها ٠٠ ومن هنا كان لمروياتهم هذه مظهران أحدهما يعرض أخبار الصراع بين عناصر الخير والشر ، ممثلة فى رجال مخترعين أو تاريخيين ، وفى الغالب ينتهى ذلك الصراع بانتصار الفريق الصالح ، فيكون فى ذلك تشجيع على الخير ودعوة الى العمل الطيب ٠٠ ومن هذا القبيل قصة (رام وسيتا) التى تدرس فى أحد كتب المطالعة الهندية ٠

والمتوقع ان يكون الحافز الى تجسيم هذه المعانى فى مثل هاتيك الصور هو السبب نفسه الذى أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فى التماثيل التى بدأت منذ عهد نوح (ع) بتصوير الصالحين للتذكير بفضائلهم ، ثم ما لبثت ان استحالت معبودات تدعى مع الله ويتقرب بها اليه ٠٠

ومن النوع الثانى تلك الاخبار الخرافية ، التى تترجم التصورات البدائية للشعوب الوثنية كافة ، ونخص بالذكر منها لدى وثنيى الهند أسطورة القرد (هانومان) التى تروي لاهلها قصته التى تقول : ان سيده (رام) قد أصيب ذات يوم بعلة لا شفاء لها ، الا بضرب من النبات لا وجود له الا فى جبال الهملايا ، وكان على القرد أن يأتيه به ، ولكنه لم يستطع تمييز المطلوب ، فما كان منه الا أن حمل تلك الجبال وأتى بها صاحبه ، ليختار مراده من نباتها ٠٠ ومنذ ذلك اليوم استحق القرد هانومان أن يضم الى قائمة المعبودات تقديرا لاخلاصه وقوته الخارقة ٠٠ وقد رأينا تمثاله



المعبد الأكبر بأكرا

فى (هانكج) حديقة بومباى الرائعة مصنوعا من بعض النباتات القصدية وهو يحمل مثال هملايا كما ترويه الاسطورة ..

ومـــن اضـــــل .. ؟

بقى أن أعرض لما شاهدته من عباد هذه المنحوتات ، فقد دخلنا الحجرة وفيها امرأة نصف تسجد على قاعدة الصنم الاوسط وحولها .. ورجل يناجى صنما آخر فى زاوية من الحجرة .. وقد نثرت الازاهير بين يدى هذه المنحوتات السفلية ، وسال عنها بعض الماء الذى يرشونها به ، ولاحظت ثمة صورا عدة لافاع تمتد من الصنم المتوسط حتى تنتهى الى الخـــارج ..

ولقد استرعى انتباهى منظر المرأة وهى تمرغ جبهتها عند قـــدمى الصورة التى قصدت اليها ، فى خشوع يبلغ حد البكاء ، وتكرر ذلك السجود عند كل جزء منها ، وقد طبع الاسى وجودها كله ، حتى ان الناظر اليهـا ليحس ان ثمة مأساة تأكل قلبها ولا تعرف سبيلا للتخفف من لذعهـا الا باللجوء الى هذه الحجارة ! ..

وتمتمت فى أعماقى : لو ان هذه المسكينة عرفت الطريق الصحيح الى ربها الحق ووقفت بين يديه تدعوه بهذا الانكسار ، اذن لشملتها الرحمة التى وعد بها فى بلاغه الحكيم : (وقال ربكم ادعونى استجب لكم ..) أما وقد رضيت لنفسها هذه الضلالة ، فراحت توجه دعاءها وضراعاتها الى جماد لا يفرق بين ماء يرش به ، وبول ينضح عليه ، فقد حق عليهـــا أن توكل الى ما آثرت ، ولا مردود لذلك سوى الخسران المبين (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ــ ٤٦ ــ ٥) .

اختصــاصات الآلهـــة :

ورجوت من أبى سحبان أن يستوضح السادن الكبير ، وهو شاب تلوح عليه آثار المهنة ، عن اختصاص كل من هذه المعبودات ، فاخذ يفصل ذلك فى اهتمام المرتزق الذى يروج لبضاعته ، ومما أطنب فيه بخاصة تعريفه صورة المرأة المنصوبة فى كوخها الصغير خارج الصومعة ، على انهـا بزعمه الهة التناسل والقوة الجنسية ..

وللوثنية الهندية عناية كبيرة بموضوع الجنس كشأن زميلتها اليونانية وقد ذكر لنا بعض الاخوة فى مدراس أن فى كبرى المعابد الهندوسية هناك معرضا تفصيليا للعملية الجنسية من مبدئها الى منتهاها ، لا على طريقة الدراسات التشريحية ، بل على طريقة التسجيد للجنس ذاته ·· وفى قلعة (فتح بور) بأكرا رأينا بين مجموعات الرسوم المعروضة للبيع عن آثارها واحدة تمثل معبدا خاصا بالجنس تعرض الكثير من مشاهده المكشوفة ، ويقصده من شـاء للاطلاع المباشر عليها ··

ولله الفضل والحمد على أن نزهنا عن النظر الى هذه المقابح بعد أن من علينا بنعمة الايمان ، التى هى أكبر منح الله للانسان ··

ومرة اخرى اوجه نظر القارىء الى ظاهرة الفردية فى نفسية الوثنى الهندى من خلال عبادته نفسها داخل هذه الهياكل ، حيث يقوم كل واحد بأداءه طقوسه ومناجاة وثنه فى معزل عن الآخرين ··

واكرر ما أسلفته كذلك من التوكيد على ان هذه المعابد الوثنية انما هى من عمل اشخاص يقيمونها ويفتنون بتزيينها ، استخلاصا للمال من أولئك الذين الغوا عقولهم واستجابوا لاشواقهم الفطرية التى لم يعرفوا الطريق الصحيح لا روائها ··

مخطط شـــاق :

الاحد ١٤ـ٢ـ١٤٠١

ابلغنى الاخ الشيخ محمد رابع بجدول الرحلة التى ستبدأ يوم الاثنين الثانى والعشرين من الشهر الجارى ، وقد عينوا لها اكثر من عشر مدن ٠٠ ولا شك انه برنامج عسر التطبيق لا يدع مجالا للتنفس وبخاصة لمن هو على شاكلتى فى الرابعة والسبعين ٠٠

أجـل اننى لا أزال ولله الحمد محتفظا بكثير من نشاط الشباب ، أيام كانت الرحلات الرياضية أحب الاشياء الى بالغة ما بلغت من الشدة ، ولكن مجرد الشعور بالنشاط شىء وواقع الجسم شىء آخر ٠٠ وشانى مع هذين الجانبين كشأن الفارس القوى يمتطى دابة هزيلة ، فلا هو قانع بالاقل من الامانى ، ولا هى بقادرة على تحمل المشاق التى يريدها عليها٠ ثم لا ننسى أن لسمة العودة حدا هو أول ربيع الاول فلا سبيل لتجاوزه ، لذلك اقترحت على الاخ تعديلا يفسح المجال لبعض الراحة والاستطلاع فوعـــد خـــيرا ٠٠

حاميهـــا حراميهـــا :

وقبل ان امضى فى مفكرة اليوم أحب أن أورد ملحوظة أخشى أن يفوتنى ذكرها

لقد سافر الشيخ الرابع الى (تكيا علم الله) لبعض الامور على أن يعود فى اليوم التالى ـ السبت ـ الا انه وصل متأخرا ، ففاته حضور المحاضرة الادبية ، وابدى أسفه لذلك معتذرا للاخوة بتوقـــف القطـار عددا من المرات أثناء الطريق الى لكناو ، لان الطلبة ـ من جامعــــات الحكومة ـ كانوا يكرهون القطار على التوقف بين الحين والاخر ، ليهبطوا الى بعض الحقول فينهبوا من ثمارها ما يستطيعون ! ٠٠ والعجيب أن يقع ذلك فى قطار حكومى ومن قبل جامعيين يفترض انهم يفقهون الحدود والانظمة ٠٠ بيد ان تلك من الامور العادية فى بلاد تقوم فيهـــا المجازر البشرية على مرأى ومسمع من حماة الامن فيها بل بمشاركتهم احيانا ٠٠ وما دام ذهن الانسان خاليا من حقيقة التوحيد ، ومن الوازع الـــدينى الحق ، فلا استقرار له ولا انتظام لعمله الا بمقدار خشيته من مراقبـــة السـلطة ٠٠

نـــدوات مفتوحـــة :

وجـاء رسول النـدوة يستعجلنا للمحاضرة ، وفى تمام السـاعة الثانية عشرة افتتحناها ، وكانت هذه المرة نـدوة مفتوحة دارت أسئلتها وأجوبتها حول بعض أساليب البلاغة وعن نشوء اللغـات وتطورها ..

وقـد وفق الله سبحانه فكانت على غـاية من النجـاح والتأثير ، تخللها بعض الطرائف التى حركت العواطف وأطلقت الضحكات ، وتركت وقعها الفكرى عميقا ولله الحمد ..

ومن حق هؤلاء الطلبة ، وبخاصة اولئك الذين يقبلون منهم على زيارتي بعد كل عشاء ، أن أسـجل اعجابى بهم وتقـديرى لاهتماماتهم العقليـة والروحيـة ، تلك التى تجعل السهرة معهم ندوة أخرى تطرح فيها مختلف المشكلات . وقد شرع بعضهم منذ أيام يقرأ على فصولا من كتابى (كلمات مضيئة) ويعقبها ببعض الشروح المصـــورة لانطباعاته حولهـــا ..

هنـــا انتصر الاســتعمار :

وكان الوقت أصيلا عندما جاءت السيارة لتحملنا الى أطلال (ريجى دنسي) التي شهدت أعنف المعارك بين المسلمين والانجلـــيز ، وانتهت بسقوط ولاية (أود) فى مخالب المستعمر . وحضر مع السيارة الرجـل الذي سيأخذ لنا الصـور الموضحة لساحة القتال .. وكان مترجمـــانا اليوم الطالبين الطيبين ظهير أحمد الهندى وأحمد الحبشى الاندونيسى .

وبعـــد اداء الرسوم المعتادة دلفنا الى داخل الرحاب الفسيحـة حيث تتوزع الحديقة الواحدة الى حدائق ، وحيث تقوم بقايا القصـــر المركزي شاهدا على أمجاد كبيرة لم تدعم بالمقومات التى تساعدها على البقــــاء ..

كل شيء مجلل بغلالة من الكآبة القاتمة .. الا ان الاشجار الباسقة لا تنفك تتخلل اقسام الحديقة ، وبينها صفوف (البـــام) الشامخ كشجر النارجيل ، وقد عريت جذوعه وتوجت رؤوسه بمما يشبه المظال الواسعة فهي زاهية بزينتها كأنها غير دارية بمـا حل حولها من كوارث أهلها ذات يوم .. حتى لتذكر الناظر اليها بالصفصاف الذى لم ياس لمقتـــل ابن طريف الخارجي ، فاستحق عتاب أخته على ذلك بقولها :

أيا شجر الصفصاف ٠٠ مالك مورقا كأنك لم تحزن على ابن طريف!

ان ها هنا مخلفات ماض مترف لم يتوقع أهله أى تغير فى مسيرة التاريخ ، حتى دهمتهم النوائب على حين غرة ، فدمرت عليهم ، وأتت على نعمائهم فأحالتها شقاء ، والى أبينتهم فجعلتها أطلالا :

ناموا على سرر الديباج وانتبهوا على صباح بكى الطرف غائرة

أطلال ومدافع :

أول ما يواجهك بعد ولوجك هذه الرحاب تلك المغانى المتناثرة هنا وهناك ، وقد استحالت خرابا تنوح به الغربان ، غير أنها لا تبرح قائمة على أعمدتها ، وقد غرقت ببقايا دخان القذائف الناطقة بأن أهلها لم يسلموها الى العدى المغير الا بعد أن سجلوا أكرم مآثر الكفاح ٠٠

أما القصر المركزى فهو دون القصور الملكية الاخرى ، ويبدو أنه كان مقر الاسرة الحاكمة أو بعضها ، بخلاف تلك التى كانت مراكز الحكم ومحتوى مكاتب الاعوان والكتاب ٠٠

وعلى أضلاع الساحة ، بل الشرفة الكبيرة الملاصقة للقصر صفت المدافع القديمة فى أحجام متقاربة ، لا يزيد طول الواحد منها على المتر، وهو عبارة عن اسطوانة مجوفة توضع الكرة فى فوهتها ويحشى ما خلفها بالمواد المتفجرة ، فاذا اشعلت تمدد البارود وقذف بالكرة فى الاتجاه المقصود ٠٠

وعلى مدى غير بعيد من وسط الحديقة نصب مدفع ضخم من الطراز نفسه ، وكأنه معد للاطلاق ، وهو من النوع الذى شهدناه فى جزر الفيلبين من مخلفات الغزاة الاسبان ٠٠

ودخلنا القصر فاذا هو متحف بدائى ، تعرض على جدرانه رسوم تمثل تاريخ الغزو ، وقد رفعت فوق بعضها صور القادة الانجليز ، وعرض فى وسط القاعة الكبرى مجسم لمدينة لكناو كما كانت أيامئذ ٠٠ ومنه عرفنا ان ابنيتها لم تكن تزيد عن الدورين ، ما عدا القصور الملكية كشأن منازل اندونيسية وما جاورها ٠٠

وفى بعض هذه القاعات بقايا أدوات حربية منها مدافع دون المتر ، ويقارب قطر الواحد منها عشرين سنتم ، وهو نوع من الاسلحة

القابلة للتنقل ، ولكنها تتطلب قوة لنقلها ، فهى أقرب الى القاذفات التى يحملها واحد ويطلقها آخــر على الدبابات ، والى جانبها مجموعة مرصوفة من القذائف الكروية المختلفة الاحجــام ٠٠

وهبطنا أربعا واربعين درجة الى ما تحت البناء ، فاذا هناك مسكن من الطراز الاعلى نفسه ، ولعله كان مساكن للخدم ، وقد بقيت من سقوفه الخشبية بقية تشهد بدقة الصنعة ، على ان أرضه خالية من كل أثـــر للبلاط الانيق الذى فرشت به أرض القصر العليا

وكان عامل التصوير قد التقط لنا رسوم القصر والابراج المشرفـة عليه ، ولعلها مقامة هناك لحمايته فى الاصل ، وقد أصابها من آثـــار الحرب ما أصــاب أخواتها ٠٠

والمهم انا شهدنا ساحة احدى الملاحم التى استمات فيها المدافعون عنها ، ولم يستسلموا حتى فقدوا كل شىء ٠ وقد قيل لنا ان هـــؤلاء كانوا من مختلف الطوائف اذ اشترك فى المقاومة للغـــــزاة المسلمون والهندوس والسيخ ، ولكن غلبتهم الخيانة التى أقترفهــا بعض الكبــار مقابل بعض المنافع ، التى ذهبت معهم وخلفت لهم عـــار الخيانة وحده ٠٠

ومــرة أخرى أقول : ان سفاهة أولئك الحكام المترفين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، هى التى مهدت للاستعمار الانجليزى ، الذى كان قمـــة الرزايا على مسلمى هذه القـــارة ٠٠

وغادرنا هاتيك الاطلال فى الطريق الى شارع أمين أباد ، لاسترداد ساعتنا التى تركناها لدى المصلح منذ أمس ، وسرنا أن وفق الى اصلاح ما عجز عنه فى المدينة ثلاثة من كبار الساعاتية ، الذين اقتضوا عليهــا قرابة المئة من الاربلة ٠ ولمـــا سألناه عن الاجـــر الذى يطلب أبى أن يكون أجـــره غير الدعـــاء ٠٠ ومثل ذلك فعل بائع الاحذية المجاور اذ أبى أن يأخذ ثمن الخف الذى أخترناه من متجرة ، وقد تكرر هذا الموقف فى بنارس وبومباى وفى عاصمة اندونيسية أيضا، وذلك على الرغم من الحاحنا على القـــوم باستيفاء حقهم وقبول اعتذارنا ٠٠ فما أروع وأسعد هذه الاخوة التى تجمع بين الهندى والشامى لغير ما سبب سوى الحب فى الله ٠٠ والحمد لله ٠٠

المعبـــود الجديد العجيب :

الثلاثاء ١٩ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

استمر المطر متقطعا الكثر هذا اليوم ، بعد أن قـدم بوادره خلال اليومين الماضيين ضبابا وسحابا حجب اشعة الشمس أو معظمها ٠٠

وبعد صـلاة العصر ، وكنا نستريح على مصطبة المضافة مع بعض الاخـوة ، جاءتنا مجموعة من الرســوم انتقينـــا الصقها بمشاهداتنا وأوصينا على اخريات ٠٠ وتطرق بنا الحديث الى موضـــوع الوثنيـــة الهندية وتطوراتها ، وبعض اساطيرها ، وكان بينها قصة الآلهة المتنافسة على الزعامة ، ولجوئهم للتحاكم الى اله الحكمة ، ثم قصة القرد هانومان الذى فرغنـــا من خبره فى حلقة سابقة ، واخيرا قصة المعبود الخرافى الذى له جسم بشر ورأس فيل ٠٠

ومن الطرافة ان انقل للقارىء خبر هذا الاخير الذى لا بد للسائح فى ربوع الهند من مولجهة صوره وتماثيله انى سلك من الشوارع ذات المعارض الفنية ٠٠ وخلاصة قصته أن لاحد الآلهة قد ازمع سفرا وتــرك زوجته وخادما لها ٠ وذات يوم أرادت الاستحمام فامــــرت الخادم بأن يحرس مدخل المنزل ولا يسمح لاحد بتجاوزه ايا كان ٠٠

واتفق ان عـــاد الزوج المسافر الى بيته ، وحاول دخوله ، فمنعـــه الخادم من ذلك ، فلم يكن من الزوج الا ان ضرب راس الخادم بســـيفه ففصله عن جسده ، ثم اقتحم الى داخل المنزل ٠٠ ولمـــا رأته زوجـــه التهبت غضبا ، وفرضت على الزوج القاتل أن يعيد للخادم رأسه ، وبازاء اصرارها لم يجد بدا من تنفيذ الامر ، ولكنه لم يجد الرأس المقطوع بـــل وجـــد فيلا ، فلم يلبث أن احتز رأسه وركبه على جسد القتيل ، فكـــان من ذلك هذا المعبود الجديد العجيب ٠٠

تقاليـــــد رهيبـــة :

وكان من طرائف هذه الجلسة كذلك أن نزداد علما بتطورات هذه الوثنية التى انتهت اخيرا الى ان تتالف من قسمين متمايزين ، احدهما ما تتضمنه المواريث المكتوبة من المواعظ الخلقية والروحية ، والثانى ذلك الركـــام من العادات والتقاليد المتزايدة التى لا أصل لها فى صـــــحفهم المقدســـــة ٠٠

وغير خفي على القـــراء أن من تقاليدهم الرهيبة التى تم القضاء عليها نهائيا تقديم الزوجة نفسها للنار تحرقها فى حفل صاخب ، بمجرد أن فارق زوجها الحياة ، وقد بات معلوما أن الباعث على هذه الجنـاية هروب تلك الضحايا من احتقار المجتمع ، الذى يعتبر المرأة التى فقـدت بعلها شؤما ينذر بأسوأ العواقب ، فلا تجد أى خير أو احسان حتى من أقرب الناس اليها ، اذ تصبح حبيسة بيتها فى هـــوان لا يحتمـل ولا خلاص منه الا بالموت ٠٠

ولعل كثيرين من ذوى العلم لا يعلمون موقف حكام المسلمين من هذه العـادة الجهنمية أيام كان لهم السلطان فى معظم هذه الديار ٠٠ فلقـد كان المسئول من هؤلاء الحكام اذا مـات الهندى المتزوج لا يسمح للقـوم باحـراق زوجه حتى يتحقق من رغبتها الصحيحة فى ذلك ، فيبعث بطلبها الى قصره حيث يعرض عليها الاسلام ، ويبين لها محاسنه ورحمته بالخلق فاذا أبت ذلك جمعها بسيدات القصر ليقمن بمحاورتها ، لعلها تقتنـــع بالعدول عن ذلك المصير الكريه ٠ ويستمر ذلك وقتا كافيا للتفكير والتأمل، حتى اذا أصرت على عزيمتها ترك لها حرية التصرف بنفسها دون اكراه٠

ويـــراد احيـــاؤها :

على أن من غرائب المفارقات التى لا تكاد تخطر فى بال انسان أن يوجد اليوم فى الهند من يرغب فى استعادة ذلك التقليد الرهيب ، فيطالب الدولة بالسماح للمرأة الهندية باحراق نفسها بعد زوجها ! ٠٠

أجل ٠٠ لقد قامت فى شوارع دهلى قبل قليل مسيرة تهتف بالعودة الى ذلك الماضى ٠٠ ثم أعقبتها مسيرة أخرى ترفض ذلك المطلب العجيب ٠

وهكذا يمتد الصراع الفكرى فى الهند الى مثل هذا التناقض ٠٠ ولا عجب ، فقديما وصفت الهند بأنها مصدر التناقضات ٠٠

اثرهـــا بين المســلمين :

ومن حق القـارىء أن يعـــلم كذلك أن شيئا من هذه المفارقات قد تسلل الى حياة المسلمين فى الأفغان وفى الهند ٠٠ أو لعل بعضهم نقـله من رواسبه الهندوسية القديمة الى حياته الاسلامية الجديدة ، فظل متشبثا فى مجتمعهم ، على الرغم من تأثير الاسلام فى تهذيبه والتخفيف مـن

شدته ·· ذلك ان المسلمين من هؤلاء راولئك أو معظمهم كانوا الى عهد قريب يرفضون تزوج الارملة أو تزويجها ، فتبقى سائر حياتها محرومة العطف والانسانية ، حتى قامت حركة المصلح الامام احمد عرفان ، الذى استطاع القضاء على هذه السوأة ، واعاد للارملة المسلمة كرامتها السليبة وحقها الانسانى فى الاقتران بزوج جديد دون أى غضاضة ··

وتسللها الى النصرانية :

وجرنا الكلام فى تقاليد الوثنيين الى ظاهرة فقدان النظافة فى بعض أوساطهم الشعبية ·· وتساءلنا عما اذا كان للتقاليد الدينية نفسها أثر فى هذه الظاهرة ·· والذى أراه أن التلاحم قائم بينهما بصورة لا يخطئها البصر ، فضلا عن الفكر ، فالوثنية نحلة تائهة ليس لها من حدود أخلاقية موجبة · وأدل شىء على ذلك كونها لا تعرف طهارة ولا نجاسة ، بل ان القوم ليشربون بول البقر ويمسحون وجوههم بخثيه ، ويقال ان احدهم يشرب حتى بول نفسه فى بعض المناسبات ·· ومن هنا كانت نفرة المسلمين من طعامهم وشرابهم والابتعاد عن شراء أى مأكول من عندهم ··

ويذكرنى هذا ببعض الطقوس النصرانية ، التى لا يستغرب ان تكون لها صلة بهذه الظواهر التى نشير اليها من وثنية الهند ·· فمن الخصائص الاصيلة فى نصرانية بولس انغماس الفرد فى ماء المعمودية ، الذى هو الخطوة الاولى فى تثبيت النصرانية عليه ، وكان القوم الى عهد قريب يتنافسون فى الاحتفاظ بأثر ذلك الماء المقدس على اجسادهم ، فلا يقربونها من الماء ، الا ما ظهر منها ، واكثرهم قداسة ابعدهم عهدا بالماء ·· ولعل من الشروط الاساسية فى قديسيهم سلامة اجسادهم من ملامسة الماء كليا ! ··

بعض الأمثلة :

واتذكر هنا بعض المناسبات التى تتصل بهذه الناحية ، شاهدت بعضها بنفسى ، وسمعت بعضها من غيرى · فقد اخبرتنى قريبة لى كانت نزيلة فى أحد المستشفيات اللبنانية ، وفى الغرفة نفسها امرأة نصرانية · وذات يوم رأت قريبتى صاحبتها تغسل متاع العادة فى اناء لها معد للطعام ، فانكرت عليها أن تقدم على تدنيس انائها دون اذن ، فردت عليها أن النجاسة مجرد وهم لا وجود له ·· واتفق ان كاهنا جاء

لزيارة تلك النصرانية ، فشكت اليه المسلمة عمل صاحبته وادعاءها نفى النجاسة ·· فكان جوابه ان هذا الذى تسمونه نجاسة نحمل مثله فى بطوننا فلو كان نجسا لكنا كلنا أنجاسا ··

ومما رأيته من ذلك أن رجلا من النصارى كان يحمل طفلا له وبيده قطعة بسكويت فبال على ثوب والده ، وسقطت القطعة فى بوله الذى انتهى الى الارض ، فما كان منه الا ان مسح ثوبه بكفه ، وتناول القطعة فازال ما علق بها من التراب ثم جعل يدسها فى فم ولده ··

ومرة ثانية شهدت نصرانية صاحبة مطعم تحضن ولدا لها ، وقد قذر على ثوبها ، فمسحته كذلك بيدها ثم قامت تحضر لاحد الزبائن باليد نفسها طعامه من الشواء ··

والمرء عندما يستعرض مثل هذه الاحداث عند كلا الفريقين لا يسعه الا ان يربط بينها بسبب من وحدة المصدر ، ولا غرابة فى ذلك ما دام للنصرانية الافلوطينية البولسية جذور تلتقى مع الوثنية الهندية فى أصولها البعيدة ·· والحمد لله الذى أنقذنا بالاسلام ، وطهرنا وفضلنا على كثير ممن خلق ··

ندوة مع الغرباء :

قبيل المغرب قدم أحد الاخوة يخبرنا ان اجتماعا للطلاب الغرباء سيعقد عقيب صلاة العشاء فى أحد المهاجع وانه يحمل الينا دعوتهم لحضوره ··

وفى الموعد المضروب توجهت مع بعضهم الى ذلك الاجتماع ، وكان يضم قرابة الثلاثين من مختلف أنحاء آسية وافريقية ، واكثرهم من الماليزيين والاندونيسيين · وبعد التعارف وجهنا اليهم كلمة مركزة حول مسئوليتهم نحو أنفسهم وشعوبهم ودينهم ، أعقبتها أسئلة فى مختلف الجوانب المتصلة بحياة شعوبهم ، فأجبنا عليها بما فتح الله من الخير ··

وفى أصيل اليوم التالى جاء بعض طلبة القسم العالى يطلبون الى حضور اجتماع لهم أعدوه لهذه الغاية ، وجعلوا موعده بعد صلاة المغرب فقدرت رغبتهم ، واعربت عن سرورى بشهود ذلك الاجتماع ·· وقد تم اللقاء فى موعده ، وفى جو من المودة السعيدة جرى

الحديث مناسبا لمستوى الطلاب ، الذين لمست الكثير من أوجه نشاطهم الفكرى والثقافى ، وقد أدرته حول منزلة الانسان فى موازين الاسلام وفى موازين التيارات العالمية على اختلافها ، واكدت على مسئولية المسلم فى ضوء هذه المقارنة ، وبالنسبة الى مجتمعه وأمته والانسانية جمعاء ..

الغاء مريب :

وكانت محاضرة ما بعد عشاء هذا اليوم - الاربعاء ١٧-٢ - قد أرجىء موعدها ، اذ تلقت الندوة اشعارا بأن وفدا من دولة الامارات العربية برئاسة وزير العدل سيزورها خلال ذلك اليوم ، ولكن ذلك التأخير قد ألغى فى الساعة الاخيرة ، اذ وصلت الى الندوة برقية تنبىء بالغاء الزيارة . وقد اخبرنى الاخ شمس الحق أن مصدر البرقية غير معلوم لان الاسم الذى ذيلت به غير واضح ، وان كان المرجح انها من مصدر حكومى ..

وبناء على انطباعاتى الخاصة تصورت ان لهذه البرقية علاقة وثيقة بالاوضاع القلقة ، التى لا يزال المسلمون يعيشونها فى أعقاب مجزرة مراد أباد ، التى ذهبت بآلاف المسلمين على يد البوليس ، الذى انتهز فرصة تجمعهم أثناء صلاة عيد الفطر فصب عليهم حمم أسلحته بوحشية لا تستغرب من القوم الذين قرنهم الله باليهود ، حين قال فى تعريف خصائصهم جميعا (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) ..

وطبيعى ان ليس من مصلحة حكومة الهند - فى مثل هذه المناسبات - ان تكثر الاتصالات بين الوافدين من مسئولى العالم الاسلامى واخوانهم ، من القادة المهتمين بقضايا اخوانهم من أهل الاسلام ..

مذبحة مراد أباد :

وعلى الرغم من مضى اربعة اشهر على تلك المذبحة العالمية وجدت الجرح لا يزال نازفا فى صدور المسلمين على مصارع اخوانهم الابرياء ولا انسى تلك الكلمة الباكية التى سمعتها فى اكثر من مكان فى الهند تقول : لقد ألفنا العديد من هذه المجازر يشنها علينا متعصبة الوثنيين بين الحين والحين ، بيد ان لمجزرة اليوم صورة أخرى

اذ وقعت فى المصلى وبنيران رجال الشرطة ، الذين كان عليهم ان يقوموا بحماية الآمنين بدلا من قتلهم ٠ ٠ ويقول هؤلاء فى حرقة لا يستطيعون كتمانها : ومما يضاعف احزاننا أن هذه المذبحة الوحشية تجرى فى الوقت نفسه الذى كانت سلطات الهند تستقبل زائرا عربيا كبيرا . وبينما نحن ننتظر من ذلك الزائر الكبير كلمة مواساة تشعرنا بعطف الاخوة اذا نحن نفاجأ باعلان تبرعه لمنظمات الالعاب الرياضية الهندوسية بمليون ونصف ٠٠ وقد نسى أن فى مراد أباد وبهار آلاف المنكوبين من اخوانه ينتظرون النظرة الرحيمة واليد المضمدة ٠٠ فكان ذلك الموقف المؤسف اوجع لقلوبنا من موقف أنديرا غاندى وهى ترد على رجال الاسلام ، المطالبين بالقصاص العادل لاخوانهم المظلومين ، بقولها (ان الذين قتلوا فى مراد أباد أقل عددا من الذين يقتلون من المسلمين فى بلاد العرب ٠٠٠) فهل يسمع العرب هذا التحدى المهين ؟ ٠٠ وهل يعى المسلمون ما يسمعون ! ٠٠

رسول جامعة الفلاح :

وفى صباح الخميس ١٨ــ٢ وفد علينا فاضل من أساتذة جامعة الفلاح فى (بلمرياكنج ـ أعظم كره) ومعه خطاب من فضيلة أمينها العام أبى الليث الندوى يدعونا لزيارتها ، وهى احدى دعوات كثيرة وجهت الينا من مختلف الانحاء ٠ ومن حسن الحظ أن جامعة الفلاح هى واحدة من المعاهد المقيدة فى برنامج الزيارات التى نظمتها ندوة العلماء ، وقررت بدءها يوم غد ٠٠ ومندوبها هذا اسمه الشيخ نظام الدين الاصلاحى ، من الذين تنم وجوههم عن فضلهم ، وهو يحسن العربية السليمة وان كان بطىء النطق بها ، كشأن الكثرة من علماء الهند الذين يمتازون باتقان لغة القرآن ، ومع ذلك يعوزهم التأنى الكثير للاعراب عن أفكارهم لان أكثر تعاملهم بغيرها ٠٠ أما الذين أسلست لهم دراية ونطقا كالاخ أبى الحسن الندوى حفظه الله فانما توافر لهم ذلك بكثرة مخالطتهم لعلماء العرب وأدباء العربية ٠٠

توزيع الجوائز :

واصيل اليوم جاءنا الطالب ظهير احمد يبلغنا رغبة المسئولين بالمشاركة فى حفل توزيع الجوائز ، فكانت مفاجاة لطيفة لم ندر بها من قبل ، وفى الوقت المعين مضينا مع المشايخ الى القاعة التى نلقى فيها محاضراتنا الليلية ، واذا الطلاب يملئونها ، وبدأ الحفل

بآيات من كتاب الله تلاها طالب اندونيسى بـارع التجـــويد والاداء والصـوت ٠٠ ثم تلاه مقـــدم الحفل ، وهو الذى قدم حفل ليـــل أمس بالعبارات الملائمة ، التى مهـد بها لكل فقـــرة فى بيـان عـربى سليم ، فعرف بالمناسبة وأكرمنا باطراء لا نستحقه ، ختمه بدعوتنا لالقاء كلمـة توجيهية نقدم بها لتوزيع الجوائز المقررة ٠ فلم أر لهذه المناسبة أفضـل من الحديث عن رســالة العلم فى الاســلام ، والقيمة الممتـازة التى أسبغها على طالب العلم ، حتى جعل الملائكة تضع له أجنحتهـا رضى بمـا يفعل ـ كما ورد فى الحـديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وتطرقت من هنا الى لمحة عن ماضيات الايام التى مـيزت المجتمعات الاسلامية ، ومنها تلك الاحتفالات البهيجة التى اعتاد المسلمون حتى الجيل قبل الاخير الاهتمام بها ، كمواكب ختم القرآن ومناسـبات الزفـاف والختان وما اليها ، التى كان من شأنها تثبيت الطابع الاسلامى على كيـان الامـــة ٠٠

وجـاء دور التوزيع فجعل المقـدم يسمى صـــاحب الاستحقاق والموضوع المتعلق به ، فيتقدم هـــذا ليتناول جائزته بسرور ورصانة ٠٠ حتى اذا استوفى كل حقـــه تقدم بعضهم فألقى بعض الكلمات الجميلة ٠٠

ولقد كـانت بحق مناســـبة طيبة أبرزت جانبـا كريمـا من نشاط هذه المؤسسة العريقة فى خدمـــة الاســـلام ولغـة القـرآن ٠٠ وكان بين الكلمات التى قدمها الطلاب ما يقتضى أن أرد على تحيتهم بمثلهـا ، وأكشف لهم عن بعض ما أضمر لهم ولمؤسستهم المجاهدة من ود وتقدير لا يتسع لشرحهما المقـام ٠٠

وعقيب عشـــاء ذلك اليوم كان موعـد المحاضرة الاخـــيرة التى ختمنا بها أيامنا السعيدة فى تلك البيئة ، التى اعتبر المقـــام فيها نوعا من الاعتكاف المبارك فى طاعة الله ٠

وقد وفق الله فسكب على المحاضرة نفحة القبول ، اذ كـــانت مستوحاة من بعض الآيات التى قرأها أحد الطلاب من سورة الجمعة ٠ ويالها من كنوز آلهية تشحن قلوب المؤمنين باشراقات الوحى الذى لا تنفد حكمه ولا تستوفى عجائبه ٠٠

وداعا ايها الأحبة :

الجمعة ١٩ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

لقد أحسن بى أولئك الطلاب الاحبة عندما ملئوا حجرتى فى الليلة الفائتة ، ولم يفارقونى الا على مقربة من منتصف الليل ٠ لقد طرحوا العشرات من مشكلاتهم الفكرية ، وقرأ بعضهم على صفحات من كتابى الاخر (مشكلات الجيل فى ضوء الاسلام) ٠٠ ولا غرابة فقد أحبونى كما أحببتهم ، وعز عليهم كما عز على أن نتفرق بهذه السرعة ، فجعلوا من تلك السهرة فرصة وداع ستستحيل بعد قليل الى نوع من الذكريات العزيزة ٠٠

وكان علينا أن نغادر ندوة العلماء مبكرين اثر انطلاق الاذان بالدعوة الى صلاة الفجر ٠ وهكذا أديناها جماعة خاصة قبل تجمع المصلين فى المسجد للصلاة العامة ٠٠ وما كنت لادرى من الوجهة المبتغاة الا اننا فى الطريق الى المطار ، ولكن الطريق طال كثيرا واشتط فى الطول ، دون أن أعلم لذلك من سبب ٠٠ وجعلت السيارة تمر بنا على ضروب من المشاهد بينها ما يشبه البحيرات من بقايا الامطار ، وفيها أنهار قد ارتفعت مياهها حتى اوشكت تغمر الطريق ، لولا تلك الموانع التى رفعت على جوانبها لتصدها عن الطغيان ٠٠

وكان الضباب كثيفا يكاد يحجب الرؤية ، وقد شهدنا من آثاره صداما بين شاحنتين أدى الى تعميم الاصابة على عدة شاحنات ٠٠

وبغتة لفت أحد الاخوة نظرى الى ذلك النهر العريض ، الذى كانت السيارة تتجه بنا نحو جسره ، وهو يقول : انه (الكانج) أحد كبار مقدسات الهندوس ٠٠ واستعدت بصورة عفوية ما أحفظه من اخبار هذا الجبار العتى ، الذى لا يعبأ بتقديس القوم اياه ، فيبتلع المئات منهم كل عام دون شفقة ولا رحمة ، مع انه فى اساطيرهم أنموذج الرحمة ٠٠ لانه الآله الذى تحول نهرا لافادة الناس ! ٠٠

فى مطار كانبور :

وبعد ساعتين من المسير غير البطىء أطللنا على مدينة (كانبور) وهناك فقط علمت ان مطارها هو المقصود ٠٠ وعلمت أيضا اننا نستقبل بلدا يعتبر من مراكز الثقل فى صناعة الهند ، فها هنا مليون ونصف

مليون من السكان ، ثلثهم من المسلمين ، وفيها العديد من المصانع الهامة للزجاج وللنسيج ولسروج الخيول العسكرية ، ولخيول السباق · وكثير من انتاجها يصدر الى أوروبة وغيرها · ومن مصانعها الهامة تلك المتخصصة بصنع الطائرات الصغيرة والعسكرية ، والصانعة للمدافع الثقيلة والخفيفة ، والاخرى التى تنتج الصواريخ والمظلات ·· ومما يلفت الانتباه ان معظم مهندسى هذه المصانع هم من المسلمين ، وكثير من المصانع الانتاجية فى كانبور يملكها مسلمون ، وفى بهار مصنع ضخم للسكر هو ملك أحد المسلمين هناك ·

وفى كانبور استقبلنا الأخ كريم كان قد اخبر بسفرنا فراح ينتظرنا ، وشد ما كان سرورى كبيرا عندما علمت أن مظفر الحق الندوى هذا هو أحد طلابنا القدامى ، وقد شارك فى الافواج الاولى مع الاخوين مزمل ومدثر الذين يعملان فى خدمة الدعوة بالولايات المتحدة هذه الايام ··

وقد زاد سرورى ان هذا الاخ العزيز من ذوى النشاط الاقتصادى فى بلده ، ويملك مصنعا كبيرا لانتاج الجلود المدبوغة من النوع المتقدم ، وهو يصدر الى اوروبة والشرق الاوسط . ويبلغ انتاجه الشهرى قرابة الاربعين من الاطنان ، ويحقق من المبيع ما يوازى مئة مليون روبية – اربعين مليون ريال – فى العام ··

ولم يكن لنا بالطائرة المرتقبة سوى علاقة الانتظار ، ولكن ذلك تحول الى حجز مثبت بهمة الاخ مظفر اظفره الله ·· ثم علمنا أن موعدها قد تأخر بسبب العواصف التى حالت دون انطلاقها من مطار دهلى ، فرأينا ان نفيد من هذه الفرصة بالاطلاع على احوال البلد ومعالمه وبسيارة المظفر الهندية حققنا ما امكن من ذلك ، وكان فى مقدمة ما شاهدناه مصنعه الذى لم نكن قد دخلناه بعد ··

نشاط يبعث الاعتزاز :

اجهزة هائلة ، وعمال كثيرون يتحركون فى كل اتجاه ، واكداس من جلود الجاموس منقوعة فى الاحواض الكثيرة ، وكل واحد منها يتسع لخمسة · واكداس عديدة مجهزة للتصدير الى ايطاليا وايران وغيرهما · واكداس اخرى تجهز للتعبئة ، وهى على غاية من القوة والجودة والنقاء · وقد طلبنا من الاخ مظفر ان يزودنا ببعض رسوم المصنع ورسوم غيره من مصانع المسلمين لنعرف بها فى البلاد العربية انعاشا

للآمال وشحذا لهمم ·· فوعدنا بذلك ولم يكتم أسفه لتقصير مسلمي العرب وغيرهم في هذا المضمار ، مما يبعث الالم والخجل في نفوس اخوانهم مسلمي الهند – على حد تعبيره – وما اسرع ما ردتني زفرته هذه الى قصيدة لي في هذا الموضوع أقول في مطلعها

عقمت عقولكم بني الاسلام فغدوتموا أعجوبة الايام
الناس قد وطئوا الكواكب وامتطوا متن الأثير الى المدى المترامي
وتفننوا في صنع كل عجيبة لم تجر قط بعالم الأوهام
ووقفتمو في حيرة لا تفهمـ ـن وتنكرون على ذوى الافهام
حتى سلاحكمو وجل متاعكم من صنع أفاقين دون نمام
ونظام عيشكمو وشرعة حكمكم نسجا بأيدى كافرين طغام
تتسابقون الى اقتفاء خطاهمو في كل موبقة وكل أثام
حتى لقد أصبحتمو بين الورى مثل الضياع عدو كل نظام

ودعانا للاستراحة قليلا في منزله وهو يقع داخل المصنع نفسه ، وقد أنشئت عند مدخله حديقة مستطيلة على امتداد ضلع المنزل ، وفرشت ارضها ببساط من العشب الاخضر الناعم ، صفت على حوافه أصص الزهر بشكل ماتع ، وفي قاعة الاستقبال الانيقة جدا مع البساطة شاهدنا على الجدران لوحات عدة من الرسوم الطبيعية رائعة الجمال والاتقان ، وليس في احداها صورة لحي ، فهنأته على ذلك لانه مظهر للذوق المسلم الملتزم ولا بد أن لدراسته في الجامعة الاسلامية اثرها في هذا الاتجاه ··

وتناولنا بعض القرى العجلان من موالح ومعجنات ·· ومن ثم دعانا الى قسم الادارة فولجنا مكتبه الخاص ، وفيه جهاز التلكس وكل ما ينبغي توافره في مكتب تجاري تسجل مبيعاته مثل ذلك الرقم من الملايين ··

وأطلت علينا من وراء نافذة المكتب حديقة اخرى مماثلة لتلك بوشيها السندسي وازاهيرها الشائقة ، وقد قطع منها موضع للصلاة أنيق علمنا من الاخ المظفر انه مصلى العمال المسلمين ، الذين لا يتخلف واحد منهم عن واحد من الاوقات التي تدركهم في المصنع ··

وسألت عما اذا كان بين العمال هندوس ، فأكد وجود بعضهم ، وسألته عما اذا كان يجد لديهم من رغبة في التحول الى دين الفطرة ، وبخاصة عند مشاهدتهم للصلاة التي لا يعرفون مثل

جمالها وكمالها في معابدهم ، ففهمت منه انهم لم يجـــربوا ذلك فيهم ، واعترف بأن المسلمين مقصرون فى هــذا الجانب · وهنــا تذكـــرت ما سبق أن رويته عن لســـان زميلنا الهندى الدكتور ف· عبد الرحيم من ان المسلمين فى ولاية مدراس لا يرون من مصلحتهم تحول المنبوذين الى الاســـلام ! ··

تاخـــير آخـــر :

ومرة أخـــرى يأتينا الخبر من المطـــار بتأخير جديد للطـــائرة المنتظرة ، فنهضنا لاستئناف التجوال ، وكان أخ من مدرسة (دار التعليم والصنعة) قـد جـاء يدعونا لزيارتها ، فمضينا معه اليهـا ، وهنـاك وجدنا ما نحب من الخير ، فالمدرسة تحتل جانبا من أرض واسعة بنى بعضها ويؤمل بنـــاء ما تبقى منها ، وفقا للتخطيط الهندسى المعـروض فى صـــدر المبنى ·· واطلعنا على بعض الاقسام الصناعية فيها وبينها معمل للزجاج ونحوه واخر لصنع قطع التبديل للآلات ·· فكان هذا مبعث سرور لنا ، اذ رأينا منهجا متكاملا كالذى طالما حلمنا به وخططنا لمثـله فى لاذقية الشـــام ، فحالت العقبات السياسية دون تنفيذه ·· من شانه أن يزود الطالب بالعلم والحـــرفة التى تحرك مواهبـــه وتغنيه عن طلب الوظيفة ، فى ظل أنظمة لا تعطيه الدرهم الا بأن تأخذ منه الدين ··

ولاحظنا هنا سرادقات منصوبة ثم علمنا انها لجماعة التبليغ الذين سيقيمون احتفالا تحتها يوم غــد ينتظر ان يضم مالا يقل عن مئة الف من الحضور · وهي ظاهرة مباركة ومحبوبة لدى مسلمى الهنـد ، وان لم ترض الكثيرين من غيرهم ، يرون فيها وسيلة ناجحة للتذكير بحقائق الاسلام الكبرى ، وبأخـــوة المسلمين التى هم اشـــد ما يكونون حاجة الى تقويتها ، لرد القطيع التـــائه الى الطريق الصحيح ··

ومن دار التعليم والصنعة اتجهنا الى أحد المساجد لصلاة الجمعة، ومن هناك الى منزل الاخ المظفر لتناول طعـــام الغداء ، ولكننا لم نكد نترجل من ســـيارته حتى فوجئنا بأزيز الطائرة فهرعنا الى المطـــار ، وما لبثنا الا قليلا حتى تم ما أردنا ، وودعنـا الاحبـــة الخمسة الذين أبوا مفارقتنا الا بعد الاطمئنان على تأمين سفرنا الى بنارس ، نحـــن الثلاثة الشيخ سعيد الاعظمى والشيخ نظام الدين الاصلاحى وكاتب هــذه الاســـطر ··

فى الجامعــة الســلفية :

ثلاثون دقيقة مرت على اقلاعنا من مطار كانبور وبعدها هبطنــا فى مطــار اله اباد ، وهى ـ كما بدت لنا من الجو ـ مدينة كبيرة متناثرة الاقسام على مساوف متباعدة ، ولم يكن الوقت متسعا فلبثنا فى المينا الجوى الدقائق العشرين المقدرة ، ثم طرنا الى بنارس التى انتهينا الى مطارها فى الساعة الرابعة عصرا ، وهناك وجدنا بانتظارنا الاخوين عبد الرحمن الرحمانى وأنيس الرحمن ، مندوبين عن جامعة بنارس السلفية، وعلمنا منهما أن البرقية التى وجهتها اليهم نــدوة العلمــاء لم تصلهم الا ظهر اليوم ، وما كان لنا أن نستغرب ذلك وقد جربناه من قبــل فى تلكس الجامعة الاسلامية ، الذى استغرقت مسيرته اربعة ايــام ، وفى الحقيبة الضائعة التى انقضى على غيابها حتى اليوم قــرابة الثلاثة الاسابيع ٠٠ والقدر المشترك فى الجميع اننا كلنا فى الهم شرق ٠٠

وصرنا الى الجامعة السلفية قبيل دقائق من المغرب ، فأسرعنــا لصلاة العصر ومن ثم ذهبنا نلقى نظرات عابرة على اوضاع الجامعــة ، التى كانت من خير ما شــاهدناه حتى الان من معاهد التعليم الاسلامى فهى بالاجمال مجموعة من الابنية المنتظمة فى دررين يزينها ذلك المسجد الكبــير ٠٠

وقد لقينا بين هيئتها التدريسية اثنين من خريجينا همــا أنيس الرحمن وعبد السلام بن ابى أسلم ومما ضاعف سرورنا أنهما كلبهمــا مبعوثان من قبل الجامعة الاسلامية ٠٠

أما عدد الطلاب فى هذه الجامعة فيقاربون الخمس المئات وكلهم من الهند ويبلغ مدرسوها الرقم الثالث عشر ٠

مــع البريلويين ايضــا :

ومما لفت نظرنا فى اعقاب احدى الصلوات ذلك البراح الكبــير المواجــه لقبلة المسجد ، وفيه بعض القبور وبازائها بعض عمال النسيج يعدون خيوطهم هنا وهناك ٠٠ وتوقعنا أن يكون تابعا للجامعة ، ولــكن علمنا من الاخــوة أن هذه الارض انمــا هى مقبرة للبريلويين ، وعلى الرغم من عدم حاجتهم اليها فهم متشبثون بها لا يبيعونها للجامعة بأى ثمن ، بل يتخذون منها وسيلة لايذاء الطلاب والمصــلين فى الجامعة ، ويدفعون ابناءهم لتلويثها نكاية بهم لانهم يعتبرونهم من اعدائهم التقليديين

الذين يسمونهم الوهابيين · وقد أسلفت الاشارة الى هـؤلاء فى حلقـة سابقة ، وسأفرد لهم حديثا خاصا فى حلقة قادمة ان شاء الله ··

بنارس المركز الاكبر للوثنية :

وفى صباح السبت ٢٠ـ٢ تناولنا طعـــام الصباح فى مضــــافة الجامعة ، ومن ثم حملنا الاخوة بسيارة خاصة للاطلاع على أهم معالم المدينة ، التى تعتبر مركز الوثنية الاكبر فى هذه البلاد · وأول المشــــاهد التى واجهناها هناك كان على ضفة الكانج المقدس حيث رأينا المحارق التى تساق اليها جثث الوثنيين من بنارس ومختلف الانحاء المحيطة بها · وقد قيل لنا ان ثمة نارا مجوسية لا يسمحون لها بالانطفاء أبدا ، ومنهـا يقبسون ما يشعلون به الحطب الذى يحرقون عليه تلـك الجثث ، ومن تقاليدهم فى هذا الاحراق أن الذى يتولاه ابتداء هو أقـــــرب الاحياء للميت ··

على ان من لطف الله بدا ان المحرقة كانت خالية من الموتى ، فلم نر مالا تسرنا رؤيته ، وعدنا أدراجنا وفى خيالى وصف ابن بطوطة للنسوة اللائى كن يقدن الى هذه المحارق فى موكب صاخب من ضجيج الطبــول الذى يراد منه ان يحجب اصوات الالم عن اسماع المحتفلين بهذه المآسى·

وعلى مقربة من هذا الشاطىء الكئيب يقع المعبد الهام الذى تتوافد اليه أفواج القاصدين لعبادة الاصنام من مختلف الجهات ، وهو لا يختلف كثيرا عن المعبد الذى شاهدناه فى لكناو الا بكثرة التماثيل المنتشرة على جدرانه الخارجية ، والممثلة لمختلف الاساطير الوثنية · والغـــريب فى أمر هذا المعبد أن يكون بانوه والمنفقون عليه هم المنبوذين الذين سلبتهم هذه النحلة العنصرية كل أثر من حقوق الانسان ! ··

الى جامعـــة الفـــلاح :

ومن ثم اخذنا طريقنا الى أعظم كره الباعدة تسعين من الكيلات·· والطريق الى تلك المدينة حقول متصلة تموج بالخضرة من اصناف الزروع وأبرزها قصب السكر والعدس والخردل والسد والحبوب المتنوعـة ··

ومررنا أثناء ذلك بين القبور المبنية فى عزلة عن العمران ، وعن أشباهها من القبور ، وقد قيل انها قبور بعض المسلمين ، الذين كانت تزار

للتبرك والدعاء وربما كان سكانها من المنكوبين باذى الناس ، فاوصـوا بدفنهم بعيدا عن مواطن البشر على طريقة ذلك المتشائم القائل :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى   وصوت انسان فكدت أطير

ولم نتوقف فى أعظم كره التى لم نر منها فى طريقنا سوى الاسواق الضيقة والازقة القليلة النظافة ، اذ كانت وجهتنا قرية (بالريا كنج) التى بلغناها بعد تسعة كيلات ٠ ومال بنا الاخ الشيخ نظـام الدين أولا الى منزل الطبيب محمد ايوب صديق جامعة الفلاح ، حيث استرحنا قليـلا وتناولنا بعض ما اعد لنا من ضيافة سريعة وخفيفة ٠٠

ومما استرعى انتباهنا فى هاتيك العبادة كثرة الزائرين ، وقـد انتشروا فى الفناء الذى يشرف عليه المنزل ، بانتظار دورهم لمراجعـة الطبيب ، مما لا ترى بعضه لدى الاطباء الاخرين ٠٠ ومرد ذلك ـ كمـا اخبرنا الاخرة ـ ثقة القوم به وشهرته فى نطاق التشخيص والعـلاج ، الذى قدر له الله التاثير الصحيح ٠٠

وكان علينا ان نستعد لصلاة الظهر ، فواصلنا سبيلنا الى جامعـة الفلاح ٠٠ التى أول ما يطالعك منها مسجدها الكبير المشرق ٠ ٠ وفى هذا المسجد الجميل أدينا الصلاة ، ثم فوجئنا بالمكبرات تنصب وبالاخ الشيخ أبى الليث الندوى ، أمير الجماعة الاسلامية سابقا والمسئول الاول لهذه الجامعة ، يتقدم فيتفضل بكلمة ترحيب حيـا بها الجامعة الاسلامية ومسئولها فضيلة الدكتور عبد الله الزائد ، ولم ينس أن يطوقنا بالاطراء الذى لا نستحقه ، ثم تقدم بعض الطلبة فتحدثوا بلسان عربى مبين عن جامعتهم وعن أنشطتها المختلفة ، وفى النهاية وقف الاخ السعيد فقدمنى للكـــلام ٠٠

وقد وفق الله فحدثت هؤلاء الاخوة عن المنزلة القيمة لعلماء الهندفى قلوب مسلمى العالم ، وخصصت بالذكر الامامين ابا الاعلى المودودى مؤسس الجماعة الاسلامية ، تغمده الله برحمته ، والشيخ ابا الحسـن على الندوى القائم على نـدوة العلماء ، أمـد الله بحياته ، وهمـا المفكران اللذان يدين لهما الجيل الاسلامى المعاصر بالكثير من عوامـل النهضة والتوعية ، فى نطاق الثقافة القرآنيـة وفى ميدان التربية والتعليم المميزين للشخصية الاسلامية على المستوى العالمى ٠٠

ومن هنا نفذت الى تذكير الحضور بما يواجههم من مسئولية كبيرة نحو الدعوة الاسلامية فى هذه الربوع ترسيخا لمبادىء هذين الامامين ، وتحقيقا للاهداف العليا التى وقفا حياتهما عليها ، ثم انطلقنا للاطلاع على اقسام الجامعة ذات الدورين الكبيرين ، فشاهدنا مكتبتها القيمة ، ورأينا مهاجع الطلاب التى تضيق بهم حتى ليسكن منهم العدد الكبير فى الحجرة الواحدة ..

في كليـــة البنـــات :

وبعد الغـــداء الذى تناولناه فى الجامعة مضى بنـــا الاخوة من مسئوليها الى كلية البنات التابعة لها وبلغناها بعد مسيرة يسيرة بالسيارة وعبرنا الى الكلية زقاقا ضيقا تنقصه النظافة ، وتنتشر خلاله المنـــازل القروية على غير انتظام .. واخيرا بلغنا المكان المقصود وعرفناه من شكله المخالف لسائر الابنية التى مررنا بها ، اذ كان دالا بانتظـــامه وامتداده انه أحد المراكز التعليمية ، على الرغم من انه لم يستكمل وضعه النهـــائى بعـــد ..

ووقف بنـــا الاخوة عند أول قاعات الدرس ، وولجنا المدخل لنأخذ مكاننا على منضدة المدرسة حسب اشارتهم ، وكانت القاعة مقســـومة بستار كثيف من القماش بحيث لا يرى ما وراءه ، ولم أعرف ماذا ينبغى أن أعمل حتى سمعت صوتا أنثويا يلقى علينا تحية الاســـلام من وراء الحجاب ، فرددنا عليها بأحسن منها ، ولم ألبث ان استمعت لهذا الصوت نفسه يرحب بنـــا بكلمة عربية موجزة ، ولكنها بليغة الاداء والاسلوب و (المضمون) اذ كان عرضا مكثفا لتاريخ هذه المؤسسة ونزيلاتها مـــن المدرسات والطالبات والاهداف التى تعمل لها فى تنشئة الجيل الذى يصلح لتجسيم المعانى الاسلامية فى الوسط النسوى على الرغم من كل المثبطات والعقبات التى تواجه العمل الاسلامى الناشىء فى هذه البلاد ..

وعقبت على الكلمة بما يناسبها ، وذكرت المحدثة الفاضـــلة ومن وراءها من بنـــات الاســـلام بالموجبات الضخمة التى وضعها القدر على عواتقهن ، عندما قرن الله سبحانه بينهن وبين اخوتهن فى مسئوليـــة الجهاد الدائب لاقامة المجتمع الصالح ، وذلك بقوله تعالى (والمؤمنـــون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ٩ــ٧١) وضربت لهن أمثلة من امهات المؤمنين والتابعات لهن باحسان من الاجيال التاليـــة ..

رحم الله المودودى :

وأرى من الحق على ان اسجل بهذه المناسبة ما لمسته هنا فى كلية البنات ، وفى جامعة الفلاح التى اليها تعـود ، من نشاط مشكور فى خدمة الاسلام على المنهج نفسه الذى خطه المصلح العظيـم أبو الاعلى المودودى تغمده الله بوافر رحمته ، ولقد اصبحت على أتم القناعة بأن كل معونة تقدم الى هؤلاء الجنود المجهولين العاملين فى مؤسسات الجماعة الاسلامية ، سواء فى الهند او باكستان ، لا تقل أثرا فى ميزان الاحسان عن المشاركة الفعلية فى معركة يخوضها المؤمنون لاعلاء كلمة الله ·· ان شاء الله ··

ولكم يؤسفنا ونحن نواجه تلك الجهود المبرورة من أعمال هـــذه الجماعة أن نسمع عن شيوخ من ذوى الوزن الثقيل فى نطـــاق العامـة لا ينفكون عن وضع العقبات فى طريقها ، حتى ليحرضون عليها السلطات الحاكمة ، زاعمين أنها مسئولة عن اثارة الفتن الطائفية بين المسـلمين والوثنيين ! ·· كبرت كلمة تخرج من أفواههم ··

جامعـــــة الرشـــــاد :

قبيل مغـرب ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ـ٢ـ١٤٠١ هـ ـ قفلنا عائدين من (بالرياكنج) وفى جامعة الرشاد فى أعظم كره أدركنا صلاة المغرب٠ ولم يتح لنـا أن نمكث هنا الا قليلا ، لذلك كانت معلوماتنا عن هـــذه المؤسسة محدودة ، فهى مدرسة عادية أجمل أبنيتها المسجد الذى هـو أول ما يواجه الداخل اليها ، وقد دعينا الى قاعة واسعة منها مـد لنا فيها بعض المملحات الهنـــدية الطيبة ، وهى خليط من الحمص والعـــدس مقليين ممزوجين بالملح والفلفل الحـــار ٠٠ وتبادلنا مع مديرها الفاضل الشيخ مجيب الله الندوى بعض الكلمات الاخوية والتوجيهية ٠٠ وبعض الابنية هنـــا لا تزال فى حالة الانشاء وهناك مطعم فـــرغ من بنائه نصفه تحت مستوى الفناء ، ويتسع لطلبتها المقيمين وعددهم ـ كمـــا اخبرونا ـ خمسة وسبعون ، والشيخ مجيب من خريجى ندوة العلماء ، وله بعض المؤلفات العلمية ، قدم الينا اثنين منها بالاوردية ٠٠

دار المصنفين العالمية :

وقـــرر الشيخ سعيد ان يكون مبيتنا هذه الليلة فى (دار المصنفين) بأعظم كره ، وهى فرصة تتيح لنا ان نعرف عن هذه الدار مالا يحســن بمفكر اسلامى ان يجهله ٠٠

ان دار المصنفين من اهم مراكز الثقافة الاسلاميــة فى الهنـــد ، بل لعلى لا أبالغ اذا قلت انها من أهم مراكز الثقافة فى العـــالم ، وهى من أجل ذلك تستحق ان يفرد لها كتاب بأسره ، فكيف لحلقة كهــــذه أن تقوم بتعريفها ! ٠ ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله ـ على رأى ابن المقفــــع ـ ٠٠

بسيط من الارض متسع وزع على أقســـام وأبنية متعددة ، فهـذا المسجد الصغير الجميل أنشىء لاستيعاب موظفى الـــــدار ، وبجواره المطبعـــة ، وهى مجموعة أجهـزة قديمة تطبع فيها مؤلفات علمائها الى جانب بعض كتب التراث ، وفيها تطبع كذلك مجلة الدار (معـــارف) التى لم تقف عن الصدور منذ نشأتها عـــام ١٩٦١ م وهى تحمــــــل البحوث والتحقيقات التى يكتبها هؤلاء العلماء وغيرهم ٠٠

وفى الجـــانب الاخر من أبنية الدار تنهض مضافاتها ، التى تستقبل أهـــل العلم القاصدين اليها من مختلف الارجاء ، وتتوسط هذه الابنية التى لم نشر الا لبعضها ، حديقتها الغنـــاء التى تسر الناظرين ٠٠

على ان أهم ما تضمه هو مكتبتها الشهيرة المقصودة من الابعاد، وتتألف من عدة أقسام كبيرة مزودة بكل ما يعوز المؤلف والباحث ، وكثير هم الذين يؤمونها لتحضير البحوث العلمية والرسائل الجامعية فيجدون لدى قيميها كل العون الذى يبتغون ..

من ذخائرها النفيســـة :

ولقد طفنا على هذه الاقسام التى تستوقفك عنـد كل جـــزء من ذخارئها ، التى تبلغ الخمسة والعشرين الفا من الكتب بمختلف اللغات ، وذلك غير – أو مع – المخطوطات النادرة والنفيسة ، بينها واحد قيل لى انه يساوى – وربما عرض لشرائه – مئــــة الف روبية الى مجموعة من رسائل شاعر الاسلام الدكتور محمد اقبــــال ، التى بعث بهـــا الى العلامة المرحوم سليمان الندوى ، وقد عرضت حكومة باكستان مئـــة الف مقابل الحصول عليها ..

وفى صدر احدى القاعات مكتب هذا العلامة الكبير لا يزال كمـــا تركه ، وقد بعثرت عليه الاوراق الى جانب المحابر والاقلام ، على الطريقة نفسها التى نشهدها على مكاتب كبار المفكرين الذين تضيق أوقاتهم عن اصلاح اوضاع مكاتبهم بل وامتعتهم ايضا .. وفوق هذه المبعثـــرات غطاء من القماش لا يرفع الا لمن شاء رؤيتها من الزائرين ..

وفى جانب آخـــر من المكتبة متحف يحتوى آثار كبـــار مؤسسى الدار ومؤلفيها ، كالنعمانى الشبلى والندوى سليمان ، وغيرهما ، وقـد رفعت صورهم على جدران هذا المتحف ..

والقيمون على دار المصنفين مجموعة من أهل الفضـــل هم غـــاية فى الكياســـة والوقـــار ، عرفنا منهم مدير المكتبة الشيخ عبد البارى الذى وجدناه كتلة من النشاط الحى والخبرة الواســـعة بمحتوياتها ، وقد اخبرنا فضيلته ان هذه القاعة – التى فيها مكتب العلامة الندوى – قد طالما شهدت ثلاثى زعماء الحركة الاستقلالية فى الهند ، فهـــا هنا كان ملتقى غاندى ونهـــرو وأبو المكارم ازاد ، وكانت مقر نهـــرو الدائم كلما قـدم مدينة أعظم كره ..

مـــوارد الـــدار :

وتعتبر مطبوعات الـدار أهم مصادر التمويل للقائمين عليهـــا من اداريين وموظفين . وتتلقى بعض المساعدات من حكومتى الهند وباكستان

.. وهى فى تقديرى حـــرية بمساعدة الحكومات التى يهمها امــر الثقافة الاسلامية فى الهند والعالم ..

وقد علمت أن راتب مديرها العام ـ الشيخ صباح الدين ـ قد بلغ الفا ومئة روبية بعد سنين طويلة من الخدمة ، بداها بستين روبيـــة ، أيام كان للروبية قوتها الشرائية المحترمة ، ومع ذلك فالراتب فى مراحله الاخيرة يعتبر اقل مما يستحقه مدير لا يقل مركزه عن مدير جامعـــة ، مع العلم بأن راتب الموظف الجديد فى الدار قد اصبح مبدؤه اربعمئـــة روبيـــة ..

وتناولنا عشـــاء طيبا هناك ، وصلينا عشـــاء مباركا فى مسجد الـــدار ، ثم أوينـــا الى الغرفة التى عينت لنا فى مضافتها . وقضيت ليلة قلقة بسبب الارهاق ، حتى اذا قاربت الساعة الخامسة نهضنا لصـــلاة الفجـــر ، ثم تناولنا بعض الطعام الذى أعـــد لنا ، ومن ثم اخـــذنا سبيلنا باتجاه بنارس ..

مدينـــة العـــلم :

وبعـــد فمن حق أعظم كره على زائرها ألا يغفل منزلتها المعروفة فى هذا الجانب من الهند ، فهى التى انجبت قممـــا من رجال العـــلم محدثين ومؤرخين ومؤلفين ، كالشيخ معين الدين الندوى ، والشـــيخ المبار كفورى صاحب تحفة الأحوذى على سنن الترمزى ، والعـــلامة شبلى النعمانى ، وغيرهم ممن اثروا المكتبة الاسلامية بمصنفاتهم العالمية، فاذا نظرنا الى واقعها التعليمى واجهنا مالا يقل عن ثـــلاثين مؤسسة للمسلمين بينها كلية المبلى للدراسات العصرية ..

ويؤسفنا ان ظروفنا لم تتسع لزيارة هذه المؤسسات اللهم الا واحدة هى جامعة الرشـــاد التى سبقت الاشارة اليها ، وحسب اعظم كره افخرا من الفخر ان تكون موطن دار المصنفين التى تعتبر واحدا من منطلقـــات الاشعة ، ليس على مستوى الهنـــد وحدها بل على مستوى العالم الاسلامى باسيـــره ..

مركـــز البـــوذية :

وفى الطريق الى بنارس تقع (ســارنات) التى تضم اكبر الهياكل الدينية لشيعة بوذا ، وفيها البنيـــة الشامخة التى يقـــال انها المكـــان

الذى أحرق فيه جثمانه ، وبجواره عدد من المعابد التى تحمل طابع الفن الهندى الراقى ، وتجتمع كلها فى شارع لم نشهد حتى الان أجمل منه ٠٠

ويطفو هنـــا على سطح الذاكرة شىء من أخبار كمـال جنبلاط الزعيم الدرزى الذى كان أحد ضحايا الحـرب الاهلية اللبنانيـــة ، وفيها ما سمعت من أنه كان يقصد الى الهنـــد للاعتكاف فى أحد معابد البوذيين مدة معينة من كل عـــام ، على طريقة كهنتهم فى التأمل الطويل فتساءلت : ألا يمكن أن يكون فى هذه البقعة معتكفه المفضل ! ٠٠

وتذكرت هنا أيضا ما حدثنى به أحد الاخوة من أن فى هذه المنطقة مخلوقا من كهنة بوذا يقضى أيامه كلها عاريا لا يحجب شيئا من سوأته ، ولا يضن على عين برؤيته على هذه الحال ، حتى فى الشوارع العامة ٠٠ ولا عجب فذلك من البديهيات فى وسط تعرض فى بعض معابده صـــور العملية الجنسية فى سائر أطوارها وبكل تفصيلاتها ! ٠٠

وكنت قد قرأت من أخبار (مجانين) الصوفية ، فى الكتاب المنسوب لعبد الوهاب الشعرانى ، نبـــأ ذلك الولى الذى وفد على قريتهم ذات يوم متجردا من كل أثر للستر ، حتى لقدخطب فيهم الجمعة وهـــو على شأنه ذاك (ربى كما خلقتنى) فكانت فرصة ماتعة شحنتهم بأفانـــين السعادة ! ٠٠ فتساءلت : كذلك : أمن هنا ٠٠ من لفحـــات البوذيين اذن تسربت الى صوفيينا هذه اللوثـــة الخبيثة ! ٠٠

وشمس جديدة أيضـــا :

وفى الساعة ٤٥ــ٦ أطلت شمس الهند تتسلق الفضاء ، وقد بدأت حمراء تتلهب كالحديدة الخارجة من الاتون ، ثم شرعت فى الابيضـــاض حتى لتعجز العين عن ملاحظتها ٠٠ فتذكرت المشهد نفسه الذى استشرفته فى كوبانغ من جزيرة تيمور بأندونيسية صبيحة أحد الايام من رمضان الماضى ٠٠ وهو منظر لم نعهده قط فى أى مكان خارج أندونيسية والهند ٠

وما اروع منظر القرى المتناثرة على جانبى الطريق ، وهى تستحم بأشـــعة تلك الشمس المتوهجة كسبيكة الفضة المذوبة ، فكأنها غـــير القرى التى عبرنا بها ضحى الامس ! ٠٠ وتبارك الله الذى جعـــل من أعاجيب الجمال تغير المنظور الواحد مالا يحصى من المرات فى ضـــوء تحركات الشمس وهى تجرى فى رحلتها اليومية نحو الابعاد المقررة لها من قبل العزيز العليم ٠٠

معاهـــد ومستشفى :

عندما بلغنا أطراف (بنارس) قال الشيخ ســــعيد نحن على مقــربة من جامعة (مظهر العلوم) وهى احدى المؤسسات الداخـــلة فى برنامج الزيارات ، فلنبدأ بها الان نوفر بعض الوقت · فلم أخـالف وتركت له أن يوجه السيارة الى حيث يشاء ·· وكان أول ما واجهنا من أبنية هذه الجامعة مهجع الطلاب ، وهو قائم فـوق صف من الدكـاكين التى تملكها وتؤجرها ، وبعد قليل وقفت بنـــا السيارة عند مجمـــع الدراسة ، فاذا هناك ثلاثة أبنية أحدها للقسم الابتدائى ، والثـــانى للثانوى والعـــالى ، والثالث للاناث ··

والابنية قديمة لا تتوافر فيها شروط الصحة ، ولا تتلاءم مـــع التطورات الحديثة التى طرأت على أبنية المدارس والجامعات ·· وليتهم يبيعونها ليقيموا بدلها المنشآت الحديثة فى الامكنة المناسبة ·· بعيـدا عن قلب البلد ··

وقــد فوجئت ادارة الجامعة بقدومنا ، اذ كان الموعد المضـروب لذلك هو العاشرة ضحى ، فقدمناه ساعتين ، وكان لا مندوحـة لنا عن ابداء العذر لهذا التغيير ، ابراء لذمة الاخوة فى الجامعـة السلفية ، الذين تولوا ابلاغهم الموعد الاول · والظاهر انهم كانوا يعدون لاستقبال مرتب فغيرت المفاجأة خطتهم · وهكذا مروا بنا على كل من الاقسام ، بما يكفى لتكوين فكرة مصغرة عن أوضاعها ، ومن ثم توجهوا بنا الى احدى القاعات من القسم العالى ، حيث أخذنا أمكنتنا فى وسط حشـد كبير من الطلبة والمدرسين · ونهض أحدهم فألقى كلمة طيبة بلسان عربى مبين ، قبســه من دراسته فى دار العلم بديوبند ، وقد تضمنت مع التحية الاخــوية بيانا ضافيا عن نشاط الجامعة وأقسامها · والحق انها كثيرة وهامــة ، وبخاصة ما أشــار اليه من ان لها مستشفى يحتوى قـــرابة الخمسين من الاسرة لقسمى الرجال والنساء ·· مما أثار فينا الرغبــة فى مشاهدته ، وكان ذلك احدى فقرات الاستقبال الذى أرادوا تكرمتنا به، فما ان فرغنا من هذا الحفل ، حتى مضوا بنا الى ذلك المستشفى الـذى زاد على ما كنا نتوقع ·· ففيه طائفة من فضلاء الاطبــاء والمرضين ، الذين يتولون معالجة مختلف الامراض ، ويقومون باجراء الجراحـــات الكبيرة ، مستعينين لذلك بمجموعة من أحدث الاجهزة ··

وحفــــل بالســلفية :

ومن (مظهر العلوم) الى الجامعة السلفية ، التى أبت أن تغـادر

بنارس دون ان تجمعنا بمدرسيها وطلابها فى حفل أخوى ، كان صورة بارزة لمنزلتها العلمية ، ولنشاطها الكبير فى خدمة الاسلام ٠٠

عقد الحفل فى قاعة واسعة معدة لمثل هذه المناسبات ، واتخذ كل من الاساتذة والطلاب امكنتهم فى نظام جميل ، وبكلمة بليغة أفتتحه مدير الجامعة الاخ الشيخ أنيس الرحمن تحدث بها عن ذكرياته فى الجامعة الاسلامية التى تخرج فيها ، وخصنى ، أحسن الله جزاءه ، بجزء صالح من هذه الذكريات ، اذ عرض لانطباعاته عن دروسى ومحاضراتى وأثرها فى نفسه ٠٠ وهو الحديث الذى أتلقاه حيثما كنت من ديار الاسلام ، وسجلت صداه بالقصيدة التى كتبتها فى لكناو ، وفيهاأحمد الله على انعامه بهذا الخير الذى أقول فى وصفه

ولم أك شيئا فى الحياة فسقت لى ... من الهدى والتوفيق ما شاد لى ذكرا

وها أنذا أنى اتجهت فواجد ... صفيا يساقينى المودة والبرا

واعقب الشيخ أنيسا أخونا السعيد بكلمة موفقة خصنى كذلك منها بنفحات من الود لا أعرف السبيل الى مكافأتها ٠٠ ولما جاء دورى لم أجد خيرا من وصف الانطباعات الفكرية والروحية التى حصلت عليها بهذه الزيارات السعيدة لاخوة يجاهدون فى الله حق جهاده ، فهم فى الحقيقة جنود الاسلام المجهولون ، الذين لا يفى بمجهودهم شكر مثلى ولا تناؤه ، لانه من النوع الذى لا يريدون عليه جزاء ولا شكورا ، بل يبذلونه لاعلاء كلمة الله وابتغاء رضوانه فحسبهم ما أعده لهم الله ٠٠

وبالمامة موجزة وواضحة ذكرت الاخوة السلفيين بوسيلتهم المفضلة من الحكمة والموعظة الحسنة فى دعوتهم الى الحق الذى آمنوا به ٠٠ وبخاصة فى هذه الربوع التى عرفت منذ القديم بحساسيتها المذهبية ٠ ولا جرم أن رأس الحكمة هنا هو معالجة النفوس بالكلمة الطيبة ، والجدال بالتى هى أحسن ، حتى يشعر المخالف أن محاورة أخ فى الله يحب له ما يحب لنفسه ، وأنه واياه متعاونان على طاعة الله ورسوله ٠٠ ففى ذلك نصف الطريق الى التفاهم ، والقضاء على اسباب العناد والخصومة ٠٠

وتطرقت من هنا الى واجب السلفيين نحو الوسط الذى يعيشون فيه ، ولا يستطيعون تجاهله ومسئوليتهم بازائه ٠٠ فها هنا بحر متلاطم من الضائعين فى صحارى الوثنية ، لا بد من ايصال الدعوة اليهم بكل

الوسائل المتاحة ٠ وفى طليعتها الاسوة الحسنة ، التى تجعل لكلمة الخير أثرها العملى العميق ٠٠ واذا كان هذا واجبا بالنسبة الى الوثنيين ، فهو أكثر وجوبا بازاء المسلمين ، الذين تراهم من حولنا متهاونين بعزائم الاسلام ، وضربت مثلا لذلك بالسائق ـ عبد القدوس ـ الذى رافقنا خلال اليومين ، دون أن يصلى ـ معنا أو منفردا ـ وقتا واحدا ٠٠

وطبيعى أن للايمان قوته المحركة ، التى لا ترضى من صاحبها بالانطواء على نفسه ، وهو يشهد الفساد يكتسح المجتمع الذى يحيط به ٠ فالواجب على الداعى الحق أن يؤدى واجبه على مستوى الجماعات ، كما يؤديه فى قاعة الدرس سواء بسواء ٠٠

تنظيم رائع :

وكان من تمام الفائدة ان نمر على اقسام الجامعة السلفية قبل فراقها ، وما أدرى أحدث ذاك قبل الحفل أم بعده ٠ والحق انها لفائدة ممتعة تلك التى حصلنا عليها بهذه المناسبة ٠٠

أما البناء فمن أتقن ما شهدناه فى المؤسسات التعليمية الاسلامية ، التى قدرت لنا زيارتها حتى الساعة ٠٠ وهو على سعته وتعدد قاعاته يكاد يضيق بطلبته ومدرسيه وادارته ، فهم لذلك قائمون بالعمل لانشاء مجموعة أخرى من الابنية فى أرض يملكونها خارج هذه المنطقة القديمة ٠

ولقد أنزلنا الاخوة فى مضافة الجامعة كما أسلفت ، فكان لكل منا ، نحن الثلاثة غرفته الخاصة مجهزة بأحسن الفرش ، ومبسوطة أرضها جميعا بالرخام الزاهى ٠٠ وفوق المضافة الفخمة تنهض مساكن الاساتذة وأسرهم ، ولا بد أن تكون على شاكلة المضافة من حيث التنظيم وتوفير الحاجات الاساسية من المياه ساخنة وباردة ٠٠

وطاف بنا الاخ الشيخ أنيس الرحمن على أقسام الجامعة واحدا فواحدا ، فرأينا ما ضاعف سرورنا ، ومن ذلك المطبعة التى تشغل ثلاث قاعات ويعمل فيها سبعة من ذوى الاختصاص ، وعليها تطبع مجلة الجامعة ، وبعض الكتب الاسلامية ، وهى من النوع الذى يعتبر راقيا قبل الاجهزة الحديثة ٠ وفى نية المسئولين ان يطوروها باستيراد بعض القطع المتقدمة ، لكن الحكومة لا تسمح بأى استيراد من الخارج الا على سبيل الهدية ، ولعلهم يوفقون الى ذلك ذات يوم ان شاء الله ٠٠

محسـنون من الكـويت :

ثم وجدنا انفسنا أمـام معمل طبى مجهز كذلك بأنواع المـواد واللوازم الخاصة به ٠٠ ويقول الشيخ انيس انه أقيم ليكون مخـبرا تطبيقيا لكلية الطب التى اسسوها من قبل وقد بدؤوا التدريس فيها طوال عامين ، الا أنهم اضطروا الى وقفها ، لان الحكومة ترفض الموافقة على احداث كليات من هذا النوع الا عن طريقها ٠ وهم الان ينتظرون الظروف المواتية للحصول على الترخيص اللازم لها ٠٠

ويحدثنا الشيخ أنيس ان تجربتهم خلال السنتين علمتهم كيـف يبدؤون خطوتهم التالية فى منجاة من الخطأ الذى تعرضوا له فى الماضى٠ ذلك لان الجامعة قد اختارت طلاب الكلية الاربعين من ابنـاء المسلمين ، الذين يحملون الثانوية العامة ، واشترطت عليهم الالتزام بالصـفات الاسلامية ، الا أنهم أخلوا بتعهدهم ، ولم يقبل أى منهم على الصلاة مع وجود الكلية بجوار المسجد ! ٠٠ وقد اقترحت عليهم اذا قرروا العـودة لافتتاح الكلية ، أن يحدثوا قبل ذلك فصـلا للثانوية العلمية يكون هو الرافـد الذى يمدها بحاجتها من الطلاب ٠٠

وكان آخـر ما شهدناه من معالم كلية الطب المغلقة ذلـك اللوح الرخامى الملصق على واجهة المعمل ، وهو يحمل اسماء المتبرعين بتكاليفه من آل الوزان فى الكويت ، جزاهم الله كل خـير ، وأكثر من المحسنين امثالهم ، الذين يفطنون الى أن فى تشجيع العلم النافع أيا كان نوعـه احسانا لا يقل عن بنـاء المساجد وعمرانها ٠٠

بين القـديم والجـديد :

وفى الجامعة السلفية ـ بنارس ـ لمسنا صورة التلاقى ـ ولا أقول التنازع ـ بين القديم والحديث فى طرائق التعليم ، فها هنا الاسـلوب التقليدى ، الذى تلقيناه عن تراث الماضى ، فاستمر هـو المسيطر الى ما قبل نهاية القرن الرابع عشر الهجرى ، وهو الذى ينتظم فيه الطلبة حول شيخهم فى نصف حلقة ، على مفارش تقيهم قسوة الارض ورطوبتها ٠٠ وبين يدى كل منهم كراسته المتصلة بالدرس ، فيقرأ لهم ويشرح ما يقرأ وعليهم أن يسجلوا النقاط الرئيسية ، ثم يأتى دور الاستيضاح والمناقشة٠

وفى فصول أخرى وجدنا الاسلوب الاخر ، الذى بدأ يفرض سلطانه على مؤسسات التعليم منذ أواخـر القرن الثالث عشر الهجرى ، حيـث يتخذ المدرس مقعده على مرتفع فى صدر الفصل ، وأمامه صـفوف الطلبة على مقاعدهم ومناضدهم ، يتلقون ويكتبون ، ويتابعون ما تحمله لهم السبورة من أصول البحث ٠٠

ولقد احتفظ كلا القسمين بمواريث الماضى ، حيث تجلل الجميـع غلالة مهيبة من السكينة والوقار ، اللذين يليقان بمجالس العلم فى ضوء الاسـلام ٠٠

ويعتبر ادخال الاسلوب الحديث على طرائق التعليم ظاهرة جديدة بالنسبة الى معظم المؤسسات التعليمية عند مسلمى الهند ، وحتى الان لم نشاهد هذه الظاهرة الا فى دار العلوم ـ ندوة العلماء ـ بلكنـاو ، وفى هذه الجامعة ، ولا بد للمتأمل فى كـلا الاسلوبين أن يتساءل : الى متى يستمر صمود القديم أمام ضغط الغزو الجديد ؟! ٠٠

وفـروع للسـلفية :

ومن السلفية الأم الى بعض فروعها فى الحى نفسه ، حيث اطلعنا على القسم الابتدائى ، واستبشرنا بمـا لاحظناه هناك من ظواهـر الخـير التى أطلت علينا من وجوه أولئك البراعم ، المتميزين بالنظافة والتهذيب ٠

والتعليم فى هذا القسم يجمع بين الذكور والاناث ، ولكن دون اختلاط ، لان لكل من الفريقين مكانه الخاص ، والظاهر ان هذا هو المسلك المألوف فى مدارس المسلمين بالهند ، فقد شاهدنا مثـل هذه الظاهرة فيما بعد لدى المدرسة الرحمانية فى بومباى ، حيث تنتظم صـفوف الصبيان فى المقدمة ، ومن ورائهم البنـات ٠ وقد أعجبنى منظر الاناث على هـذا الترتيب ، وعليهن الأزر التى يتدربن بها على استكمال الحجاب ، الذى لا ينفك مصونا وغالبا على مسلمات الهند ولله الحمد ٠٠

ومن ثم انصرفنا الى متوسطة البنات ، التى هي آخر فـــروع السلفية فى هذه المنطقة ، ولم نر منها سـوى مدخلها ، وهيكلها الخارجى وكلتا المدرستين تحتلان الجديد من البناء ، وتصوران حجم النشـــاط المشكور الذى ينهض به هؤلاء المسئولون الناجحون بفضل الله ٠٠

ومع كوننا لم نتمكن من التحدث الى كل من اساتذة هذه المؤسسة على حدة ، ليكون حكمنا صحيحا على مستوياتهم العلمية ، فان فى الذين اجتمعنا بهم منهم ما يكفى لاعطاء الصورة المتكاملة عن سائرهم ، هذا الى ان فى سمتهم الوقور تعبيرا مبينا عن فضلهم ٠٠ ولا ننسى أن أحد هؤلاء المدرسين هو (وفى أحمد) ، الذى استحق جائزة رابطة العـالم الاسلامى عن مؤلفه فى السيرة النبوية المطهرة ٠٠

في متجـر الامـين العـــام :

ورأى الشيخ أنيس أن نختم جولتنا بزيارة الامين العـام للمؤسسة الشيخ عبد الوحيد عبد الحق ، الذى سبق ان لقيناه اثناء الحفل وبعده ، فراقنا ما لمحناه في محيـــاه المشرق من بوادر الخـــير والصـــلاح ان شـــاءالله ٠٠

ودخلنا متجر الشيخ ، المتخصص بتجارة السارى ، يصدره الى مختلف الانحـاء ، وهذا المتجر أشبه بمعرض ذى حجرات عـــديدة ، يذكرنا بالمراكز التجارية الكبرى ، التى قرأنا أخبارها فى تاريخ العصور العباسية ، فالمستخدمون متوزعون أمكنتهم واختصاصاتهم على الزرابى المبثوثة في كل من هذه الحجرات ، فمنهم الكتاب وبين أيديهم السـجلات والهواتف ، ومنهم العاملون فى تنضيد الاقمشة المختارة استعدادا لشحنها٠

ولمـا هممنا بوداع الشيخ أبى الا ان يكرمنا بهدية من بضاعته على الرغم من اعتذارنا ، وأبى كذلك أن يقبل ثمنها الذى عرضناه عليـــه بالحـــاح ٠٠

وكان بين الذين استقبلونا هنا ولد للشيخ وسـيم ذو لحية جميلة وقد عرفنا به الاخـوة على أنه متخرج فى السلفية ، ويتابع دراســته في جامعة الهندوس فى بنارس ٠٠

وقد علمنا فيما بعد اخبارا هامة عن هذه الجامعـــة ، فهى اكبر الجامعات في آسية ، وتحتوى على اصناف الكليات حتى الحربية ، وتملك ثلاث طائرات هيلو كبتر ٠٠ ويقارب عدد طلابها ثمانية آلاف ، نســبة

المسلمين فيهم لا تزيد عن الخمسة في المئة ، وفي انشطتها العملية، التدريب العسكري على فنـــون القتـــال • وقد اسس هذه الجامعة تاجـر من كبار زعماء الهندوس واسمه (مـدن موهن مالويه) وهو الذي أسـبغ عليها الصفة الهندوسية ، ثم استمرت بهذا الاسم تحت سلطة الدولة ••

فـــرع ديوبنـــد :

بجوار الجامعة السلفية تقع الجامعة الاسلامية المتفرعة من دار العلوم بديو بند ، ولا يحسن بنـا أن نغفل زيارتها ونحن على مقربة منها والظاهر أنهم كانوا على علم بأمـــرنا •• فاستقبلنا هناك بعض مشايخها ومعهم عـدد من الطلبة ، وطفنا معهم على بعض الفصول ، التي كانت مشغولة بالدروس ، على الاسلوب الموروث الذي أسلفنا الاشارة اليه •• وقد وجدنا بين هؤلاء الاخوة من المدرسين شبابا ذوي حيوية ورحابـة صــدر ، وفهمنا منهم ان مناهجهم الدراسية ، وهي مقتبسة من مناهج ديو بند ، قد داخلها التعديل ، فهي أقـــرب الى العصرية من أصــلها الديو بندي • وكذلك علمنا منهم ان لمؤسستهم هذه مدرسة خاصة للبنات جـريا مع حاجة المسلمين التي بدأ تأمينها في مختلف الحواضر ، وهي جميعا فيما أعلم محافظة على السمات الاسلامية ، فلا اختــلاط الا في المرحلة الابتدائية على الوجـه الذي سبقت الاشـــارة اليه ، ولا صلة للرجال بمدارس البنـــات الا من وراء حجاب •• ومرة اخرى نؤكـــد ما لمسناه من ان الحجاب الاسلامي أقوى ما يكون ظهـورا أو استقرارا لدى مسلمات الهند •• ولله الحمد ••

دجــــال هندوسي :

وفي الطريق الى المطـــار مررنا بحانوت صغير في حي السلفية، يجلس في صــدره رجل هندي متوســـط السن وقد تجمع على بابـه عدد من النســـوة بينهن بعض المسلمات •• فوجه أحد الاخوة انتباهي الى هذا المنظر ثم جعـــل يقول : ان هذا أحد الهندوس ، وكل عمله هنا أ ن يبيع النســـاء خيوطا يطوقن بها معاصمهن ، أو وريقات يخط عليهن بعض الاشكال ، ليستعملنها في عـلاج للامراض المستعصية ، او تحقيق الأماني لا يرين سبيلا لتحقيقها الا من هذا الطريق ! •• وسرعان ما ردني هذا المشهد الى امثاله في العديد من بلاد المسلمين ويا للاسـف ، حيث لا يزال كثيرون من ورثاء الخرافات يتخذون من هذا الدجل وســـيلة للارتزاق •• ولا الشك في أن الكثـير من هذه الخزعبلات قد تسرب الى الشعوب الاسلامية من هذه البلاد • التي تعتبر أحد الروافد العالمية لهذا الضرب من المخدرات النفسية ••

ويرحم الله شيخنا السيد رشيد رضا اذ حدثنا في أحد بحوثه عن ذلك الشيخ الذي سجلت تمائمه الرقم القياسي في استخراج الشياطين ، وتزويج العوانس ، وانجاح المخفقين ، وشفاء المزمنين ٠٠ فأراد أن يستكشف أسرارها بالاطلاع على ما يكتبه فيها ، فاذا هو يقرأ هناك هذه العبارة ، التي تصور أقصى احتقاره وسخريته بهؤلاء المساكين : (رز بحليب كلما برد يطيب) ! ٠٠

قصة قبرين :

وكان علينا ان نتعجل السفر الى دهلي لنقوم من هناك بتوجيه بقية الزيارات ، وبشرنا الاخ الشيخ أنيس بأنهم استطاعوا أن يؤمنوا لنا الحجز على الطائرة المقلعة عصر اليوم ، فانطلقنا مستبشرين ، وفي الطريق الى المطار مررنا بضريحين مكلسين ، يقبعان أمام واجهة أحد البيوت المبيض مثلهما ايضا ٠٠ وتساءلت في نفسي عن السر في افرادهما في هذا المكان بعيدين عن منازل الموتى ، فاذا الشيخ عبد السلام أحد طلابنا القدامى يجيب عفويا على تساؤلي فيقول ان لهذين القبرين قصة طريفة ، ذلك ان صاحب هذا البيت كان موصوفا بالصلاح ، فلما توفاه الله دفنه ولداه في أحد القبرين ، ثم راح أحدهما يتلقى صدقات العابرين به من مختلف الطوائف ، كشأنهم بازاء أي من القبور التي تجد من يعنى برعايتها ، يقينا منهم بآثار الموتى في نطاق الاحسان والاساءة ، فما ان رأى أخوه ذلك النجاح الذي حققه الثاني حتى دبت الغيرة في قلبه ، وجعل يطالبه بحقه في ذلك المورد ٠ ولكن هذا ابى الاستجابة له ، لان القبر مقابل شقته فهو أولى بمنفعته ، فما لبث أن أقام عليه الدعوى أمام أحد قضاة الهندوس – طبعا – الذي سرعان ما حكم له بأن يقيم قبرا ثانيا بازاء الاول يتولى هو سدانته وجبايته ٠٠ وهذا ما حدث بالفعل فقد بنى القبر الثاني ، وطلى كنظيره بالبياض الجذاب ، وبذلك حسم الخلاف ، اذ جعل الاخوان يتناوبان حراسة القبرين ويتلقيان عطايا المغفلين ، ثم يأخذ كل منهما حصته من هذه التجارة الرائجة ! ٠٠

ومن خلال هذه الطرفة المؤسفة عثرت على التفسير الصحيح لوجود تلك القبور المكلسة الاخرى ، التي كنا نمر بها اثناء رحلاتنا البرية بين بعض المدن ، وقد أقيمت بعيدا عن مواطن الاحياء ٠٠ فأدركت انها لم تنصب هنا وهناك الا لاصطياد الربيبات من أيدي المساكين والمضللين ٠٠

بين المطـــار والسلفية .

من العسير أن تحصل على حجز فى طـــائرة هندية ، والاعسر أن تحظى بموعد ثابت للحجز ، ومرد ذلك فى الايام العادية الى زحــــام المسافرين العائد الى كثـــافة السكان ، ثم الى تباعد أقطار البلاد الذى لا يجزىء فيه القطـار ولا السيارة ، فكيف ونحن اليوم فى غمرة التنقلات التى يقوم بها النصارى للاحتفال بأعيادهم ، والمتفرنجون برأس السنة٠٠ ومع ذلك فقد استطاع الاخ الشيخ أنيس الرحمن ان يحصل لنـــا على حجـــز مثبت للطيران الى دهلى ، فوجدنا هـــذا توفيقا سارا فى غمرة هذا الزحـــام يحسن بنـــا أن نشـــد عليه بقوة ، لذلك أسرعنا الى المطار قبل موعد الحضور بوقت غـــير قصير ٠٠ وأبى الاخوة الفضـــلاء الا مرافقتنا الى هناك ، وكان بين هؤلاء السادة ، غير اخـــوة السلفية ، الشيخ نظـام الدين مندوب جامعـــة الفـــلاح ، ومن جامعة مظهر العلوم أمين عـــام المستشفى الحاج عبد العزيز ، والدكتور خليل الله ، واثنان من مدرسيها همـــا محمد أرشـــد ومجيب الغفار ٠٠ وقد لبثوا معنا فى المطار أكثر من الساعة ، ثم فوجئنا بأن موعد الطائرة قد تغير ، فكـــان علينا ان نودع هؤلاء الاخوة بأخلص الشـــكر ٠٠ وتعـــذر علينـــا أن نقنع أحبـــاب السلفية بالعودة بعد ان أصروا على البقاء حتى اللحظـة الاخيرة ٠٠ وكأنهم كانوا على توقع لهذا التأخير ، فاستعدوا لذلك بالطعام اللازم ، واستعانوا بأحـــد الموظفين من المسلمين الذى حصل لنا على المكان المناسب فى مطعم المطـــار ٠٠

وتلاحقت الساعات بطيئة ثقيلة حتى بلغت السابعة مساء دون ان تظهر أى بادرة على امكان السفر ، وذلك بعد انقضاء ست ســـاعات ونصف على الموعد المحدد ٠٠ فاضطررنا للعودة الى السلفية ، على ان نتصـــل من هناك بالموظف المسلم فى المطـــار نستوضحه ، فاما سفر بالطائرة ، واما عـــودة بالقطـــار الى لكناو ، ومن هناك بالنفـــاثة الى دهلى ٠٠

وهكذا قضينا ايضا ليلة الثلاثاء ١٣ـ٢ فى الجامعـــة التى أحببنا فيها كل شىء ٠٠

وصـــدق الموظف المســـلم فاتصل بالجامعة هاتفيا ليبلغنا ان ثمة رحـــلة جديدة قد هيئت بدل الملغـــاة ، وسيكون الاقلاع فى تمـــــام الواحدة بعد الظهر ، والامل كبير بأن يكون لنا فيها نصيب ان شاء الله ٠٠

واستأنفنا المسيرة الى المطار فى الوقت المناسب ٠٠ وأثناء الطريق التقينا سيارة شحن عسكرية تتقدمنا ، وعليها مجموعة من الجنود ، تلوح فى وجوههم البرونزية مظاهر الشراسة ، وعلمنا أنهم من الحرس الهندوسى المولعين بقتل المسلمين ، وبأيدى فريق منهم حدثت مجزرة مراد آباد التى ذهبت بآلاف المسلمين فى مصلى العيد كما أسلفنا ٠٠

ومرة أخرى ـ لا اذكر رقمها ـ نفاجأ بخبر تأخر الطائرة ٠٠ وتوقعنا ان يذهب الوقت على النحو الذى عانيناه فى الكذبات السابقة ٠٠ فوجدتنى أتساءل فى سرى : ليت شعرى أكان سائقو الحيوان فى ماضيات الازمان يمارسون الاخلاف فى مواعيد أسفارهم الى هذا الحد ؟ ٠٠ وما أظن ذلك ، لسبب بسيط هو ما كان لديهم من رصيد الحياء ٠٠ أما تادة الاسفار اليوم فقد فارقوا أخلاق الماضين ، ولم يفيدوا من مدنية الغرب سوى القشور ، الا من رحم الله ٠٠

ملتقى الخنافس العالميين :

وتضيق صدورنا بالانتظار المتكرر فى هذا المطار الذى لا تكاد ترى فيه منظرا يسرك ٠٠ وانى له ذلك وهو ـ كما يقول الشيخ سعيد ـ ملتقى الخنافس العالميين من مختلف الاقطار ، وفيه ينطلقون لفعل كل ما يطيب لهم حتى التحشيش ٠٠ ولم أكن قد رأيت شيئا من ذلك حتى وقع بصرى على فتاة تجلس على فخذ شاب ٠٠ ثم خرج هؤلاء الزعانف من البهو الى الاستراحة الداخلية فجعلت الفتيات يرقصن ويتقلبن على أكف أخدانهن ٠٠ وشاهدت بعضهن يقفن على رؤوسهن لدقائق طويلة ٠٠ والعجيب المؤسف ان بين هذه الخنازير صبايا فى عمر الزهر . يدفعن الى هذه المزالق باسم الحرية المظلومة ! ٠٠ ومن أشكال الوجوه والأعين يبدو أنهن من الشعوب الصفراء يابانيين أو صينيين أو كوريين ٠٠ وقد شاركوا أشباههم من الغربيين فى رفض النظام الاجتماعى ، والتملص من سائر التقاليد الموروثة ! ٠٠

فاللهم احفظنا والمسلمين أجمعين من شر الشياطين ، وجنودهم من اليهود والصليبيين والملاحدة اجمعين ٠٠٠ آمين ٠٠

واخيرا ٠٠ وبعد ساعات ثلاث جاء الفرج ، ويسر الله فأمتطينا البوينغ المتجهة الى دهلى ، وها نحن اولاء نحلق عاليا فى أمان الله ، والفضل فى ذلك بعد الله الى الموظف المسلم الوحيد فى

ذلك المطار الهيبى ، واسمه س الانصارى ، جزاه الله والاخوة الذين شاركونا عناء الانتظار ، خير ما يجزى الله المحسنين الأخيار ٠٠

وكان على الطائرة أن تهبط أولا فى مطار (كاجوراهو) حيث قضينا ثلاثين دقيقة ، ريثما غادرها السواح والهيبيون ، الذين يقصدون الى هذا البلد لمشاهدة المعبد الهندوسى الكبير ، الذى ليس فيه من المعالم الهامة سواه ٠٠

عناق الزمنين ثم دهلى :

وقبيل اطلال الطائرة على أرباض دهلى أواجه لاول مرة فى حياتى مثل هذا المنظر الرائع ، منظر عناق الزمنين الليل والنهار ، أشهده من أعالى الفضاء ، وكانهما صديقان على أهبة الفراق ، وقد ألقى كل منهما بظله على جانب من الافق الكبير ، فبقايا من النور آخذة فى التوارى ، وطليعة من الظلمة تشرع فى الانتشار ٠٠ فسبحان مقلب الليل والنهار ! ٠٠

وهبطنا بعناية الله فى مطار دهلى ، وهناك لقينا الاخ أبا سحبان وحده بانتظارنا ، وأول كلمة تلقيناها منه بعد التحية بشراه الجميلة بوصول الحقيبة التائهة ٠ وبمجرد خروجنا من نطاق المطار توجهنا الى المستودع الخاص بالخطوط البريطانية ٠٠ حيث عثرنا بها بعد جهد جهيد ، فاستللناها من بين الآلاف من الامتعة التى لا تزال تنتظر أصحابها٠

وذهب بنا أبو سحبان الى الفندق الذى سبقنا اليه ، وهو من النوع المتوسط ، نظيف مجهز بكل ما يعوز النزيل من أسباب الراحة دون اسراف ، وفيه تناولنا طعام العشاء على الطريقة الهندية الطيبة ، لحما ومرقا وأرزا شهيا ، بيد أنها مغمورة بالتوابل المبكية ، ثم خرجنا نتمشى ونتفرج ٠٠ ومررنا تحت جسر القطار بصف من الفقراء يفترشون الارصفة ، وعليهم الاغطية الرقيقة التى لا تدفع لسعة ذلك الليل القارس ٠٠

ومن طرائف مشاهداتنا هناك مخفر للشرطة بجواره حظيرة صغيرة تحتجز عددا من البقر المقدس ٠٠

وقضينا فى هذه المسيرة قرابة الساعة قفلنا بعدها الى الفندق ، لنأخذ قسطا من الراحة التى سلبتنا اياها الانتظار القلق الطويل ٠٠

بومبـــاى لا بهـــوبال :

وكان فى رأس القائمة زيارة بهوبال ، بلد العلامة الشهير صـديق خـان القنوجى ، صـاحب المؤلفات الكثيرة الماتعة ، ومركز السلطة التى سـعدت بحكم زوجه العظيمة ردحا من الزمن ٠٠ رحمهما الله ٠٠ وفى بهوبال صديقان لنـا من أفاضـل المسـلمين فى الهنـد ، همـا الشـيخ محمد عمران خـان ، الذى تولى عمادة دار العلوم فى نـدوة العلماء عدة سنوات ، ثم ولده الدكتور حـان محمد عمران ، وكان مدرسـا فى احدى الجامعات الحكومية ٠٠ وقد تعرفناهما فى النـدوة بلكناو ، وأكد الشيخ لنا دعوته لزيارة مدرسته هناك ٠٠ لذلك كان أول عمل للاخوين فى صبيحة اليوم التالى هو السعى لتثبيت الحجـز فى طائرة بهوبال ٠٠ ولكن سرعان ما عادا خائبين ، لا خيبهما الله ، اذ لم تـدع جماهـير السواح مكانا لراكب ، فلم يبق أمامنا سوى الانتظار الذى لا أمـل وراءه ٠٠ وظللنا فى المطار حتى انتهينا الى اليأس كليا ، فقررنا العدول عن زيارة ذلك البلد العزيز ، والابراق الى الشيخ بعذرنا الذى لن يرضيه بله أن يسره ٠٠ وهناك حولنا الحجز الى طائرة بومباى ، حيث نتخـذ منها مركزا للانطلاق الى بقية الامكنة المقررة فى كجرات وأرانك آباد ، سواء بالطائرة أو بالقطار لقربهما من بومباى ، بخلاف بهوبال ، التـى بعدت شقتها حتى ليتعذر الوصول اليها الا بعد أيام ٠٠

وصدق الوعـد هذه المرة ولله الحمـد ، فودعنا الاخ الحبيب الشيخ سعيدا الاعظمى ، الذى حانت عـودته الى لكناو ، واصلت مـع أبى سحبان سفرنا الى بومباى ، حيث هبطنا مطارهـا الكبير فى تمـام الساعة الحادية عشرة ، ومن ثم حملتنا سيارة أجـرة الى فنـدق (بومباى بالاس) الذى إختاره لنا السائق ، على أساس أنه من الفنادق التى ألف أن يحمل اليها الوافدين من العـرب ٠٠

وكان الطريق المزدوج ما بين المطـار والفندق طويلا ، ومنظما ، وقد اقيمت فى وسطه النصب الفنية ، تعرض فى أعلاها رسوم الازاهير والمشاهد التى تجمع بين البساطة والبراعة ٠٠ ونمر اثناءه ببعض الفنادق التى بلغت الذروة فى الفخامة والتنسيق ٠٠ على أن الطريق لم يخـل كذلك من بعض المشاهد المضادة ، وهى بارزة فى عـدد غير قليل من الاكـواخ الحقيرة المهينة تنتشر هنا وهناك ، وأخص بالذكر منها تلك التى نصبت على الرصيف المجاور لاحدى الشركات ، وكل منها عبارة عن ستار بـال يقارب طوله المترين فى عرض مثله ، وقد ثبت على الجدار

ببعض الاربطة ، ومــــد طرفه الآخر الى حــافة الرصيف ، وأرخى على جانبيه ستاران آخران يدخل من احدهما اليه ·· ولقد رأيت احـــــدى النســـاء تغسل الامتعة وأخرى تعالج قدرا على النار بازاء أحد هذه الاكــواخ ، فأيقنت أنها منازل أسر لا أفراد ! ··

ولا شك ان فى وجــود هذه الجحور التعيسة بجوار احدى الشركات التجارية ، لصورة مميزة للتناقض العجيب الماثل فى هذا المجتمع الهندى الغــــريب ··

البدعيون فى كل مكـــان :

كان من حق دهلى على ان أعرض لشأنها قبل الانتقال الى بومباى ولكن لدهلى معنا أكثر من حديث ، لان زيارتنا لها تكررت اربع مرات ٠٠ آخـرها يوم عودتنا من (النـــدوة العالمية للادب الاسلامى) التى عقدت فى نـــدوة العلماء بلكناو فى أواسط جمادى الآخر ٠٠ وكان أهم هـذه الزورات الاربع تلك التى أتاحت لنا ان نرى من معالمها الاثرية والمتصلة بتاريخ الاسلام فى الهند ، ما لم يتيسر لنا من قبل ٠٠ ولهذا قررت أن أرجىء حديثى عنها الى موضعه المفضل ، عند الكلام على تلك النـــدوة المباركـــة ٠٠

أما الآن فسأتم حـــديثى عن هذه الطائفة الناشزة فى صـــفوف الامـة الاســلامية ، والتى سبقت الاشـارة اليهــا عند الكـــلام على مؤلف العلامة الشيخ محمد منظور النعمانى (دعايات مكثفة ٠٠٠) أنهم حمـــاة البـــدع والخرافات الذين نصطدم بهم أنى اتجهنا من بـــلاد الاســـلام ، وان اختلفت القابهم ونعوتهم بين مكان وآخـر ٠ وقـــد عرفوا فى شـــبه القـارة الهندية باسم البريلويين نســـبة الى (بريلى) الواقعة فى غـــرب الولاية الشمالية - أوترا براديش - واليها ينسب مؤسس هذه النحـــلة (محمد رضـــا) البريلوى ٠٠ وبكاد لا يختلف عن طواغيت البـــدع والخـــرافات الاخرين ، الذين يسيطـــرون على جماهير المخرفين فى البلاد الاسلامية الاخرى ، اللهم الا فى نطاق المصادر التى يستمد منها كل منهم ، فاذا كان جمهور الباطنيين يرجعون فى نحلهم الى اليهودية والمجوســـية ، واذا كان غـــلاة المتصـــوفة ، فى كل مكان من ديـــار الاســلام ، يلقحون مذاهبهم برواسب الوثنيـات المحليـــة والفسلسفات الاغريقية ، مع اشتراك الجميع فى المؤثرات الهندية ، فـــان البريلوية هذه تكـــاد تجمع فى كيانهـــا كل هذه الروافد ، التى تجعـــل منها عـــدوة لكل اتجـــاه ملتزم لحقائق الاســـلام كما أنزله الله ٠٠

من قصص البريلويين :

والى القـــارىء نماذج من ضلالات هذه النحـــلة

يوم الخميس من كل اســـبوع هو عند البريلويين موعد اجتمـــاع الارواح ، ففيه تحتشد مهارجهم الصاخبة حول القبور التى يؤثرونهـــا ، فلا يزالون يغنون ويشربون ويطعمون حتى يأخذهم الرهق فينفضـــون ٠٠ والمستفيد الوحيد من هذه الأحفال هو سادن القبر الذى يهىء لهم الجو المناسب ليتلقى منهم الهدايا المناسبة ٠٠

والخميس الاول من رجب الفرد هـــو موعد الاجتماع الاكبر لهاتيك الارواح ، لذلك تتهافت حشودهم من كل حدب وصــوب على ساحة القبر الاثير ، فى ذلك اليوم من كل عـــام ، فيكون الاختلاط على أتمـــه بين الجنسين ، حتى ليتعرض الهواء للتلوث ..

ولشهر المحــــرم عند هذه الطائفة المركز الممتاز بالنسبة لايام السنة كلها ففيه تتبارى أحياء البريلويين فى الاحتفال بمواسمه احياء لذكرى شـــهيد كربـــلاء رضى الله عنه . وتمتد هذه المهرجانات على مـــدى الشهر كله . وفى الموعد المقرر يخـــرج كل حى بموكبـــه . يتقدمه نعش فارغ يرمـــــز الى الشــــهيد ، حتى اذا انتهوا الى القبر المعـــد لدفنه ، فصلوا الرأس الرمزى وواروه التراب فى غمرة من الضجيج المفتعـــل ويطلقون على ذلك الموضع اسم (كـــربلاء) ..

ومن هنـــا نرى ان البريلويين اكثر اهتماما بعاشــــوراء من سائر طوائف الشـــيعة ، فبينما يقتصر احتفال هؤلاء على جزء محدود مـــن المحـــــرم فى حسينياتهم ، تجد هؤلاء يواصلون أحفالهم من مطلع الشهر حتى نهايته ..

ومن طـــرائف هذا التناقض بين الفريقين أن الاختلاف قـــد دب خلالهما ذات يوم لأمـــر يتعلق بهذه الاحتفالات ، حتى رفعوا قضيتهم الى القضــــاء ، الذى قضى للبرلويين على الشـــيعة ، وقـــد استند فى حكمه ذلك الى كـــون البرلويين أشـــــد اهتماما بهذه المناسبة ! ..

وتبلغ هذه الاحتفالات ذورتها فى العاشر من المحـــــرم والعشرين من صـــفر التالى .. وتسجل أكبر وقائعها فى مدينة بنارس ، حاضـــــرة الوثنيــــة وأشهر مواطنها فى الهنـــد ..

نمـــــاذج من ترهـــاتهم :

وقـــد أسلفت الاشـــارة الى كراهية البريلويين لأهل الحق ولسائر المخالفين لهم ، حتى بـــات معروفا عنهم أنهم يغسلون مساجدهم اذا دخلها احد المخالفين لاهوائهم . ولقـــد كان بين العشرة الذين ابتعثهم ذو الفقار بهوتو ــ أيام حكمه ــ الى الجامعة الاســـلامية لتدريبهم على التدريس ، احـــد هؤلاء المضللين ، فكان لا يدخل المسجد النبوى فى المدينة الا بعد صلاة الجماعة ، لانه لا يستجيز الصلاة خلف امام من غيرهم ..

وحدثنى أحد الابناء ، من الذين انتدبتهم الجامعة الاسلامية للتدريس فى الهند ، أن حوارا جرى بينه وبين بعض مشايخهم . فكان مما احتج به هذا البريلوى لمذهبه فى عبادة القبور استشهاده بالآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ـ ٦٠ـ١٣) ، وقوله فى تفسيرها : لقد نفيتم أثر الموتى من الاولياء فى حياة الناس وبذلك خرجتم من الايمان الى الكفر ! .. ولو أوتى هذا المسكين مسكة من الفهم الصحيح لعلم أن الله عز اسمه يخبر بهذا البيان الآلهى عن منكرى البعث بأنهم يائسون من العودة الى الحياة بعد الموت .. فلا أمل لهم بلقاء ربهم ، وبالتالى لا يتصورون بعثا للخلق ولا نشورا ..

ومثل هذا تفسيره لقوله تعالى (قل انما أنا بشر) اذ يزعم أن (ما) نافية فيكون المعنى عنده نفى البشرية عن رسول الله ! ..

وهى نفسها خطة المعاندين للحق من غلاة المتصوفة والباطنية ، الذين ألغوا عمل العقل ، وانساقوا خلف المضللين ، الذين رسخوا فى قلوبهم أن الدين حقيقة وشريعة ، فالحقيقة وقف عليهم وحدهم ، أما الشريعة فهى من حظوظ العوام فقط ! ..

وما أحكم قول أبى العلاء فى المخدوعين بأمثال هؤلاء

أفيقوا أفيقوا يا غواة فانما ... دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بهاجمع الحطامفأدركوا ... وبادوا وماتت سنة اللؤماء

وهؤلاء السيك :

وقديما قيل (شبيه الشىء منجذب اليه) والحديث عن البريلويين متصل بكل ذى بدعة من أهل النحل ، وأقربهم الى مرئياتى فى الهند أولئك الذين يعرفون باسم السيك ، واكثر ما رايت هؤلاء فى دهلى وبومباى ، ويمتازون على سائر طوائف الهند بأجسامهم السامقة المتينة ، وبسماتهم البارزة الوسامة ، وتلحظ القسوة والنشاط فى كل تحركاتهم .. ومن التقاليد التى لا تفارقهم اعفاؤهم شعورهم مطلقة ، فأما رؤوسهم فيعالجون شعرها بنوع من العمائم الخاصةلا تلتزم لونا معينا ، يجمعونه فى داخلها ، ويتأنقون فى ادارتها وصنعها ، وهى تختلف عن عمائم المسلمين التى تتخذ شكل التكوير ، بكونها مستطيلة ، وينتهى طرفاها الامامى والخلفى ببعض الارتفاع .. ولهم فى معالجة لحاهم أسلوب خاص ، اذ يلبدونها ، ويشدونها الى رؤوسهم غالبا بقطعة من النسيج الشفاف تحول دون انطلاقها ..

حتى أطفالهم ينشئونهم على هـــذا التقليـــد ، فهم كشيرخهم يجمعون شعورهم تحت قلنسوة مصغرة من النـــوع نفسه ، فلا يلمح الناظر اليهم اثرا من ذلك الشعر ..

وربما نظرت الى الأشيب فيهم ، وقد تقدمت به السن ، واسترسلت لحيته دون ضابط ، فتحسبه من شيــوخ المسلمين .. وهو من أعـرقهم فى الســيكية ..

على أننى لاحظت تطورا قد بدأ يتغلغل الى شبابهم ، فيخفف مـن غلوائهم فى هذا الجانب من عاداتهم العنيفة .. اذ يخرقونها فيحلقـون لحـاهم ، الا أنهم يظلون متشبثين بجمتهم المضغوطة تحت العمــة التقليدية ..

وكثيرا ما ترى رجـالا منهم على اتم ما يكون الســيكى من مظاهره التقليدية ، لحيــة وعمــة وحسن سمت ، والى جانبه زوجته (المودرن) على أحــدث طــرز الغــرب ! .. وليسوا قليلين أولئك الشباب الذين يجمعون بين الاشكال التقليدية هذه ، وبين ظواهر الميوعة ، التى تترجم عن نفسها بالاســاور حول المعاصم ، والقلائد تتدلى على النحور .. وهم يأكلون اللحم من الخنزير والبقــر وغيرهما ، ولا يذبحون الحيوان بـل يخنقونه .. ومهما يكن فى تصرفهم هذا من سوء فهو أقل قســوة من عمل نصــارى الفلبين ، الذين وصفوا لى بأنهم يعالجون ضحيتهـم من الخنــازير بادخال عصـا فى مؤخرها حتى تخرج من فمها ، ولا يزالون بها كذلك حتى تخمد انفاسها ! ..

ومعلوم ان السيك طائفة منشقة عن الهندوسية ، بدأ تاليفها أيام حكم المغول ، على يد رجل اسمه (جرونك) كان يحـاول التقريب بـين الاديان ، كما صنع بعده طواغيت البهائية ، الذين اخترخوا لاتباعهم نحلة يحاولون أن يحولوا اليها سائر الملل ..

وقد أخذ (جرونانك) هذا شيئا من كل دين واجهه فى محيطــه ، وقدم هذه الخليطة للمخدوعين به على أنها سفينة الخلاص . ومما أخـذه عن الاسلام مبدأ التوحيد .. فالسيكى لا يعرف تعـدد الآلهة ، وقد أقـر برســالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويروى عنه أنه حج الى بيت الله ، وعاد الى الهند يتابع محاولته فى التقريب بين اتباع الاديان ، بل يقـال انه عاد ليحاول نقل اتباعه الى الاسلام الحق ، ولكن الاجل أدركه قبـل تحقيق امنيته ..

بيــد أن هذه الطائفة ، التى بدات نشأتها على اســـاس دينى يستهدف التآليف بين الناس ، سرعان ما انقلبت بعد مؤسسها الى منظمة سياسية عسكرية ، لقى منها المسلمون الامرين ، وفى عهــد السلطان الصالح أورنك زيب كان لها دورها الكبير فى مقاتلة المسلمين ، خـــلال حروب استمرت ربع قرن ٠٠ ثم استأنفت عداءها للمسلمين عقيب قيــام باكستان ، حيث شاركت فى معظم المذابح التى تعرض لها مهاجروهم ٠٠

وقد قيل لى ان نظرة هذه الطائفة الى المسلمين قد تغيرت مؤخـــرا ، فهم اليوم نادمون على ما اقترفوا بحقهم من ضروب العدوان ٠٠

وأخـــيرا لعل القــارىء يحب أن يقف على بعض التعليل لخصائص هؤلاء القـــوم ، التى بها يمتازون على ســائر طوائف الهنــد ، من حيث امتداد القامة ، ومتانة البنيــــة ، ووفور القــوة والشجاعة والوسامة ٠٠ والذى تحصل لدى من ذلك أن مــرد هذا كـــله الى أصولهم المتحــدرة من شـــعوب البنجاب المعروفين ، مــع جيرانهم من الباتــان ، بكـــل هــذه الصــفات ٠٠

وربك يخلق ما يشاء ويختـــار ٠٠

قناعـــة يقابلهـــا جشـــع :

حتى القطـار فى بومباى يتعـذر عليك تأمين ســفرك بـه الا اذا بادرت الى طلب الحجز قبل أيام ، ومع ذلك فقد يسـر الله لنا الحصول على تذكرتى مقعدين من الدرجـــة الاولى بمساعدة الشيخ محمد عمر ، مدير المدرسة الرحمانية وصديق أبى سحبان ، وبات علينا أن نتهيأ للرحلة الى كجـرات لزيارة بعض المؤسسات التعليمية التى تنتظرنا فى ضواحى (سورت) ·· وأبى هـذا الصديق الا أن ننقل أمتعتنا الى مضــافة مدرسته ، لتعذر بقائها فى الفندق · وتناولنا أول غداء فى مطعم مجاور للمدرسة يعج بالوردين ، وصاحبه مسلم من الدارسين فى معاهد الندوة، ويقال ان سائر المطاعم فى بومباى هى فى أيدى المسلمين ، وكذلك معظم الفنـــادق ·

وقد رتبت لنا مائدة حوت ستة أصناف من اللحم والبيض وغيرهما، الى جانب التوابل التى لا مندوحـة عنها فى كل مائدة ·· وتناولنا طعامنا بشهية ، وزاد لنا الخبز أكثر من مـرة ·· ومن حق هذا الخـبز أن أسجل له امتيازه ، فهو من خالص البر ، يصنع فى المنزل وفى المطعم ، ويشوى فى مقلاة صغيرة وقد يمزج ببعض السمن أو الزيوت النباتية ، مما لم نجد مثله فى أى بـلد زرناه خارج الهند · ومع كل هذه الاصناف لم يبلغ ما دفعناه ثمنا لها عشرين روبية ، أى ثمانية أريلة ··

وثمـة مطعم آخـر يملكه أحد رجال التبليغ فى هذا البلد ، ولا يكاد يجد الوافد عليه مكانا الا بعد الانتظار ، لبثنا نتردد عليـه طوال أيامنـا فى بومباى لاعتداله فى استعمال التوابل ، ولا أذكر أنه تقاضانا ثمـن الوجبـة أكثر من زميله الآخـر ·· ولكن هذا الرخص يغيب تماما فى الفنادق والمطارات والاستراحات السياحية ·· ولأضرب لذلك مثلا صغيرا، هو أن أفطارا بسيطا تناولناه فى الفندق قد أدينا ثمنه أضـــعاف ثمن الغـــداء فى هذين المطعمين ، على حين لا تبلغ محتوياته ربع المقـــادير المقدمة فيهما ·· وهو وضع عـام يشمل سـائر بلاد العالم ، ولا مسوغ لـه الا الجشـع الذى لا يروى ··

ظهـر الفســاد فى البر والبحـر :

ولعل مما يتصل بهذا الجانب من طبائع الناس الحـــادث الذى فوجئت به وانا ارتب أمتعتى استعدادا للسفر الى كجرات ، فقـــد رأيت أن أشـد حقيبتى العائدة من الضـــياع برباط يحفظها من التبعثر ، ولم

أجد لذلك سوى حزام الحقيبة الاخرى التى اشتريت لى من لكناو ، وهو مصنوع من جلد الجاموس ، فلففته حولها ، ولكنى لم أكد أضغط عليه قليلا حتى انقطع ، ولما فتشت عن السبب تبين لى انه الغش لان الحزام مؤلف من عدة قطع موصلة ، وقد لصقت بالغراء ، وكأنما صنعت كذلك لمجرد الزينة فهى لا تحتمل شدا ولا ضغطا ! ٠٠

ويذكرنى هذا الحزام المغشوش بأخ له فى المواطنة وفى البواعث ، وذلك أن صديقين من موظفى الجامعة الاسلامية كلفا أخا لهما مسافرا الى الهند أن يأتيهما بمقدار من العود الجيد ، ولما عاد قدم اليهما ما أوصياه عليه ، وهو يصفه بأنه لقطة نادرة ، حصل عليها من بائع فى بومباى كان ضنينا بها على غيره ، وانما آثره بها حبا بالمدينة المنورة ، التى ينتسب اليها ٠٠ ولكن اللقطة النادرة سرعان ما تكشفت عن قطعة لا تكاد تختلف عن أى قطعة من الحطب العادى ٠٠

فسبحان الله القائل فى محكم كتابه المجيد (ظهر الفساد فى البر والبحر ٠٠)

واستجاب لكلمة الحق :

ولاحظت أثناء خروجى من مطعم ذلك المبلغ أن فوق راسه لوح زينة كتب عليه بالحرف العربى (يا محمد) بازاء لوح آخر كتب عليه (يا الله) فوجدت لزاما على أن أنبهه الى هذا الامر عسى أن ينفعه الله فيراجعه ، وقد وفق سبحانه فلم أغادر المطعم حتى أقنعت الرجل بازالة حرف الاستغاثة من جانب اسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو جد راض عن ملاحظتى ولله الحمد ٠ وما أكثر ما نشاهد مثل ذلك حتى فى طيبة المباركة ، حيث رأيت ذات يوم شاحنة كتب على مؤخرتها (مدد يا على) ٠

ولقد تساءلت فى نفسى : لو كان هذا الرجل من أشياع قبور القطم والحسين والسيدة زينب والرفاعى وابن عربى والاربعين والمغربى و ٠٠ أكان مستجيبا لدعوتى بمثل هذه السهولة ! ٠٠ هيهات ٠٠ الا أن يكون من السذج الذين يقبلون على هذه الحماقات دون انتباه ولا تعمد ، فسرعان ما يتحرر من أوزارها عندما يواجه الداعى الذى يحسن مخاطبة قلبه بالحكمة والموعظة الحسنة ٠ ولكن المصيبة فى أولئك الذين عجنوا بهذه الاوزار ، وقلوا بها قليا ، فهى سارية فى دمائهم لا تقبل الفصل ٠٠ وكم رأينا من هؤلاء من يدخل المسجد النبوى وهو يصيح

متحديا أهل التوحيد (مدد يا رسول الله مدد ‥) ولو رحت نذكره بقول ربه (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا - ٧٢ - ١٨) لأصم أذنيه ، ولقلب استهزاء بك شفتيه ! ‥

الساري الشيطاني :

والمتجول في حواضر الهند لا بد ان تصدمه لاول وهلة ظاهرة الساري ، الذي لم يألف رؤيته من قبل ‥ وأذكر هنا أننا كنا في الطريق ، من مطار بنارس الى الجامعة السلفية ، عندما سمعت الشيخ أنيس الرحمن يترنم بهذه الكلمات :

لا شك أن الساري لبوس أهل النار
من كل غر جاري على خطى الفجار
فهو كاس عاري مسربل بالعار

فاذا هي تخض ذاكرتي فأتصور أنها ليست غريبة عن سمعي على الاقل ، ولكن ‥ اين ‥ ومتى ‥ ومن قائلها ؟ ‥ ولم أهتد لشيء من هذا حتى اكد لي الشيخ أنيس أنها من كلام لي أرسلته عفويا قبل سنتين في مدراس ، أثناء رحلتنا الى الفلبين ، فحفظها رفيقي د ٠ عبد الرحيم ونسيتها أنا ! ‥ وكانت أحق بأن تذهب مع الريح ، كما ذهب الكثير غيرها ، لولا أن حفظها ذلك الزميل في مدراس ونقلها الى بنارس ‥ ومن يدري فقد تكون اليوم من محفوظات الكثيرين غير الاخ انيس في الهند وغيرها ‥

وليسمح لي القارىء أن أعرض لخياله صورة موجزة لذلك الساري الشيطاني ، الذي لا تفسير لانتشاره في هذه الديار الا عن طريق النظرة الوثنية الى المرأة ، على اعتبارها محلا للمتعة والتناسل ، كما تعرضها المعابد الهندية نفسها ‥

انه نسيج من الحرير الاصيل ترتديه الوثنية بطريقة خاصة فوق ثيابها التحتية ، التي تتألف من قسمين ينتهي أسفل أعلاهما فوق السرة ، ويبدأ الأعلى ثانيهما من تحتها ، ويبقى ما بينهما عاريا ، ليس بينه وبين السواتين الا ما يقارب الشبر ‥

وهذا الزي من أهم الالبسة وأفخمها لديهم ، ومع صعوبة انضباطه على الجسم ، بما يقتضيه من توزيع على اجزائه ، حتى يكون كالوشاح

الذى شاع استعماله فى الاندلس قبيل سقوطها ، مع ذلك فهو الطراز القومى الذى تستوى فى ارتدائه الصبية الغانية والعجوز الفانية ٠٠ وحتى المضيفة فى الطائرة ، التى هى أحوج ما تكون الى الثوب الرشيق الذى لا يعوق حركتها ، تراها ملفوفة به ذاهبة آيبة ، وكأنه مثبت على جسدها بمشابك أو بغراء ٠٠

والمؤسف أن يتسرب هذا اللباس الابليسى الى بعض المسلمات ، فلا يكتفين بارتدائه فى البيوت ، بل يخرجن به الى الاسواق والمحافل العامة ٠٠ وقد شاهدت فى الفندق الذى نزلت فيه مع الاخ الدكتور ف ٠ عبد الرحيم من مدراس ، كوكبة من هؤلاء النسوة وقد قدمن لحضور حفلة زواج هناك وعليهن هذا السارى ٠٠ بل لقد شهدت بعض هذا فى المدينة المنورة ، اذ قدمت مع قرينتى الى بيت مهندس هندى مسلم كان على وشك سفر ، وهو يريد بيع أثاثه ، فاستقبلتنا مع زوجته ، وجعلا يرياننا معروضاتهما ٠٠ والغريب أن هذه المرأة أثناء ئذ كانت مستورة الرأس ، مكشوفة البطن على طريقة الوثنيات تماما ٠٠

بين الأصالة والتقليد :

على أن من الانصاف للمرأة المسلمة فى الهند أن نؤكد ما سبق ذكره من أنها لا تزال ـ كأختها الماليزية ـ أشد نساء المسلمين حفاظا على الحجاب ٠٠ وقد ثبت لى هذا من خلال تجوالى فى العديد من حواضر هذه القارة ٠٠ فانت حيثما اتجهت من أوساط المسلمين هناك رأيت الحجاب مع النقاب كأتم ما يكون ٠٠ أضف الى ذلك انها قليلة الخروج من المنزل الا لضرورة ٠٠ وقد اكد لى الاخوة فى كل من تلك الحواضر أن السواد الاعظم من المسلمات هن المحافظات على ذلك الامتياز ، وقليل منهن اللواتى جرفهن تيار التقليد ٠٠ ولا جرم أن طابع المحافظة السائد فى المجتمعات الاسلامية بالهند هو الذى يفرض اتجاهه العام فى هذا المضمار ٠٠ وفى ظنى أن هذا الطابع سيستمر طويلا فى هذه البلاد ، ما دام هناك شعور بالذاتية الاسلامية وما دام التعليم الاسلامى والنشاط الثقافى الاسلامى موفورين للمسلمين على النحو الذى لمسناه ٠٠

ويبقى أن نذكر القارىء بما سبقت الاشارة اليه من التفاوت الكبير بين تماسك المرأة المسلمة فى الهند أمام الاغراآت ، وضعف

اختهـا في أندونيسية ، حيث تمكن الغـزو الغـربي من ضعضعة الحجاب الاسلامي ، الى حد اختفائه في كل الحواضر التى زرناها، الا النزر اليسير · حتى أصبح السفور والتكشف هما الغالبين ، بل يكادان أن يكونا هما الوضع الاصيل ، والحجاب ـ دون نقاب طبعا ـ هـو الغـريب الدخيـل ! ··

ولعلى أوضحت رأيي بهذا التفاوت في ما سبق من حلقات ، فان لاختلاف ظروف البيئتين اثره العميق في ذلك ، فشعور المسلمين بقلتهم في الهنـد يدفعهم الى الاستمساك بمقوماتهم فـلا يذوبون في ما حولهم من الاجناس، يقابل ذلك أن اعتزاز مسلمي أندونيسية بكونهم العنصر الغالب والسائد يقودهم الى التهـاون في كثير من الشئون المتصـلة بعوامل التميز الاسـلامي ·· هذا فضـلا عن امتياز مسلمي الهند بسبقهم للكثير من أقطـار العـالم الاسـلامي في نطـاق العلوم الاسلامية والعربية على مـر القرون ، مما أدى الى تعميق عناصر الشخصية المسلمة في سـائر مسـالك الحياة ، وجعـل الخروج عن الصـورة الاسـلامية ضربا من المغامرة لا يقـدم عليها الا من انسلخ من الولاء لدينـه ومجتمعـه كما فعل عبد الكريم تشاكلا ، الذى كان وزير التعليم في حكمة الهند ومن كبار المحامين والقضـاة ، اذ أوصى باحـراق جثته فأحـرقت وفق التقاليد الهندوسية ، وكما صـنع معاصره التركي عصمة اينونو ، الذى أوصى بأن لا يصلى على جثمانه ·· فذهب ولسان الحال يردد فيهما :

مازاد (حنون) في الاسلام خردلة   ولا النصارى لهم شغل بحنون

من روائـــع بومبـــاى :

الاربعاء ٢٤ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

لم يزل أمامنا جـزء غير قليل من النهار قبـل سـفرنا الى ولاية كجرات ، وقد رأى الاخـوان أبو سحبان ومحمد عمر ، أن نفيـد منـه فى الاطلاع على معالم بومباى ، احدى عواصم الدنيـــا ، وذات الملايين الثمانيـة والنصـف من السـكان ٠٠ وهكذا كانت أمسـية رائعـــة ، لو غادرنا هذا البلد بدونها لمـــا علمنا عنه أكثر من الشارع الممتد مابين المدرسـة الرحمانية والمطعم الذى استرحنا اليــه ٠٠

ومما يسر لنا تلك المتعـــة لقاؤنا ذلك السـائق الفاضــــــل من جماعة التبليغ ، الذى أغنانا عن العـــديد من الادلاء ، والكثـــير من المصـــورات ٠٠

لقد مــر بنا الاخ اسماعيل هذا على الروائــع من أسواق وساحات بومباى ، ولم يــدع منها موضعا يروق النظـر ويثـير الفكر ، الا وقف أمامـــه ينفحنا بمعلوماته الدقيقة عنه ٠٠

وبدأت مسيرتنا أصـــيل اليوم ، فكان أول المعالم التى لفت اليهـــا انتباهنا تلك الســـوق الكبيرة ، التى يقول بأنها مزودة بأنواع المكيفـات المناسبة لفصـــول السنة ٠٠ ومن هنا شرعنا نواجه العمائر الشواهق ، التى ينطح بعضها الفضـــاء بأكثر من خمسة وعشرين دورا ٠٠

ومررنا أثنـــاء ذلك باثنين من أضخم الابنية فى شارع (تاردو) قال اسماعيل انهما ملك لشركة روسية تقيم فيهمـــا مصانع ومعـــارض لاصناف الادوية ٠٠ وفى الشارع نفسه تشـمخ القصـــور الفخمة الضخمة التى يسكنها كبـــار أصحاب الاعمال والثروات ، ويطلق عليهـــا اسم (هــيرابندا) ونمــر هناك بمعبد هندوسى كبير ترف عليه وحواليه أسراب الحمـــام ، حتى اذا أخذنا سبيلنا باتجـــاه القمة المدهشة جعلنا نطـل على بحـــر العـــرب ، وقد انتشرت على شـاطئه الحمـامات العـــامة تلفها الاشجار الباسقة ، وتشرئب نحوها العمائر القديمـة ذات التخطيط الهندسى البـــارع ٠٠

وفى الاعالى من جبـل (مونت بليز ندور) وعلى سـفوحه المشرفة على معظم المدينة العالمية ، تتجلى روائــع العمل الهندسى الجبـــار ،

حيث تنتصب النواطح التى لا ترى وجه فقير الا اذا كان قاصدا الاستجداء ، ولعل أعجب مافى هذه الشوامخ تنوع أشكالها حتى لا تقع العين على اثنين من طراز واحد ..

- حديقة فيروز شاه :

وانتهينا أخيرا الى سطح الهضبة الذى يحمل أروع ما شهدت وما قرأت وسمعت من حدائق العالم . انها حديقة (فيروز شاه مهتا) الساحرة ، قد نسقت أروع تنسيق ، وهى تقوم فوق واحد من الخزانات الخمسة التى تسقى بومباى من مياه بحر العرب بعد مرورها على معامل التحلية .. وفى وسطها رفع لوح رخامى نقشت عليه تفصيلات الطريق الموصل الى تلك المعامل ، وبيان بطاقة الخزان الذى يستوعب ثلاثين مليون غالون !

من على هذه الهضبة العبقرية تطل على معظم جوانب بومباى ، وبخاصة من ناحية بحر العرب ، حيث ينحدر البصر خلال أنواع الشجر والخضار والازاهير المنسقة على أجمل الاوضاع ..

وتتداعى فى خيالى هذا مطلات بلودان ومضايا وصلنفه وكسب وأبى سمرة فى سورية ولبنان ، وكذلك مناظر ترمال ، وروائع البوسفور فى تركية ، وحتى مرتفعات شلوتو فى أندونيسية .. فكأنها كلها تتجمع هنا تحت بصرى ، فلا أدرى على أيها أقف ، والى أيها أتلفت ..

فى جانب من هذه الحديقة الساحرة ، حيث تنتشر القرود البشرية ، فى أوضاعها المخزية ، تواجهك تماثيل الحيوانات مصنوعة من النباتات التمددية ، فهنا شجرة وجه نموها بيد المشذب المفن حتى استقرت على صورة أسد ، وهناك أخرى تمثل لك أسطورة القرد هانومان وهو يحمل على رأسه جبال الهملايا – حسب القصة التى سردتها من قبل – ..

وفى طرف من هذه الهضبة العجيبة تقع مقبرة للمجوس عبدة النار ، الذين لا يدفنون موتاهم ولا يحرقونهم ، بل يدعونهم لسباع الطير تنهش لحومهم ..

ويصف الاخ اسماعيل تلك المقبرة بأنها بئر عميقة ، ينزلق منها مجرى متصل ببحر العرب ، وعلى سطحها مشبك حديدى تطرح فوقه



ساحة النافورة فى بومباى

جثث المجوس ، وتوضع بجوارها أواني الاطعمة المغرية للطير ، فاذا رآها الطير المعود انقض عليها يقضمها حتى لا يبقى منها سوى العظام ، التي تتساقط الى البئر ، التي تدفعها بدورها وبمساعدة الماء الى البحر .. وهكذا يريحون الارض من آثارهم ليبتلى بها حيوان اليم ..

حــذاء الحـــذاء :

وجعلنا تتنقل على جوانب الهضـــبة نستكمل مشـــاهدة معالم البلد الكبير .. فنشرف من الشرق على ذلك الخليج الذي تجرى فيه الجوارى على اختلافها ، وتقوم على عدوته الاخرى شوامخ الابنية ذاهبة في الاعالى وبينها وبيننا جماهير المتنزهين على الشاطىء ، وقد بدأ الليل ينشر رواقه، وتلتمع من خلاله ملايين المصابيح ، فتهب للمنظر صورا أخاذة تعجــز الواصـــف ..

ولا يسع المستوعب لهذه المشاهد أن يغفل الكلام عن دقة التنظيم في اقســام هذه الحدائق ، فلقد أعطيت من العناية والروعة ما يؤكد أن في الهند أبــرع المهندسين والمجملين ـ الديكور ـ .. حتى الحـــذاء لم يعـدم لـه مكانا في تلك التحف ، ففي جـانب منها بناء صـــور على شكل سوقاء ـ حـــذاء ذى ســاق ـ وقد رسمت في مقدمته أشـــكال الخيوط الرابطة لطرفي الســـاق ، وارتفع الى ما يقارب ستة أمتـــار ، وجعلت لـه مداخل للمتفرجين يصعدون منها الى الاعلى .. ومن هناك يطلون على الجمهور من شرفة خاصة ..

وقـد قيـل لنـا أن هذه الهضـبة ترتفع عن بحر العــرب ألف ذراع، وأن يكن الناظر لا يقدر لها أكثر من ثلاثمئة .. ووفقنا الى شراء مجموعة من الرسوم الفوتوغرافية تمثل أروع ما شاهدنا هناك ، عشرين بطـــاقة بسبع روبيات .. وما أرخصها ! ..

مسرحيـــة قـــردية :

وكنـا في الطريق الى السيارة عندما لمحت ذلك اللعاب الهندى مع قرديه ، وقد شرع في عرض تمثيليتهما على أحـد الارصفة .. فـرأيت أن أشهد عرضه لاقف على مقدار دربته الفنية ، وما وراءها من مـــواهب وتصورات .. والحق انها تمثيلية متقنـــة اثبت فيها ذلك القراد براعته في ترويض الحيوان ، كما أثبت القردان مدى تفـــوقهما في التلقى والمحاكاة ..

وخلاصة التمثيلية أن القرد قد رغب فى استهواء الانثى لتكون له زوجة ، فجعل يتأنق لها على منظور المرآة ، ويحتال بعرض نفسه بالشكل الذى يستهوى مثلها ، فتقابله تلك بنفرة الانثى التى تريد أن تضاعف من رغبته فيها ٠٠ ويتوسط القرد صاحبه ليقنعها به فلا يرضى، فتنشب بينه وبين القراد معركة بالعصى ، تنتهى بقبول هذا القيام بدور الوسيط ٠ ويدعم هذا المسعى بهدية يقدمها الى الخطيبة ، وهى عبارة عن ثوب من السارى الجميل ، وبذلك يتم المشروع ، وتنتهى التمثيلية بحفلة راقصة يقوم بها العروسان القردان

وبقليل من التأمل يدرك الناظر والقارىء أن قصة هذا الزواج القردى انما هى فى الواقع قصة الزواج نفسها فى كل مكان ، غير ان الطابع القردى فيها هو قيام العروسين بعرض رقصاتهما لجمهور المدعوين ، وهو نفس الخاتمة التى ينتهى اليها كل زواج يجرى على الاصول الغربية ، حيث يتخاصر العروسان على الملأ ٠٠ بل قد يزيد المنحلون من البشر على تلك النهاية ما يتجاوزون به أخلاق القرود ، اذ تكون المخاصرة فيهم عامة يشارك فيها كل ذكر مع كل انثى من المدعوين دون تحديد ٠٠ ويبقى كذلك من امتياز القرود تماسك الانثى لكى تظل هى المطلوبة التى يسعى اليها ، على حين فقدت أنثى الحضارة الكافرة تلك الخاصة المترفعة ، فأصبحت هى التى تكافح لاجتذاب الرجل بكل وسائل الاغراء ! ٠٠

مسجد ومسكن :

وهبطنا من الهضبة نقصد أقرب المساجد لصلاة المغرب ٠ وفى واحد من أجمل الشوارع ، ومقابل قصر والى بومباى ، وقفت بنا السيارة وعلى درج ضيق بين جدارين لبنايتين عاليتين صعدنا الى مسجد كان بيتا وهبه أصحابه ليكون مصلى للمسلمين فى هذا الجانب ٠

انه قاعة تتسع لمئة وخمسين مصليا ، وفى زاوية منها قامت خيمة من القماش لا تزيد مساحتها على اثنى عشر مترا مربعا ٠٠ قدرت أنها مسكن الامام وأسرته ٠٠

وبعد الصلاة لقيت الامام الذى قال ان اسمه محمد ميا انصارى وانه من مراد اباد ، ذلك البلد الذى لا تزال دماء الالفين من شهداء مسلميه حارة تخضب ارض المصلى ، الذى أطلق فيه حرس الامن

الهندوسى رشاشاتهم على مصليه ، فى واحـــدة من اهـــــول المذابح التى لقيها المسلمون على أيدى هؤلاء المتعصبة ..

ولهذا الامـــام هيئـــة صـــالحة ، وقد اخبرنا انه حج وزار ، ويتطلع الى العودة مـــرة أخرى . ومنه علمت أن أسرته تتألف من ثمانية افراد بينهم ابن أخيه وأخته الذى يقوم بالآذان للاوقات الخمسة ، وأن المرتادين للمسجد غير قليل ، ويوم الجمعـــــة يبلغون اقصى استيعابه ، وهـــو معروف باسم (انجمن محافظ الاسلام) ويقع فى شارع (والى كشور) .

ويقول هذا الامـــام أنه يحصل على مصروفات المسجد من تبرعـــات المحسنين من المسلمين .. وودعنا الامـــــام بعد أن وضعت فى يده ما قدره الله للاسهام فى هذه المصروفات ، والحق لقد شعرت اذ ذاك انى اقـــوم باسعد عمل أديته طوال ذلك اليوم ..

والله الموفق والمســـــتعان ..

عجائب تحمل عبرا :

وقف بنا السائق الخبير اسماعيل على مدخل احد المبانى ليقول : هذا بيت السمك ..

وبعد اداء الرسم ، الذى لم يتجاوز الروبيتين عنا نحن الاربعة ، ولجنا المتحف الذى عرضت على جدرانه احواض الاسماك والحيوانات البحرية ، فى ترتيب فنى علمى يوفر لها الجو الملائم عن طريق تجديد الاوكسجين بتجديد الماء المستمر . ولم نر فيها جديدا بعد الذى شاهدناه من انواع هذه الاحياء فى معرض جامعة الرياض عام ١٣٩٥ ثم فى متحف الدوحة اثناء مؤتمر السيرة والسنة النبوية ، اللهم الا منظر تلك الثعابين التى تعيش مع الاسماك فى منتهى الامن والطمانينة، والا تلك الاعجوبة التى فوجئنا بها حين وقع بصرنا على سمكتين ميتتين لا تتجاوز الواحدة منهما حجم الكف ، وقد كتب على نيل كل منهما بيد القدرة الآلهية ، وبالخط العربى شبه المغربى (شان الله) .. والكلمتان من الوضوح بحيث لا يخطئهما قارىء للحرف العربى ..

وهنا تذكرت ما سبق ان قراته فى كتاب (عجائب الخلق) لجورجى زيدان عن سمك فى الهند يحمل جلده شهادة التوحيد ، وقد اكد لى هذا الامر بعض طلابنا من الهنود ، اذ قال ان ذلك الامر مشهود عندهم ، وانه يعرفه بنفسه .. على انى لم اجد بين معارفى فى الهند من شهد برؤية هذه الخارقة .. ولكنى لا استبعد وقوعها ، لان الهند اكبر واوسع من ان يجمع سكانها على مشاهدة شىء بعينه ،وليس وجود (لا اله الا الله) على جلد سمكة باعجب من بروز (شان الله) على ذيل السمكتين اللتين شهدتهما بعينى راسى فى متحف بومباى هذا ..

ولقد نقلت فى بعض كتبى نبا تلك السمكة الاخرى التى عثر بها صيادون من المغرب ، وعليها بالخط المغربى الكوفى كلمات الشهادتين على غاية من الوضوح ، وقد بعث بها المسئولون الى مختبر علمى فى لندن ، وبعد التدقيق اعلن شهادته بانها حروف لم تمسها يد مخلوق .. ثم تلا ذلك النبا خبر سمكة من هذا النوع عثر عليها فى البحر الاحمر ، واعقبه حديث لفضيلة الاخ الشيخ عبد القدوس الانصارى نشره فى بعض صحف جدة ، وفيه يعلن خبر تمرة شهدها وكثيرون غيره فى المدينة ، تحمل كذلك كلمات الشهادتين بالحرف الكوفى نفسه ..

وهى كلها اخبار تصل الى حد التواتر من حيث القطع بصحتها، اذ لا يمكن حصول التواطؤ بين رواتها وهم من مختلف الاجناس والانحاء ·

ومشاهد لا تنسى :

ومررنا أثناء تلك الجولة الماتعة بمنطقة يبدو أنها أحدث أحياء بومباى من حيث الابنية الضاربة فى أجواز الفضاء ·· وأكاد اسميها حى الفنادق الدولية · فقد رأيت روائع الفنادق فى أندونيسية وغيرها فلم أر ما يفوقها ضخامة ودقة هندسة ·· حتى لقد أصبحت مقتنعا من خلال ما شهدته هنا وفى حديقة فيروز شاه ، وما حولها وما تحتها من روائع المشاهد ، أن فى الهند عمالقة المهندسين العالميين · ولا ينسى القارىء ما سبقت الاشارة اليه من تنوع الاشكال التى تمثلها هذه النواطح الجبارة ، بحيث لا تجد واحدة تحاكى الاخرى فتحار فى الحكم على أيها هو الاروع والافخم ··

وبين هذه الابنية الحكومية والفنادق العالمية تقع مكاتب الخطوط الجوية اقرب ما تكون الى الصورة التى تراها فى مبنى الخطوط السعودية بجدة ··

وعلى الدائر البحرى ــ الكورنيش ــ مررنا كذلك ببعض المقاصف ــ الاستراحات ــ الآسرة بفنها وكهربائها ، وقد افرغ عليها الليل المكهرب غلالة من الفتنة البالغة ، ولما استوضحنا خبرها قيل ان كلا منها خاص باحدى الطوائف ، ومعد لاقامة حفلات الافراح وفق التقاليد الخاصة بكل طائفة ··

والعابر بتلك المناطق العمرانية لا يسعه الا أن يقف مليا تلقاء ذلك البناء الضخم المميز بقبابه الهندية المنمنمة والذاهبة فى السماء ·· وهو الجمع المركزى لمكاتب القطارات ، التى اليها يرجع عمل المكاتب الفرعية الاخرى لقطارات بومباى ··

وما ينبغى ان تفوتنى الاشارة الى ذلك الجهد الجبار ، الذى تنهض به بلدية بومباى فى تلك الاحياء المحدقة بالخليج ، فقد علمت أن معظم هذه الارض ، التى تحمل كل هاتيك النواطح المهيبة ، انما حصلت عليها بومباى من احضان البحر ، على طريقة هولاندة التى لا تنفك تزحف على جوانب المحيط ، فترده على اعقابه ، مخلفا لها ما هى بحاجة اليه من اليابسة ··

على سيف الخليج :

وانتهينا الى ساحة (باب الهند) حوالى العشاء الثانى ... وقد سمى بذلك نسبة الى البناء التذكارى القائم على حافة الميدان المطل على مياه الخليج .. انه اشبه باقواس النصر التى خلفها الزمان فى بعض الحواضر السورية ، ليخلدوا بها ذكريات المعارك التى انتصروا بها على عدوهم .. فهو مثلها من حيث الشكل ، اذ يتالف من بناء ضخم ذى قناطر عالية يعبر تحتها المارة والعربات .. الا أن باب الهند هذا يفوق بحجمه كل ما شاهدته من تلك المعالم ، فهو سامق الارتفاع ، ويتكون من ثلاث بوابات يتجمع الناس تحتها وحولها فى الاماسى ، ويقال انها بنيت لاستقبال خامس نواب ملك بريطانيا ، بمناسبة دخوله مع زوجه بومباى من ذلك المكان ..

وتعج هذه الساحة بحركة الناس بين متنزهين وباعة طعام والاعيب .. وكل يعرض ما لديه بأناقة وبراعة .. حتى الشحاذون يكادون يقطعون عليك الطريق أنى اتجهت .. وحسبى من أمرهم ما أسلفته فى بعض الحلقات ..الا أنى أحب أن طرف القارىء بخبر واحد من هؤلاء ..

انه غلام لا يعدو العاشرة ، أخذ مجلسه فى طريق المارة قرب النصب التذكارى ، وفى كفيه أربع قطع صغيرة من رقيق الحجارة ، جعل كل اثنتين منهن بين ابهام وسبابة ، ثم راح يضرب بعضهن ببعض فى نسق خاص ، فيخرج من ذلك توقيعا موسيقيا عجيبا .. وحتى الان لا أعلم أمقعد هو يستجدى الاكف ، أم محترف يقتضى الناس بعمله هذا ثمن اعجابهم واطرابهم ..

وتصطف الزوارق البخارية على سيف الخليج ، وقد تفاوتت احجامها بين كبير وصغير ، وراحت تتنافس فى عرض زينتها اغراء للراغبين فى الرحلات البحرية ، وبخاصة فى الليالى الساجية الهادية ..

روائع وفجائع :

فى هذه الساحة ينهض واحد من افخم واكبر فنادق بومباى اطلاقا هو فندق (تاج محل) ومعلوم أن هذا الاسم يطلق على البناء العالمى المشهور الذى شيده شاه جهان فى مدينة اكرا ، ليكون مثوى لزوجه ممتاز محل ، التى فقدها فى ميعة الصبا ، وهو اشد ما يكون تعلقا بها ..

والاسم نفسه يعنى (تـاج القصـور) ولعلهم استحسنوا جرسه العـربى فاستبقوه له وكان بوسعهم ان يخلطوا العباس بالدباس فيسموه (تـاج بلاس) ٠ وهو يتألف من قسمين قديم على أسلوب القصـور الملكية الشرقية ، وجديد على أحـدث الطرز الغربية للفنادق العالميـة ٠ فبينما الاول ينبسط طولا وعرضا حتى يكاد يؤلف مربعا هائل الحجم ، اذا بالاخر يشمخ الى الاعـالى ليطل على مختلف أنحاء بومباى ٠٠ وقد قدر لنا النزول فيـه أثناء عودتنا من النـدوة العالمية للادب الاسلامى فى لكنـاو ، فخبرنا بذلك داخله ، كما أحطنا من قبل بظاهره ٠ والحق أنـه مستوف لكل وسائل الراحة من حيث الاثاث والخدمة ٠٠ ومع ذلك فان فى طبيعتى ايثـار الوسط من كل شىء ، ومن أجـل ذلك كنت أفضل النزول فى (بومباى بالاس) الهادىء البسيط ، والذى لم أر بين رواده أجنبيـا من حمـلة الجراثيم الخلقية ، بخلاف ما رأيته هنا من مناظـر تجرح حيـاء المؤمن ٠٠ على أن أسـوأ ما وقع بصرى عليه فى تـاج محـل هو مشهد ذاك الرجـل العـربى مع زوجته العربيـة المسـلمة ، وقد تخلت عن زيهـا الاسـلامى ، ووقفت مـع زوجها ورفيق لهما غـربى مع زوجـه الاجنبية عند واجهة الفندق ، يتبادلون المواقف لتؤخذ لهـم الصـور المشتركة ٠٠ وقد زاد من سوأة ذلك المشـهد أن العـربى كان يرتـدى زيه المميز من العبـاءة والعقـال ، ولو هو أستبدل بهما الزى الفرنجى لكان المشهد أقل سوءا ، لانه حينئذ يكون قد أكرم هويته باكرامه شعارها على الاقل ٠٠

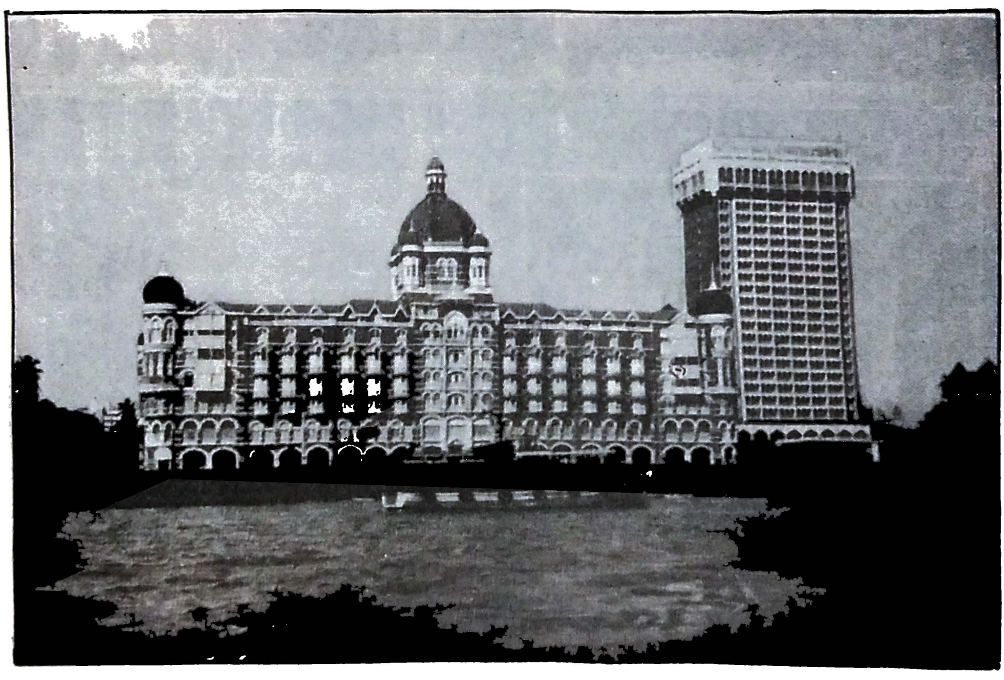
على أن ثمـة ذكرى لاذعة حملتها من هذه الساحة الواقعة بين تـاج محـل والخليج ، ما أحسبنى قادرا على نسيانها ما بقى من حياتى ٠٠

انها ذكـرى مؤسفة بل محـرقة فجرها فى صدرى ذلك التمثـال البغيض الذى ينتصب بكبريائه المتحدية أمـام ذلك الفندق ٠ وقد زاد كـربى منه عندما اضطررنا ، نزولا عند رغبة الاخوة الثلاثة من وفـد الجامعة الى لكناو ، الى أن نتخـذ من تـاج محـل مقـرنا طوال الايام الثلاثة التى قضيناها فى بومباى ، فكان ذلك سببا لتكرار النظر الى ذلك المنكـر ، وكنت واياه كما قال المتنبى :

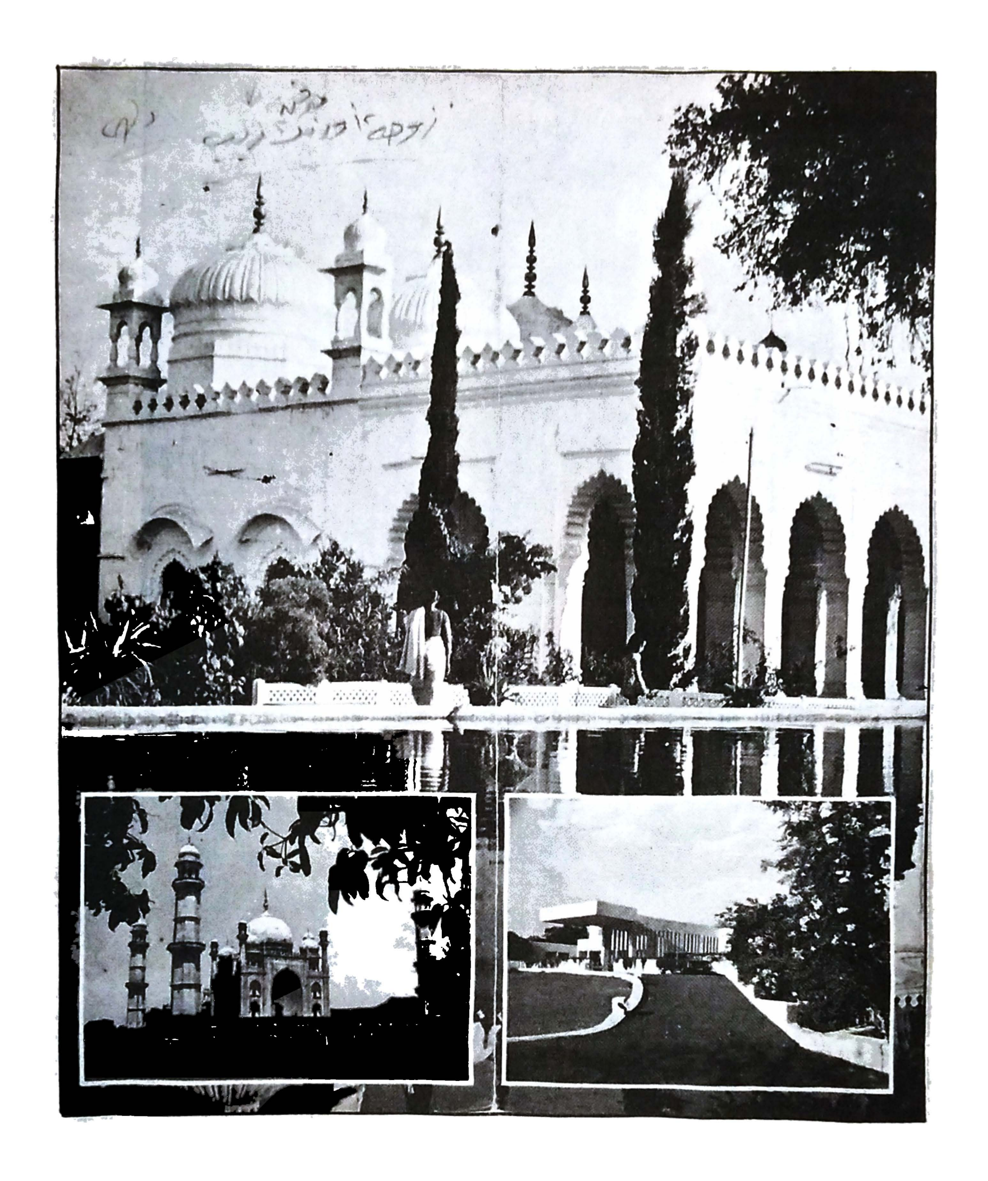
واحتمال الأذى ورؤية جانيـه غـذاء تضوى به الأجسام

واى مسلم يعرف شيئا من تاريخ (أورنك زيب) ذلك العمـلاق الاسـلامى ، الذى رشحته فضائله وعدالته وعلمـه واخلاصه لله ، الى أن يحتـل بنظر بعض المعارفين مرتبة سادس الخلفاء الراشدين ٠٠ ثم





فندق تاج محل فى بومبـــاى



مدفن زوجة أورنك زيب بدلهى

لا يأكل الحزن قلبه وهو يرى الى قاتله المجوسى متشامخا على صهوة جواده ، فوق تلك القاعدة العالية من ذلك الميدان التاريخى ! ٠٠

هنا يمجد الغادرون :

من المعلومات التى يتداولها المسلمون حول مقتل أورنك زيب ، صاحب المجلدات الاربعة المشهورة باسم (الفتاوى الهندية) وبطل الحروب التى حمى بها بيضة الاسلام من عدوان السيك والمجوس مدى سنوات طويلة ٠٠ أن (شيوه جى) الفارس المجوسى المحنط فى هذا التمثال ، عندما أخفقت كل محاولاته للصمود بوجه البطل الاسلامى العظيم ، عمد الى أخس الاسلحة ، فكتب الى أورنك زيب مستأمنا وراغبا فى زيارته ، وعلى دأب المسلم فى ايثار السلم رحب بخصمه ، وينهض لاستقباله بمنتهى الاكرام ، ولكن المجوسى ما ان تمكن من عناقه حتى غرز فى جسمه قفازيه الحديدين اللذين أعدهما لهذا الغرض ٠٠ وهكذا سقط الرجل العظيم ضحية الغدر اللئيم ٠٠

والى هنا والمأساة معقولة لا تعدو أن تكون واحدة من غدرات الجبناء والأخساء فى تاريخ الانسانية ، ولكن الغريب فيها هو أن يمجد صاحب هذه الغدرة حتى يحسب فى الخالدين ٠٠ ولا مسوغ لهذا التفكير المقلوب سوى النقمة من الاسلام ، الذى عدا عليه ذلك المجوسى بغدرته الحقيرة ٠٠ ولو سارت الامور فى مجراها الطبيعى لكان التمجيد لذكرى أورنك زيب ، الذى يكفيه من الحق على الهند أنه كان فيها مثال الحاكم الصالح الذى نضرب بعدالته ونزاهته الامثال ٠٠ أما أن ترفع النصب لتمجيد الغدر وأهله فلا محصول له الا المزيد من التعصب الضرير ، الذى سيظل يمد الاحقاد الطاغية بالوقيد الذى لا ينطفىء ٠٠

فى القطــار الى كجــرات :

نحن هنــا فى محطة القطــار نترقب موعد ركوبه لننطلق من بومباى الى منطقة (ســورت) حيث ينتظرنا بعض الاخـــوة فى المعاهد التى اشــعرت بزيارتنــا ..

والداخــل لهذه المحطة لأول وهــله لا يسعه ان يمنع عينيــه من التجــوال فى ما يواجهه منها .. فالبناء غاية فى الفخامة والضخامة ، والقادم اليه لا بد ان يراجع اولا مكتب الحجز ليعطيه رقمه وموعـــد الانطلاق بالدقيقـــة ..

ودلفنا الى الداخل نتبين اسماءنا فى الجداول المعلقة على واجهات الاعــلان .. وبينما كان الاخوان ابو سحبان ومحمد عمر يقومان بذلــك فوجئت بالشيخ عبد الله اسماعيل ، عميد جامعة فلاح الدارين فى قرية (تركيسر) من ولاية كجرات التى نحن على اهبة التوجه اليها ، يعانقنى بحرارة ، وجعل يعرفنى نفسه وانه وافد من الجامعة لمرافقتنا ، وعلى الرغم من انى لم اره من قبل فقد ازال لطفه وفصاحته كل شعور بالغـــــربة فيما بيننا ، وزاد ذلك الانس ، اطلاعه على بعض كتبى ووصفــه بعض ما يذكره منها ..

وفى الساعة ٥٠ر١٠ تحـــرك بنا قطار الدرجة الاولى يدافع الطريق الحديدى بين زفـــير وشــهيق ، ثم ما لبث ان اندفع بقـــــوة ينهب الارض .. وبدأنا نستطلع المشاهد المختلفة من ابنية وحقول ومحطات ، وزرائب جاموس .. ونلتقى بالقطر تعبر بنا كالسهام ، وهى من الكثرة ووفرة المقطورات بحيث تعرفك قيمة القطار فى حياة الهند ، والسبب الذى من اجله اقيمت تلك المنشآت الهائلة لادارتها وتسييرها ، وســتكون اشد اعجابا عندما تتذكر انها كلها من مصانع هندية ، وبخبرات هندية مئــة فى المئة .. وبخاصة عندما تعلم ايضا انها قد استغنت عن النفط بالكهرباء فهى تسير بقوة التيار الذى تستمده من الاسلاك الجبارة الممتدة فوقها .. كشأن واصل بن عطاء الذى عالج عجزه عن اخراج بعض الحروف باللجوء الى مرادفاتها من الحروف الاخرى ، حتى قال عنه احد الشعراء :

تجنب الراء حتى لا يلم بهــا وجاء بالغيث اشفاقا من المطر

ذكريات من كفــاح الهنــد :

هذه الارض على امتدادها معمورة لا تلمح فيها شــبرا قفرا ، والزراعة راقية ومخصبة تتجمع محصولاتها على مدى الطــريق ..

والمتأمل فى هذه الخيرات ، التى لا يخطئها البصر فى اى ناحيـة من هذه الربوع ، لا يستطيع ان يتصور للفقر وجودا فيها ... حتى يفاجأ بالواقع المؤلم الذى يجرح عينيه فى كل بلد يتاح له الالمـام به ..

وعبر بنا القطار جسرا طويلا تنبسط عن جانبيه المياه الى مسافات بعيدة ، فسألت : أخليج هذا أم نهـر ملاحى ؟ .. فكـان جواب أحـد المسافرين فى مقصورتنا : بل انه امتداد بحرى : وسرعان ما جـاء توكيد ذلك فى الاحواض التى تتجمع على مقربة منها اكوام المحصـول الملحى خالصا ومشوبا .. وهنا طفت على ذاكرتى حركة العصـيان المدنى الذى شاده غانـدى ومحمد على جنـاح وأبو الكـلام أزاد .. والذى بلغ قمته فى التمرد على قوانين الانجليز التى تفرض الضرائب على استخلاص الملح من مـاء البحـر ، وبكسر هذه القوانين البـاغية بعزائم الهنود على اختلاف طوائفهم ، أنكسرت شركة بريطانية ، فانحدرت من المرتبة العظمى الى الدرك الاسفل ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى ..

وصـلات الهنـد بالعـرب :

ومن على الجسر المقوس فوق نهر (تابتى) جعل يعرفنا الشـيخ عبد الله اسماعيل شيئا من ماضى هذه البقعة من منطقـة سورت .. ومثل الشيخ عبد الله قمين بأن يصغى الى حديثه عن ذلك العهد ، فهـو ذو خبرة واسعة بتاريخ الحقب التى شهدت صلات العرب بهذا الجانب من الهند سواء قبل الاسلام أو بعده . ولا أنسى أنى كنت أحد المعجبين بحديثه عن ذلك التاريخ ، ذلك الحديث الذى القاه فى الندوة العالميـة للادب الاسلامى ، فاستوعب جذور العلائق بين الهند وجزيرة العرب ، وما أعقبت من مردود لغـوى فى ألسنة الهنود ، حتى صارت الهند بذلك أحد مراكـز العربية فى العالم ، تصـدر كبرى المؤلفات فى لغة الضـاد الى سـائر الانحـاء ..

من هنـــا دخـــل الاســـلام :

يقول الشيخ عبد الله ان نهر تابتى هذا كان همزة الوصـل بين الهند والبلاد العربية ، عن طريق السفن ، التى كانت تجوب بحـــر العرب الى هذه الشواطىء منذ العهود البعيدة .. واذا كان هذا النهر قد فقد اليوم صفته الملاحية تلك فبسبب السدود التى اقيمت على الكثير من جوانبه فقللت مياهه ..

وعن طريق خابتى احتلت مدينة سورت مكان الصدارة فى هذه العلاقة بين القطرين ، حتى انها لتسمى الى عهد قريب (باب مكـــة) لان حجاج الهند فيها يتجمعون ، ومنها الى شواطىء الحجاز يبحرون ..

ويضيف فضيلة الشيخ عبد الله الى ذلك القول بأن مدينة (باروس) الباعدة أربعين كيلا كانت أول ثغـــر استقبل طليعة صحابة رســـول الله صلوات الله وسلامه عليه أيام الخليفة الثالث ذى النورين رضى الله عنه ، عام خمسة عشر للهجرة ..

والقارىء الذى يلم بهذه الوقائع التاريخية لا يستغرب ازدهـــار ولاية كجرات بالعلم ، حتى ليكون منها طائفة من اساطينه ، ذوى الاثـــر العميق فى نشر الثقافة العربية والاسلامية ، مثل الشيخ محمد طاهـــر الفتنى مؤلف (مجمع بحار الانوار) ونحوه من المربين والمؤلفين . ولا يستغرب كذلك تأثير العلم الاسلامى فى توجيه الحكام حتى ليكون بينهم من يستحق ان يذكر مع الراشدين ، مثل السلطان مظفر شـــاه حكيم الكجـــراتى ، الذى بلغ القمة فى الزهـــد والورع والعـــلم والانتصار للحـــق ..

اســــوا التناقضات :

وعلى مقربة من الثالثة بعد الظهر اشرفنا على ضواحى مدينـــة سورت ، حيث يصطدم النظر بأسوا المتناقضات : مئات من اكـــواخ الفقراء فى أردء الاوضاع ، تملأ مساحة غير قليـــلة من الارض ، وأول ما يواجه المسافر باتجاه سورت ، وفى مساحة أخرى مماثلة تنتشـــر عمائر أصحاب اليسار متنافسة فى الضخامة والارتفاع ، وكلها من النوع الحديث ، وكأنهما بذلك يعرضان التباين الاجتماعى فى واقع هـــذه البـــلاد كلهـــا ..

وتوقف القطـــار فى محطة سورت ، فما أن وطئنا الثرى حتى وجدنا بانتظارنا أخد شيوخ (فلاح الدارين) ، وللتو توجهنا الى الســـيارة التى حملتنا الى (تركيسر) الواقعة على بعد ٤٢ كم من البلد ، وشد ما كانت الخيبـــة مرة حين واجهنا مدخل القرية ، وبدأنا نخوض فى أزقتها غير المنظمة ، وكلما رأيت بناء من الحجارة حسبته المؤسسة المقصودة ، اذ لا يتوقع ان تكون مدرسة فى مثل هذا الوسط الفضل منه ..

جامعـــة فـــلاح الـــداوين :

ومضت السيارة تشق الممرات القروية الترابية واحدا بعد الاخر حتى كانت المفاجاة ، واذا هناك صرح تعليمى ليس مستغربا أن يسـمى جامعـــــة ٠٠

أول ما يستقبلك هنا المسجد الواسع الرائع ، ثم الممر الانيق الى داخل الفناء ، وهو كما وصف على لسان الشيخ ابى الحسن الندوى — حفظه الله — جنتـــان عن يمين وشمال ٠٠ فهناك الانواع من شجر الزينة والازاهير ، قائمة فى نسق رائع ، ويطل عليها من كل جانب ذلك البنـاء المنظم ذو الادوار الثلاثة ٠٠

وكان ثمـة حشد من الطلاب أعد لاستقبالنا ٠٠ فما ان وافينـــا المدخـل حتى دوى صـوت الموجـه بمثـل الهتافات السخيفة التى نسمعها فى البلاد التقدمية : فـلان ٠٠ يا ٠٠ يا ٠٠ يا ٠٠ ويلى كـلا من هـذه الياءات تتمتها (عيش ٠٠ عيش ٠٠ عيش ٠٠) ولم يتوقف حتى انتهينا الى المضيافة النظيفة المريحة ٠٠ فصلينا جمعا ، ورقدنا قليلا ، ثم خرجنا للسلام على المشايخ ٠٠

والحق ان هؤلاء الفضلاء جميعا من نوع يستحق الاحترام ، سواء من حيث العلم او الهيئة الصالحة ٠٠ ولن يضيرهم أن أخص منهم بالذكر الشيخ (احمد بايمات) احد مدرسى الحديث والفقه ، الذى وجـدته على مستوى رفيع من الدراية والرواية ٠٠ وقد طبعه التزام المذهـــب الحنفى بالخاصة التى تميز فقهاءه ، من حيث التبحر فى تتبع الدليل ، والقدرة على الجـدل المنطقى ٠٠ وقد ذكر بعض الحضور من زملائه أن لهذا الفاضل قرابة المئة من المؤلفات الاسلامية ترجم بعضها الى اكثر من لغـة ، وأعيد طبـع بعضها عددا من المرات ، وزاد ما وزع منها على مئة الف نسخة ، وذلك على نفقة بعض التجـــار الكجراتيين فى المهاجـــر ٠٠

محسنون من آل راوت :

وعلى ذكر هؤلاء المحسنين من مهاجرى كجرات يحســن بى ان أعرض للقارىء بعض الصور التى هزتنى من اريحيتهم العالية ٠٠

ففى جزيرة الرينيون عدد من هؤلاء يتعهدون هذه الجامعات بمعوناتهم المستمرة ، حتى لقد بلغ ما بذله أحدهم ، وهو الحاج يوسف راوت ، لهذه

الجامعة حتى الان ما يساوى الستة الملايين من الروبيات الهندية ، أى مليونين ونصفا من الريالات .. هذا فضلا عن المدد الثابت الذى تتناوله الجامعة فى كل عام ، ويقدر بمئتى الف روبية - فيما اذكر - وهو ريع بناء اشتروه ووقفوه لمصلحتها هناك ..

وشاء الله ان يجمع لى بفضله بين علم السمع وتحقيق النظر فى ما روى لى من اخبار هؤلاء المغتربين .. فاذا نحن ببعضهم ، وقد وصلوا لتوهم من مهجرهم ، وفيهم الحاج يوسف راوت الذى أحببته فى الله ، ودعوت له بظهر الغيب ، فاذا هو أشيب فى الستين من السنين ، يمتلىء حيوية ونشاطا وحبا لله ولرسوله وللمسلمين .. وقد علمت من نبذه أنه مولود فى فرنسة حيث كان والده يعمل فى التجارة ، ولما بلغ سن الحداثة بعث به الى قريته هذه للتزود من العلوم الاسلامية ، فقرأ القرآن ، ودرس ما يعوزه من العلم فى البناية القائمة عند مدخل الجامعة، والتى تشغل الان بالتعليم الابتدائى .. وقد قدر له ان يقضى معظم عمره فى جزيرة الرينيون .. حيث يعمل حتى الان فى التجارة ، الى جانب كونه عضوا فى برلمانها .. ومن فضل الله على هذا الرجل أنه لا يتخلف عن أداء العمرة والحج كل سنة الا أن يصرفه عن ذلك صارف من المقادير ..

العنايـة بكتـاب الله :

الجمعة ٢٦ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

كان صباح اليوم موعد جولتنـا على أقسام الجامعة (فـلاح الدارين) وفق ترتيب مديرها الشيخ عبد الله ، وكانت جولة سارة أثلجت الصدر بما أتاحته لنا من العلم بكبر المجهود الذى تنهض به هـذه المؤسسة المباركـة ٠٠

لم يكن ثمـة من عمل دراسى ، لان الجمعة هى ميعاد العطلة الاسبوعية فى معاهد المسلمين ، لذلك اكتفينا بالنظر الى مواطن الدروس والاقسام الاخرى المتممة لهـا ٠٠

لقد مررنا على الفصول الكثيرة الواسعة وكلها من الطـراز التقليدى ، وقد فرشت بالبسط الواقية من البرودة والصـلابة ، وزودت بثلاجة كبيرة لسقاية الطلبة ، اقيمت فى مكان متوسط من مجمع الفصول٠ واعجبنا بمشهد الحجرات الثلاث الخاصة بتحفيظ القرآن العظيم وتجويده، وهو من الاقسام الرئيسية فى كل معهد اسلامى زرناه من هذه الديار ٠ ولا عجب فان الاقبال على دراسة القرآن وتلاوته وتجويده يعتبر من أولى المقومات الثقافية فى حياة المسلم الهندى ، وقد ذكر الشيخ عبد الله فى كلمته الترحيبية أن فى هذه القرية (تركيسر) مئة وخمسين حـافظا للكتاب الكريم من مجموع سكانها البالغين تسعة آلاف ٠٠

واخبرنا كذلك الاخ ايوب محمد ، وهو من الحفظة ان مثل ذلك العـدد بل أزيد منه موجود فى قريته (كوسارى) التى لا يخلو أى بيت فيها من حافظ أو اكثر ، وهو أمر عـام يشمل النساء والرجال ، باستثناء الكثيرين الذين يحفظون الجـزء والجزأين والاجزاء من كتاب الله ٠٠ وحسب القارىء بذلك دليلا على منزلة القرآن فى وجود المسلمين واثره العميق فى سلوكهم وحفاظهم على ذاتيتهم ٠٠

ومن الذكريات التى ما ينبغى ان تزايلنى فى مثل هذه المناسـبة صـورة ذلك الغـلام ـ محمد حنيف ـ الذى حضر مع احد قرابتـه من المشايخ مجلسا لنا فى احدى الامسيات ، وذكر لنا انه يستظهر كتـاب الله ، فاحببت ان اختبره ، فكلفته ان يقرأ علينا ما يتيسر ، فقرأ بالمزمل ، فجعلت اختار له من هنا وهناك ، فاذا هـو يستجيب لكل مطلوب فى ثقة عالية ، فلا يضل ولا يتردد ٠٠ وكل ذلك فى اداء رائع ، وصوت ندى

.. مع أنه لا يتجاوز بتقديرى الثانية عشرة من سنيه ، فسبحان من يخلق ما يشــاء ويختــار ..

مظاهــر النشــاط :

ولاحظنا من مظاهر النشاط الفكرى لدى طلبة الجامعة ذلك المعرض الخاص بالصحف العربيــة الصادرة فى مختلف انحاء العالم الاسلامى .. وبينها العديد من المجلات والجرائد التى نعرفها ..

كذلك أطلعنا على مكتبة الجامعة ، وهى كبيرة وكثيرة الكتب بمختلف اللغــات والاغراض ، وقد وقعنا بين محتوياتها على معجم تعليمى فى ست لغــات شرقية (عربية والاوردية وفارسية وهندية وسنسكريتيـــة وتركية) وهو كتاب مطبوع ولكنه مخروم من أوله فلا يعرف مؤلفـــه ولا ناشره . ويحدثنا الاخ الشيخ عبد الله أنه عثر به فى احــدى القرى ، وقد اكلت الارض اجزاء من بعض صفحاته ..

واطلعنا على مطعم الطلاب ، وهو يحتل قاعة كبيرة تتسع لخمسمئة طالب ، وقد مدت فيه الخوانات الخشبية المنخفضة ليوضع عليها الطعام وبازائها فرشت الحصر البلدية لجلوسهم ، وبجوار المطعم عدد كبـير من الصنابير غرزت فى بنية جميلة مظهرة بالبلاط الابيض . وقد رفعت فى صدر المطعم ورقة تذكر بآداب الطعام فى ضوء الاسلام باللغة الاوردية .. وقيل لنا ان احد الطلبة يقف قبل البدء بالاكل ليلقى على اخوانــه بعض المواعظ المتصلة بالموضوع .. وانتهينا الى غــرفة المدير ، ذات المفارش الارضية ايضا ، وهناك اطلعنا كذلك على عــــدد من الكتب المطبوعة ، وكلها من تاليف مدرسى الجامعة ..

وكــانت نهاية المطاف فى المسجد الذى جمــع به الطلبة ، ورتب حفــل لم ندر به من قبل .. وفيه القيت بعض الكلمات الصالحــات ان شاء الله .. سجلت مع تعقيبى عليها فى شريط اكرمونا بنســـخة منــه ..

واحب الا تفوتنى الاشارة إلى أن بين المئات من هؤلاء الطلبـــة عددا من مختلف ارجــاء العالم ، قدموا للاغتراف من معين الاسلام .. ففيهم الافريقى ، واليمنى ، والامريكى ، وحتى الكوبى .. ولهذا الكوبى

قصة مؤثرة جديرة بالتسجيل ، ذلك انه تعرف الاسلام من خلال بعض الكتب التى وقع عليها فى احدى المكتبات العامة ، فانشرح صدره له ، وحاول الهجرة للالتحاق بالمسلمين ، ولكن سرعان ما احست به المخابرات الشيوعية فتعقبته وفتشت منزله ، ولاحقته بفنون الاذى والمضايقات والاخطار ، حتى قيض الله له الخلاص من جحيم كاسترو ..

الأرجوحة الكجراتية :

وأبلغنى المشايخ انهم يرغبون ان اكون خطيب جمعتهم هذا اليوم وبعد الغسل عدنا الى المسجد ، ولم يكن قد استقر فى خاطرى الموضوع الذى يحسن الكلام فيه ، ثم شاء الله ان تكون الخطبة حول آية من سورة الفتح ، وأن يكتب لها التوفيق ، حتى وصفها أبو سحبان بأنها كانت فتحا من الله عجيبا

وفى الطريق الى الغداء ، الذى أراده الشيخ عبد الله فى منزله ، مررنا بأبنية جميلة قيل لنا انها مساكن بعض أسَر المتزوجين من مدرسى الجامعة ، وبجوارها ابنية اخرى فى حالة الانشاء لسكن الاخرين منهم .. أما غير المتزوجين من هؤلاء الاخوة فيقطنون فى غرف خاصة داخل المؤسسة ..

وكان الغداء ممتعا بما قدم فيه من الاطعمة الشهية ، على ما فيها من لذعة التوابل ، وبما أتاح لنا من الاجتماع بسائر الاخوة من أهل العلم والفضل ، وبينهم اولئك المحسنون من آل راوت ..

ولأول مرة يقع بصرى على الارجوحة الكجراتية مدلاة من وسط القاعة ، وهى كالصندوق المستطيل تتسع لشخصين يستريحان فيها ، فتستجيب لحركتهما التى يريدان ، وقد أتقن صنعها ، وبذل فيها من الزخرف ما يتناسب مع وضع المنزل .. ولا يكاد يخلو منها منزل فى كجرات .. والظاهر انها بدأت تتسرب الى المناطق الاخرى ، فقد رأيت واحدة منها فى منزل أحد تجار العطور فى بومباى ، اذ كنا مدعوين لغداء عنده مع فضيلة الشيخ أبى الحسن ، فقلت : لا بد أن تكون هذه الارجوحة هاربة من وطنها الاصلى ، اذ لم يسبق أن شاهدت لها اثرا فى اى منزل او مؤسسة خارج كجرات ..

وقبل ان ادع الحديث عن جامعة فلاح الدارين احب ان اسجل بعض ملاحظاتى حول مواقع هذه المؤسسات الاسلامية ، والباعث على اختيارها خارج نطاق الحواضر ٠٠ والذى استقر رأيى عليه هو ان وراء هذا الاختيار فى الغالب غرضا تربويا يقصد به الى حماية الطلاب من سيئات المدن ، التى لا تخلو من المفسدات ٠٠ وبذلك تكون الجامعة او المدرسة كيانا مستقلا توفر للطالب نوعا من الاعتكاف هو اعون ما يكون له على الدراسة والتنمية الخلقية والفكرية ٠٠ وحتى اذا لم يكن ذلك مقصودا اليه فهو واقع لا يحسن اغفال اثره فى تنشئة هذه الجماهير من اجيال المسلمين عند الكلام عن هذه المعاهد التى اختارت لنفسها تلك المواقع القصية ٠٠

وكان الاصيل قد شرع فى الانكماش حين وصل فضيلة الشيخ ابى بكر الغازيكورى مندوبا عن جامعة (تعليم الدين) فى دابهيل ، للتفضل بمرافقتنا اليها ، وهى احد المعاهد الداخلة فى برنامج الزيارة، فاتجهنا مع المشايخ نحو البوابة الخارجية لنمتطى السيارة المعدة لذلك ، وبصعوبة كبيرة استطعنا النفاذ بين صفوف المشيعين من الطلاب وغيرهم ، ومن ثم اخذنا طريقنا الى دابهيل ، رفى النفس غصة لفراق أولئك الاخوة الذين ما ندرى اذا قدر لنا ان نعود للقائهم مرة اخرى ٠٠

فى (تعليم الدين) :

وبعد اثنين واربعين كيلا ، بلغنا الجامعة المقصودة مع اذان المغرب ، فأديناها جماعة مع مئات الطلبة ، والعديد من المشايخ الذين كانوا بانتظارنا حول مسجدها ، الذى يجتذب الانظار بحسن هندسته ، وجميل موقعه ، وروعة تنظيمه ، فهو مظهر بالرخام كله ويتسع لاكثر من خمسمئة مصل ، وتمتد الى منتصفه شرفة يصلى بها الناس اذا ضاق بهم رحب المسجد ، وركبت على صدره مراوح كبيرة تلطف فضاء المسجد كله ، وتقوم فى فنائه المرخم ميضاة انيقة بالغة النظافة ٠٠

وعقيب الصلاة عبرنا من خلال صفوف الطلاب الى المكتبة ، وهى تستحق الزيارة بما تحتوى من اصناف المؤلفات ، بينها غير قليل من المخطوطات ، وهناك استرحنا قليلا ، وتحدثنا الى المشايخ فى شئون

العلم والتعليم والمناهج وضرورة تجديدها ، وتحديث وسائلها بالاخذ من كل نافع قديما كان أو حديثا ..

ومن ثم مضوا بنا الى دار الضيافة ، وهى شقة نظيفة مخصصة للنزلاء ، فى بناء حديث يسكنه المدرسون دون مقابل ..

ومن دار الضيافة الى منزل مدير الجامعة فضيلة الشيخ محمد سعيد بذرع ، ويقع منزله داخل القرية وراء طريق ترابى طويل .. وهنا تناولنا العشاء مع ذلك الشيخ الوقور ، ثم عدنا الى المسجد لصلاة العشاء ، وهو على مسافة الف متر ، آثرت قطعها سيرا على القدمين ، وهو الثمن الذى لا مندوحة عنه كلما أضطررت الى مخالفة عادتى المألوفة فى الغداء وجبة العشاء ..

ظاهرة مؤسفة :

ولا أنسى تلك الظاهرة التى واجهتها اثناء تلك المسيرة اذ تقدم نحونا رجل يترنح ، وبلسانه عقدة السكر ، القى تحية الاسلام ، وراح يجمجم بكلام لم افهم منه شيئا ، وحتى الاخوة الهنود لم يجدوا له معنى ، سوى أنه يريد ان يعبر عن هويته الاسلامية ، ويسأل أن ندعو الله له بالمغفرة لاقدامه على شرب الخمر ! ..

ويقول الاخوة أن ظاهرة السكر هذه قد بدأت من جديد بعد الغاء حكومة انديرا غاندى لنظام الحظر على تعاطى الخمر . وقد سبقت الاشارة الى أن باعثها على هذا الالغاء هو الرغبة فى المزيد من الضرائب ، ثم توسعة المنافذ لتصريف طاقة الجماهير فى مزالق اللهو والمجون ! ..

جـولة اسـتطلاع :

السبت ٢٧ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

فى الساعة التاسعة صباحا بدأنا الجـولة على أبنية جامعـة (تعليم الدين) ، وهى تشـغل مساحة واسـعة من أرض كبيرة ٠ فهناك بنـاء سكن الطلبة ، ويتألف من ثلاثة ادوار ، تستوعب ثلاثمئة غـرفة ـ على قول الشيخ أبى بكر الغازيكورى ـ وفى الدور الارضى منـه المطبخ والمستودع والمطعم ، وثلاجة كبيرة لشرب الطلاب ٠ وقد شاهدنا غرفهم وهى واسعة تحوى كل منها ما بين اربعة وخمسة أسرة ٠٠

وتمتد الابنية على دائر رحب ، وكل منها مختص بنوع من المهـام أحدها للفصول الدراسية ، وفى دوره الارضى القسم الخاص لتحفيظ القرآن الكريم ، ويتألف من سبع حجرات ، وفى هذا القسم يتخرج ما بين ٣٠ و ٤٠ حافظـا كل عـام ٠٠

ولم يتح لنـا المرور بسـائر الابنية ، ولكن ظاهرها يـدل على أهميتها ، ويقول الاخ أبو بكر ان مدرسى الجامعـة خمسة وثلاثـون وطلابها يبلغون خمسمئة وخمسين ٠ أمـا موازنتها ، البالغـة مليونا وخمسمئة ألف روبيـة ، فتأتيهم من محسنى المسلمين ، وبخاصـة مهاجريهم فى لنـدن والرينيون وبنامـا وموريشوس ، وأكبر روافدها من مهاجريهم فى جنـوب افريقية ٠٠

ويقول كذلك أن هؤلاء المهاجرين الموزعين فى شتى اصقاع الارض يبعثون بأبنائهم الى هذه الجامعة وغيرها لتزويدهم بالثقافة الاسـلامية حماية لهم من الضـياع ٠٠

وأمـا راتب المدرس فى هـذه المؤسسة فيتراوح ما بين ثلاثمئـة وخمسين وتسعمئة وخمسين روبيـة هندية وقد أصبح ضـعيف المردود بازاء الغـلاء الكبير المتلاحق ٠ ويضرب لنا المثـل على ذلك ببعض الضروريات كالسكر الذى بيـع الكيلو منه هذه الايام بخمس عشرة روبية والذرة التى وصـل ثمن الكيلو منها الى ست ، وحتى البصل ارتفع الى اربع روبيات ٠٠

قصـــــة عمامــــة :

وهمس في اذني الاخ ابو بكر على استحياء أن هيئة التدريس في الجامعة قد رتبت لنا اجتماعا في المسجد ، فهو يريدني على ان أشهده والقي فيه بعض التوجيهات ٠٠ ولم يعد ثمة مجال للاعتـــــذار ما دام الاجتماع قد هيىء ، واحتشد الطلاب والمشايخ بانتظارنا هناك ، فمضيت مع الاخوة الى حيث ارادوا ، وقد ملأ الطلبة المسجد في صفوف منتظمة ، واعـــد للمشايخ مجلس خاص في مواجهتهم ٠٠

وافتتح الحفـــل بآيات من كتاب الله تلاهــا أحــد الطلاب بتجويد محكم ٠٠ ثم تــلاه ابو بكر فالقى كلمة معـــدة ، أعطونا منها نســخة كتبت بخط عـــربي مبين ، ونسقت في وضـــع فني جميل ٠٠ وفي نهاية الحفـــل وقف العـريف ليقول بأنهم يريدون ان يترجموا مشاعـــرهم نحوي بمـــا اعتادوه في مثـــل هذا الموقف ، وهو ان يلوثوا على رأسي عمامـــة خاصـــة مطرزة بالآيات ثم بعض العبارات التي تسجل ذكرى المناســـبة ٠٠

ولكي يلزموني بالامر الواقع ذكر الاخ العـريف أن مثـــل هذه العمامـــة قد تــوج بهـا رأس شيخ الازهـــر المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود في هـــذا المكان ٠٠ وليست ســوى رمز تقديري لمـا عـرفوه من آثاري في خدمة الاســلام والمسلمين ـ بنظرهم ـ فلم أجـد مجالا لرد ما يريدون ، وتركت لرئيس الجامعة الوقور أن يكور تلك العمة على رأسي كما يشاء ٠٠ وقد عقبت على الكلمات بما يناسب المقـــام ، من اشـــادة بمجهوداتهم في نطـــاق الدعوة ، وتنشئة الجيل على حب الحــق والالتزام بروح الاســـلام تربية وتعليما وعقيدة رســـلوكا ٠٠

ولمـا تحركنا لوداع القـــوم اتجـــه بنا مسئولوهم الى حفـيرة يريدون ان يصبوا فيها دعامة لبناء جديد يضيفونه الى مساكن الطلبة ، وطلبوا الى أن اضع الحجـــر الاول في أساسها ، ففعلت ودعـوت الله ان يشملها والمؤسسة كلهـــا برعايته وبركاته وتوفيقه ٠٠

عـــلوم وصـــنائع :

بقي ان اذكر لجامعتي (فـلاح الدارين) و (تعليم الدين) عنايتهما بتأهيل طلابهما للعمل اليـــدوي الى جـــانب الزاد العلمي ، فكمـــا يتلقون الدروس في المقررات الدراسية ، يتعلمون كذلك بعض الحـــرف

التى تساعدهم على الحياة ، فلا يربطون مصايرهم بالوظائف الرسمية ، ولا يضطرون لطلب الرزق بالوسائل غير اللائقة بحملة العلوم الشرعية ٠ ومن هذه الحرف الخياطة واصلاح الساعات و ٠٠ وقد سبقت الاشارة الى مثل ذلك عند الحديث على مدرسة (التعليم والصنعة) فى مدينة كانبو ر، وهو اتجاه أتمنى أن أراه سائدا فى سائر مؤسسات التعليم الاسلامى ، فى كل مكان من ديار الاسلام ٠٠

ولقد غادرت كلتا الجامعتين أيامئذ وفى نفسى اليقين التام بأنهما من أجدر المعاهد الاسلامية بالمساعدة ، وبخاصة فى نطاق منح المتفوقين من طلابهما الفرص لمواصلة دراساتهم العالية فى جامعات المملكة ٠٠ ومن أجل ذلك نبهت المسئولين فيهما الى ما ينبغى من تنظيم مناهجهما على الاصول المطابقة لشروط المعادلات فى الجامعة الاسلامية ، وقد استجابت (فلاح الدارين) لهذا التنبيه ، فتمت معادلة مناهجها ، والمأمول أن يكون لطلابها حظ فى القبول لدى الجامعة الاسلامية للعام ١٤٠١ ـ ١٤٠٢ ان شاء الله ٠٠ على ان المؤسف أن الثانية غفلت عن هذا الجانب فلم تبين ان من شروطها لقبول الطالب فى المرحلة الاولى أن يكون حاصلا على شهادة الدراسة الابتدائية من مدارس الحكومة أو ما يعادلها ، وبذلك تأخر صدور معادلتها ريثما تستكمل هذا النقص ٠٠

دنيا ودين :

ولقد فاتنى أن أذكر منظرا شهدته أثناء قدومنا الى هذه الجامعة فملأ قلبى سرورا واعجابا ، وذلك حين وقفت بنا السيارة تلقاء مسجد لم يتم بناؤه ، بيد أن ما ظهر منه حتى الان كاف للدلالة على ما سيكون بعد استكماله ٠ وهبطنا مع الاخوة لاستطلاع شأنه فاذا هو يتألف من طبقتين أنجزت أولاهما ، ولا يزال العمل جاريا فى الثانية ٠ ٠ وقد نظمت مرافقه أحسن تنظيم ، وفى جوار هذا المسجد ينهض مصنع ضخم لانتاج الورق المضاعف ـ الكرتون ـ تؤخذ مواده الاولية من فضلات الأوراق المنبوذة ، فتعالج بالطرق العلمية والفنية حتى تخرج نوعا جديدا يقبل عليه المستبضعون من مختلف الانحاء ٠٠

وتعرفنا هناك احد مالكى المصنع ، وهو الاخ محمد على مينار ، الذى اليه والى اخوته يرجع الفضل فى بناء ذلك المسجد الذى ينفقون عليه بسخاء ، ليوفروا لعمالهم وجيرانهم المكان الذى

يعبدون فيه ربهم · ومما يضاعف السرور ما اخبرنا به ذلك الفاضـــل من امتياز أولئك العمـــال الذين ليس بينهم واحد يتخلف عن الصلاة ، ولله الحمـــد ··

وفى ما يتعلق بعمل المصنع يقول الاخ محمد على مينار انه ينتج فى كل يوم عشرة أطنـــان من الورق المقوى ، يصدرونها الى دبى وعدن وغيرهما ·· وزاد على ذلك أن فى هذه المنطقة من ضواحى سورت زنسمى (أودهنا) خمسمئة مصنع يملك المسلمون كثيرا منها ··

وقد علمنا ان لهؤلاء الاخيـــار من آل مينار تجارات واسعة فى ســـورت ، التى تعتبر من أهم مراكز الصناعة فى كجـــرات ، والتى يضاهى سكانها المليون من مختلف الطوائف ··

ولا ننسى ان لمسلمى كجرات نشاطا اقتصاديا رائعـــا ، يذكرنا بأمثالهم من الحضـــارم والشـــاميين وهو ما يثير عليهم أحقـــاد الهندوس ، فيحاولون تخريب اقتصادهم بأصناف العدوان ، حتى التقتيل واحـــراق المصانع ، كما حـــدث فى أحمد أباد ــ من كجـــرات ــ قبـــل ســـنتين ··

بنـــوك اســلامية :

ويحدثنـــا الاخوة المرافقون أن الربـــا فى كجـرات يكاد يكـــون محصورا فى نطـــاق الهندوس وحدهم ، وكثير من المسلمين يرفضون فوائد البنـــوك على أموالهم ، وبعضهم يأخذها فيوزعهـــا على حاجات المســـلمين ··

وممـــا يذكر لمسلمى هـــذه المنطقة أنهم قد سبقوا الى تجربة البنـــوك الاســلامية ، فانشئوا لهم واحـــدا غير ربوى يقوم على التعاون ، وتديره جمعية من المسهمين المسلمين ··

وقد أبى الاخ محمد على مينـــار الا أن يكون بين مرافقينا الى محطة القطـــار ، وبجهوده المشكورة حصلنا على الحجز المثبت بالدرجـــة الاولى الى بومبـــاى ··

وكان وداعـــا حـــارا ترك فى نفسى أعمق الذكريات ، فلهـــؤلاء الاخـــوة الاوداء من جامعتى (فـــلاح الدارين) و (تعليم الدين) أصدق التمنيات ، وأخلص الدعوات ··

الطب العـــربي فى الهنــــد :

الاحـــد ٢٨ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

بعودتنا الى بومباى ختم منهاج زيارتنا للمدن الهندية الاخرى ، وبقى علينا أن نترقب موعـد الطائرة التى ســـتقلنا الى مطار جـدة ٠٠ وقد دعينا لتناول الافطـــار مع فضيلة الشـيخ أبى الحسن فى منزل مضيفه التاجر الكبير ٠٠ حيث واجهنا نفس المشهد المعهود حول الشيخ، فالحضور كثير ، وهم من مختلف الاصناف ، تجارا وأطباء وضــــيوفا مثلنا من غير الهند ٠٠ وقد غمرهم جميعا جـــو الوقار الذى يحـــدق بفضيلته حيثما حل ٠٠

كان بين الحضور فتى عراقى من أعيان بغـــداد يقول انه يــــزور بومباى لمعالجة والده ، الذى أعيا مرضه اطباء العراق ولندن وغيرهما ، فنصح له بعض العارفين بأن يقصد الى هذه البلاد لعرضــــه على بعض المطببين على الطريقة العـــربية اليونانية ٠٠ ويقول ان رحلته اســتغرقت ثلاثة اشهر وقد نجحت ، اذ وجـــد والده طلائع الشـــفاء على يـــد طبيب من هـــذا الضرب فى مدينة ســـورت الكجراتية يبلغ من العمر مئــــة وعشرين عاما ٠٠ فبعد أن محى شعر رأس والده تماما عـــاد فنبت ، وبعد ان اقعده المرض فلم يستطع المشى زمنـــا طويلا ، استعاد قدرته بفضل الله وشرع يتمشى بسهولة ٠٠

ولا عجب ان يحدث ذلك على يـــد مطبب على الاسلوب التقليدى ، فقد بدأ الطب الحديث بالالتفات الى ذلك النوع ، الذى كـــاد ينتهى من سائر انحاء العالم خارج هذه القارة ، التى حافظت على مكانته ، واعطته حقه من الانطلاق ، حتى لتنشأ له الكليات ، وتجرى له الامتحانات ، وتمنح لاهله الشهادات ، وتقام لهم العيادات ، فتراها أنى ضربت فى هـــذه الارض ٠٠ وها هى ذى الجامعات العلمية ترسل مبعوثيها اليوم الى كل بلد يعنى بذلك الضرب من الطب ، لتستطلع طرائق أهله وتنتفع بخبراتهم فى رعاية النوع الانسانى ٠٠

مســـــلم جـــديد :

وكان بين الحضور أيضا رجـــل أسمر اللون عميق النظـر كثير الادب ، وصف لى بأنه دكتور فى الرياضيات ، وذو مكانة محترمـة فى الاوساط الجامعية ، حيث يتنقل بينها لالقاء المحاضرات فى اختصاصه ٠

وقد هداه الله الى الاسـلام حديثا ، وبدا عليـه من نوره حليـة من البهجة التى لا يمكن وصفها ٠٠ واثناء حديث معـه طلبت الى المترجم أن ينقل اليه قولى : (أنت مسلم قبل ان تعرف الاسلام عن طريق الكتب ، لان الاسـلام مركوز فى فطرتك ، وقد حفظها الله لك فبقيت لهـا طاقاتها المتفاعلة مع الحق ٠) وكان لهذه العبارة وقع سـار فى نفسه ٠٠

وعقيب الافطـار كلف الشيخ بعض أحبابه بمرافقتنا الى المسجـد الجامع ، الذى لا يحسن بالزائر لبومباى أن يغفله ٠٠ وشكر الله لأبى الحسن لفتته هذه ، اذ كنت سأعود من بومباى بخسارة كبيرة لو لم أشاهد هذه التحفة الرائعة ٠٠

وكان رفيقاى فى زيارة المسجد امامه الشيخ محمد ابراهيم الخطيب وهو عـربى اللسان ، ويجمع بين الثقافتين ، ثم الشيخ شوكـة على نظير ، الذى ينوب عنه فى غيابه ، وهو من خـريجى دار العـلوم ــ ديوبند ــ ولكليهما سـمت صـالح ، وخصـائص تسـتدعى التوقير والتكـريم ٠٠

المسـجد المدهش :

أما المسجد فقد بنـاه رجل من كبار التجار من أهل (كوكن) جنوب الهند على الساحل الغربى من بحر العرب ، اسمه محمد على ناخـذا ــ وناخدا بلغتهم الربان ــ ٠

والمسجد هذا كبير يتسع لسبعة عشر صفا مضروبة بمئة مصـل ، ويتألف من دورين ، يقوم اسفلهما على سبعة وعشرين عمودا ، وينهض دوره الاعلى على عشرة اعمدة ، تحمل قبته المستطيلة التى تبـدو من اعاجيب الهندسة ، ويستوعب كلا الدورين قرابة الاربعة الالاف ، وقيل لنا ان النسـاء لا يحضرن الصلاة فى هذا المسجد الا فى ليالى رمضان حيث يشـاركن ، من امكنتهن الخاصة ، فى صلاة التراويح ٠٠

ويحيط بالمسـجد من الخارج صـف من الحوانيت موقوفة لتمويله ، وقد فرشـت سطوحها بأنواع الفسيفساء ، وقامت على زوايا جدرانه مصغرات المنائر التزيينية على طريقة المساجد الهندية ، وبينها المنارتـان الرئيسيتان تطاولان الفضاء ٠٠ والالاف من المصلين فى المناسـبات

الكبرى فى كلا الدورين يصلون بصلاة الامـــام ، الذى يؤم الناس من الدور الارضى ، ويتلقى الاعلون صوته اليوم عن طريق المكبرات ، ومن قبل عن طريق الفتحة القائمة فوق مقـــام الامام ، ينقله اليهم المبلغون فى الدورين ·· وقد شاهدنا عدة مساجد من ذوات الطبقتين فى عدة مدن من الهند تصور اقبـــال المسلمين على المساجد فى زحـــام يضطرهم الى مضاعفة الطوابق على هذه الصورة ··

ويلحق بالمسجد مكتبتان مكتظتان بنفائس الكتب ، احداهمـــا فى الدور الارضى ، والاخرى فى الاعلى ، ويكثر فى هذه المخطوطات الى جـــانب المطبوعات ··

ولقد رأينا الى جانب المكتبة الارضية غرفا معدة للتدريس ، الـذى قيل لنا انه توقف لبعض الاسباب ··

ويقوم المسجد كله على ركائز ضخمة ضمن بركة كبيرة يتـــدفق ماؤها من ينابيع تحته تجرى الى حيث لا ندرى ··

وموضع العجب فى ذلك المسجد المدهش نقوشه التى تمسك بصـر الزائر فلا يكاد يرتوى من ملاحظتها ، ولا يكاد يعرف من أين ينبغى أن يبدأ ولا أين ينتهى · السقف والجدران والعمد والارض والمحـــراب والابواب و ··· وكل مافى هذا المكان معرض يصور عبقرية الرســام والنقاش ، على النحو الذى يذكرك بالنابغة الديبانى وهـــو يصف الاثار الرائعة التى أنشأها مفـــو العرب والرومان فى هياكل تدمر ، فكـانت فى تصوره من الاعاجيب التى لا يحسنها الا عباقرة الجن فيقول :

الا سليمان اذ قال الآلــه لــه	قم فى البرية فأحددها عن الفند
وخيس الجن انى قد أذنت لهم	يبنون تدمر بالصفاح والعمـــد

وانى لاستشعر عجز القلم عن الوفـــاء بجزء من هذه النقـــوش ، فكيف باستيعابها جميعا ! ·· لذلك سأوجز الكلام فى اشارات خاطفـة الى اهم ما بقى فى الذاكرة من هذه المشاهد ··

تحـــف لا توصـــف :

بمجرد اطلالتك على المدخل الرئيسى للمسجد تفاجئك الروائع فى ما تحت قدميك وعلى جانبيك ·· فالارض من الرخـــام اللبنى محفـورة على صـــور محيرة من الزهر والاشكال الهندسية الاخاذة ، والمقـــاعد

الكبيرة على يسارك تدعوك للاستراحة عليها قبل الولوج الى قلب المسجد، فيشغلك منظرها عن مهمتها ، اذ تريك عبقرية الانسان الخارقة التى ذللت صلابة هذا الصخر الابيض الناصع ، فجعلت من كل جزء منه مسرحا للبصر والفكر ٠٠ وعلى الجانب المواجه له تقوم الابواب المصنوعة من خشب (اسيسم) الاسود ، ولعله المسمى بالساج فى مقامات البديع الهمدانى ، وكلها محفور بصور شتى متداخلة من انواع الزهر ، المنافسة لأزاهير الأرائك الثلاث ٠٠ حتى اذا اخذت طريقك الى داخل المسجد رأيت هذا الفن يواجهك انى توجه بصرك ، ثم لا يفارقك ما دمت تتحرك فى أى من الدورين ، وحتى السطح يحتفظ بنصيبه من هذه الزخارف ، بله المنارتين السامقتين ٠٠

ومما يلفت النظر ان هذه التحفة الفنية الباهرة تكاد تكون محجوبة عن الابصار ، فلا يراها الا المصلون الذين ألفوها فأوشكوا ألا ينظروا اليها ، والا الزائر القاصد اليها من مكان بعيد ٠٠ ذلك بأنها تقع فى حى قديم تحدق به من كل صوب المحال التجارية والمساكن الشعبية ، فلا يبدو منه للمارة سوى منارتيه ٠٠ وهذا ما أتعبنا كثيرا فى الزيارة الاخيرة ، اذ كنا عائدين مع الاخوة الثلاثة من رفد الجامعة الى ندوة الادب الاسلامى بطريقنا الى المملكة ، فرحنا نبحث عن هذا المسجد ، أو من يدلنا عليه ، حتى كدنا نيأس من لقائه ، لولا ان وجدنا أنفسنا فجأة على مقربة منه ٠٠ وكان النصب قد أخذ من الاخوة فلم يصبروا أنفسهم على مشاهدته الا قليلا ٠٠

اما وقد فرغت من حديث المسجد العجيب فلا بد لى من تذكير القارىء بأن لى رأيا فى هذه الزخارف لا يتفق مع وجهة نظر القائلين بنظرية الفن للفن ، الذين تصرفهم مغريات الدنيا عن أهداف الاسلام ، وفى مقدمتها اقامة بناء الامة التى تقيم حجة الله على عباده ، بتقديم الانموذج الاعلى للمجتمع المتوازن السعيد ٠ وهو الرأى الذى أسلفت بعضه فى بعض الحلقات عند الكلام على قصور ملوك الشيعة فى لكناو ، وسأتمم عرضه عند الحديث على القصور الملكية الاخرى فى دهلى وأكرا ان شاء الله ٠٠

محمد وشوكه علي :

وبصحبة الاخوين الفاضلين الشيخ محمد ابراهيم ونائبه مضينا للبحث عن العود الجيد ٠٠ وفى أحد الشوارع الكبرى توقفا قليلا ليخبرانى بأنه يحمل اسم مولانا محمد على ، وان هناك شارعا آخر يحمل اسم

اخيه شوكة على ·· ودون انتظار لاى شرح وجدتنى اتذكر دلالة الاسمين ومنزلة صاحبيهما فى نفـوس المسلمين ، ليس فقط فى الهنـد بل فى العالم الاسلامى كله · وما احسب احدا من مثقفى جيلى يجهل انهمـا من كبـار زعماء التحـرير فى كفـاح الهند الكبير ·· وان محمـد على بخاصة هو دفين القدس ، وصاحب المرافعة الرائعة التى دافع بها عن نفسه امـام القضاء الانجليزى ، وتعتبر من نصوص الثقافة والجهاد الاسلاميين العالميين ··

وجـدير بالذكـر أن كثيرين من القـراء تختلط عليهم هوية هذا المجاهد الكبير بشخصية سمى له هـو محمد على اللاهورى الاحمـدى صاحب التفسير المنحرف ·· وشـتان بين المسلم المستقيم والقـاديانى المضـلل ··

وانمـا أطلق اسم الزعيمين المسلمين على ذينك الشارعين من قبـل بلدية بومباى تقديرا لجهودهما فى معركة الحـرية ·· وهو وضـع يتناقض كل التناقض مع اقامتها العديد من تماثيل المجوسى (شيوه جى) الذى لا مأثرة له فى تاريخ الهند الا غدرته الحقيرة ببطل الاسلام السلطان الراشدى العظيم (أورنك زيب) ولكنها على كل حـال ظاهرة طيبـة تسجل لبلدية بومباى فى اطلاقها اسماء بعض رجال الاسـلام على بعض شوارعها ، فقد رأينا قبل هذين الاخوين اسم (محمد عمر رجب) يتـوج شارعا آخـر ، هو الذى تقوم فيه المدرسة الرحمانية ، التى تنـزل فى ضيافتها · ولعل ثمـة أسماء مسلمين آخرين أطلقت على مناطق أخرى لم نرها بعد من هذا البلد ··

العـود أغلى سـلع الهنـد :

وبعـد قليل عـرج بنـا الرفيقان الفاضلان على متجر أحـد العطارين من معارفهما ، وفى غرفة علوية صعدنا اليها مع صاحبها الحاج عبد القيوم ، الذى هـرع لاستقبالنا ، الفينا عددا من أهل الفضـل · وبعـد حـديث اسلامى ذى شجون وشئون عرض علينا عينتين من أفضل العـود الذى عنده ، ولكن بسعر لم نتوقعه · أما أحدهما فثمن الكيـل الواحد منه ستة وثلاثون الف روبية ، اى ما يقارب الخمسة عشر الـف ريال سعودى ، وأما الثانى فثلاثة وعشرون الف روبية · والفرق بـين النوعين من الدقة بحيث لا يدركـه الا خبير ، وهم يعرفونه بمجرد جسه وزنتـه ··

ولو قررنا الشراء لكان علينا ان نختار الاغلى ٠٠ ولكن استعدادنا المالى كان دون ذلك ، فاكتفينا باخذ عنوان المتجر على ان يكون الاتصال به بعد مشورة الموصين عليه من اخوة المدينة ومعلوم أن هـذا السعر الخيالى ما كان ليكون لولا اقبال اصحاب الملايين من دول الخليج على اقتناء العـود بالغـا ما بلغ ثمنـه ٠٠

واخـيرا سألنا الحاج عبد القيوم عن دهن السمك الصحيح فنفى وجوده فى هذه الايام ، وعرض علينا نوعـا آخـر من دهن العنبر الجيـد ، بواقع مئة وعشرين روبية للعشرية ـ قارورة الغرامات العشر ـ وقـدم الينا واحدة على انها هدية ٠ وهنا ايضا حاولنا الاعتـذار ، وعرضنا الثمن بالحاح ٠٠ فاصر على الرفض ٠٠ وليجزه الله عنا كل خـير ٠٠

١البحـــــيرة الســـــاحرة :

عصارى اليوم ٢٧ـ٢ وافانا السائق اسماعيل الى مضافة الرحمانية ليحملنا بسيارته فى جـــولة ثانية ، نستطلع خلالها بعض الجوانب التى لم تتسع لها الجولة الماضية من معالم بومباى ٠٠ وكان علينا ان نسلم اليه قيادنا فـــلا نسأله الى أين ٠٠ الا ان تشوقنا معرفة بعض المشاهد فنستوضحه عنها ، وهيهات أن يذر لنا مجالا لذلك ، لانه عودنا ألا يدع شاردة ولا واردة الا حدد لنا هويتها وموقعها ، وهكذا انتهينا بعد ما يقارب الساعة الى تلك الضاحية الساحرة الجامعة بين الطبيعة والصناعة ، والتى تنتهى بمتنزه قـــل نظيره ٠٠

انه منطقة جبلية تغمرها الخضرة ، ويرتفع فى جوانبها الأيـــك مختلف الاشكال والاطوال ، وفى طرفه الشمالى فجوة شديدة الســـعة بين مجموعة من الجبال المنخفضة تشبه بطن الماقول فى ضواحى المدينة وفيه يتجمع مـــاء المطر منحدرا من المرتفعات . ليشكل بحيرة رائعـــة واسعة ٠ حتى اذا طغى المـــاء متجاوزا ضوابطه المحددة ، تلقتـــه المسارب المعدة لتصريفه الى أعماق الاودية ٠٠

ومن هذه البحيرة تستمد بومباى خمس حاجتها من مـــاء الشفة ، عن طريق اربعة او خمسة اقنية مغلقة هائلة الحجم مررنا بأحدها أثناء الطـــــريق ٠٠

ولقد نظم حـــــذاق المهندسين حول البحيرة وسائل للترفيه ، تبعث البهجة والنشاط ، وتجتذب أفواج السواح ، والسكان يصطحبون طعامهم وشرابهم ودربكاتهم ، فيأكلون ويشربون ويرقصون ويلعبون ٠٠ كلهم دون اســـــتثناء ٠٠

فنـــــون ومرفهـــات :

ومن المرفهات الممتعـــة للصغار وأشباههم هناك كرة لا يقل قطرها عن الخمسة الامتار ، صنعت على شكل رجه انسان ، عيناه نافذتان مشبكتان وفى جوفه منزلق يتزحلق من داخله اللاعبون على منحدر يبدأ من داخل الكرة وينتهى بهم الى مخرج فمه ٠٠ والى جانب الكرة اسطوانتان بمثل ارتفاعها يعلو كلا منهما وجه ينظر الى الاخر بابتسامة توشك ان تسمع قهقهتهـــــا ٠٠

وعلى مقربة من المكتب الخاص بالاشراف على هذا المتنزه أقيم نصب ذو اربعة جدران من الرخام ، كتب على كل منها تاريخ انشائه باحدى اللغات الاربع الانجليزية والهندية والكبراتية و ... وفيها ذكـــــر البريطانى الذى قام بهذا العمل الرائع واسمه « الكابتين جـراهام » ، ويحدد تكاليف هذا المشروع بخمسة ملايين وستمئة الف روبية ..

مصـــــانع وحـــــدائق :

وبالعودة من ذلك المتنزه مررنا بالعديد من المصانع ، بينها وأهمها واحد لتجفيف الحليب ، وهو الكبير يقوم فى منطقة مخصصة لتربيـــة الجاموس على أحدث الاساليب ، وقد زرعت بالاعشاب المغـــذية لها ..

وعرجنا هناك على حديقة على سطح الهضبة ، قد نسقت بـأروع الخطط ، وفرشت أقسامها المتدرجة بالخضرة الباهرة ، وانتشر النـاس اثناءها مشـــاة وركبانا فى السيارات والاراجح ، كأنهم فى مهرجان .. ومن أعلى هذه الهضبة شاهدنا واحدا من أمتع مناظر الغـروب ..

والحق ان فى ما ذكرنا وما أغفلنا من ظواهر التنسيق والتجميل ما يؤكد ان للانسان فى موازين بلدية بومباي قيمة تستحق الاهتمام .. ولعل هذه النظرة الكريمة تمتد ذات يوم حتى تشمل ســـــكان شوارع (كامانى بوره) التى نقلت صورتها الباكية ، من قطاعات هذه العاصمة العالمية ، فلا تكون هاتيك المباهج كمديرية التحـــــرير الناصرية ، التى اقيمت لايهام السواح والزوار بأن ناس وادى النيـــل يعيشـــون تحت سلطان الثوريين فى جنة لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا .. على حين حجبت عن الانظار ملايين المساكين ممن ضاقت بهم سبل الحياة فـــلا يحسون منها الا وجهها القمطرير ..

وفى ذلك الجانب السعيد من بومباى مررنا بعدد من الابنية الكبيرة النظيفة ، واخبرنا الاخ اسماعيل أنهـا مصـــانع الحجارة الكريمـة ، تستوردها الهنـد من افريقيـة وغيرها ، ثم تصدرها بعد الصقل والتصنيف الى مختلف انحـاء العـالم ..

الأسـطورة التى صـنعها الوثنيـون :

وواصلنا المسـيرة المـاتعة بين المرتفعات الرائعة حتى صرنا الى منطقة (جـوهر) البحرية .. ذلك المتنزه الشعبى الآخـر .. حيث يعرض

كل ما يشتهيه المتنزهون من الاطعمة والاشربة ، ووسائل الترفيه ومغريات السواح من المصنوعات البحرية ·· حتى الجمال والخيول للراغبين فى الركوب ، وحتى الاراجيح لهواتها ، والمقاعد الحجرية المنقنة لمن شاء اراحة قدميه ··

وفجأة يقع بصرنا فوق بسيط غير صغير من ذلك الرمل على تمثال مصلوب ، قد عرى جسده من كل ساتر غير سوأته · ودقت فى راحتيه المسامير ·· ولم يعوزنا المشهد الى كبير تفكير حتى ندرك ما أراده عارضوه ·· انه صورة المعبود الذى أهانه عابدوه حتى جعلوه لعنة ، ولم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنه تحمل هذا المصير لتخليصهم من لعنة الخطيئة التى اقترفها أبو لهم مرت على موته الالاف من السنين ·· ولعل كثيرين منهم يعلمون كما نعلم أنها أسطورة صنعتها أهواء الوثنيين من قدامى الهنود والصينيين والمصريين ، الذين عجزت عقولهم عن الارتفاع الى أنوار التوحيد الحق ، فخرقوا لانفسهم أوهاما تصور لهم أن نوازع الشر فى الانسان أصيله لا سبيل الى الخلاص من أعبائها الا بأن يتحمل الههم خطاياهم ، ويضحى بنفسه فداء عنهم ! ··

والأغرب من ذلك التصور الطفولى كله أن يحاولوا اقناع العقول السليمة ، والفطر السوية بقبول أوهامهم هذه ·· فهم من أجل ذلك يعدون هذا التمثال المسكين ، ليقص على الناس أضلولة الاله الذى عجز عن انقاذ عباده الا بتسليم نفسه للقتلة المجرمين ! ··

ومن شاطىء جوهر الى ميدان (شيوه جى) فى شارع (زارلى) حيث تعرض النسخة الثانية لتمثال الغدر ، الذى لعل المسلمين قد ألفوا منظره فلم يعد يحرك فى صدورهم ما أحسه فى صدرى حين النظر اليه ·· وقد اختير له هذا الميدان لانه مجمع لاروع وأحدث عمائر بومباى التجارية ··

وفى الطريق نفسه مررنا بالميدان الخاص بسباق الخيل ، الذى سبق ان شهدناه من الجانب الاخر ، وهو من السعة والروعة على جانب كبير ··

ضريح الحاج على :

وتوقف بنا اسماعيل على سيف أحد الخلجان التى تكثر فى شواطىء بومباى ، واذا هناك جزيرة صغيرة يرتفع من وسطها قبة

ومنارة تتوهجان باضواء الكهرباء ، الى أنوار شتى تملأ جوانب الجزيرة .. وسرعان ما علمنا ان ثمة قبر نزيل من الذين ينسبون الى الولاية ، يقال له الحاج على ، الى جانب أسماء اخرى له ، ويتناقل أناس من أخباره أنه أول عربى قدم هذه البقعة من ربوع الهند لنشر الاسلام وتمكينه ..

والمهم أن أصحاب البدع يجدون فى هذا القبر مجالا رحبا لاوهامهم ، فالمد والجزر متناوبان حول هذه الجزيرة حتى لينقطع الوصول اليها فى بعض الليالى ، ومع ذلك لا تغرق ولا تتأثر ، وليس هذا ـ فى زعمهم ـ الا من بركات هذا الولى ، لذلك يكثر التهافت على قبره للتبرك ولطلب الحاجات ..

واتفق ن شاهدنا فى مدخل الطريق الموصل الى تلك الجزيرة فتى تلوح عليه سيما التهذيب ، وقد اتجه ناحية القبر وجعليتمتم بدعاء طويل ، حتى اذا فرغ من ضراعته استوقفناه وحييناه وسألناه عن اسمه تآلفا له ، فأجاب أنه يدعى أرشد خان ، وعند استيضاحه عما يفعل قال : ان له حاجة يرجو قضاءها من الله ومن صاحب هذا الضريح .. وبمنتهى اللطف ذكرناه ووعظناه ، وحركنا فطرته النائمة ، فخجل وراح يتمتم : أنا لست جاهلا ، وانى لاعلم ما يجب ..

ولقد تركنا الفتى ونحن موقنون أننا زلزلنا بناء الخرافة فى قلبه ، وأودعنا صدره بذرة الحق التى لا بد ان تنبت وتنمو وتثمر بمشيئة الله ..

صور لا تمحى :

وهناك مشهد آخر من هذه العينة واجهناه فيما بعد أثناء خروجنا الى المطار يوم العودة الى جدة لا أرى بأسا من التعجل بذكره فى هذه المناسبة . فقد توقف بنا السائق الصديق عند احدى الاشارات الضوئية ، ليطلب لنا بعض الشراب ، وهنا شد أبو سحبان بيدى وهو يشير الى منظر لم أتوقع مثله قط . حانوت لا تزيد مساحته على ٣ × ٣ م يتكوم فى وسطه شىء بحجم الجمل مستطيل مسنم ، يجلله نسيج من القماش اللامع لعله من الحرير ، وتتناثر فوق النسيج أفواف الازاهير المختلفة الالوان ، واكثرها من الاصفر الفاقع .. وهناك رجل فى العشرينات من سنيه يمرغ جبهته عليه ، ثم ينتقل الى مختلف جوانبه،

ساجدا على كل منها ·· ولما فرغ من عبادته خرج القهقرى حتى تجاوز العتبة ·· وما كاد يزايلها حتى اخذ مكانه رجل آخر ، فجعل يقوم بالتمثيلية نفسها ··

ولاحظت بجوار هذا الحانوت واحدا آخر بمثل حجمه يعرض انواع الزهر للساجدين العابدين فيسهل لهم مهمتهم الضالة ·· ومن يدرى فقد يكون بائع هذا الزهر ، وهو فى الخمسينات من عمره ، هو المنشىء لهذا القبر طلبا للرزق ، ولعل القبر نفسه خال الا من التراب على طريقة أحد القبرين اللذين أسلفت ذكرهما عند مغادرتنا لمدينة بنارس ··

وعدت الى السيارة متفطر القلب من الاسى على ناس يسمونهم مسلمين وليس عندهم من الاسلام مقدار حبة خردل ·· ولا يجدون من يهدى اليهم كلمة تذكير ··

واقبل رجل ملتح من مطعم مجاور يريد ان يسلم على تكرمة لثوبى الشرقى ، فسألته : لماذا تسكتون على هذا المنكر ؟ ·· أليس لهذا المخلوق المضلل من حق عليكم ؟ ··

ولقد غادرت يومئذ بومباى وفى خيالى صورة لا تمحى لذينك القبرين المعبودين من دون الله ، وبخشوع يفتقده الكثيرون من أهل التوحيد ··

ولا حول ولا قوة الا بالله ··

حـــوار مـع الشـيعة :

كنت أكتب بعض مشاهداتى حين دخل على الفتى العراقى ـ برافق والـده المريض ـ ومعـه أحد شيوخ الشيعة العـراقيين ، وطبيعى أنى عرفته من زيـه المميز ، واثنان آخران من العـرب أيضا . وأعـبـر الرجلان عن سرورهما بلقائى لانهما ـ على حد تعبيرهما ـ سبقت لهما معرفتى من خلال ما يقرآن لى .. وأظهر الفتى أسفه لانه لم يعرف اسمى إلا بعد مغادرته الدار التى كان اجتماعنا فيها مع الشيخ أبى الحسن ..

وبادرا فأبلغانى رغبة من وراءهم من كبار الشيوخ فى لقـــائى ، وعلى رأسهم ذلك المندوب الذى يمثـــل كبير مراجع الشيعة ، الذى كان يريد زيارتى لولا انشـــغال وقته بمقابلة الزائرين الذين لا ينقطـــع سيلهم .. ودعوانى الى مرافقتهم بالسيارة الواقفة بالانتظار .. فأعتذرت بأن وقتنا مشغول كـــله طوال ذلك اليوم ، وبعضه فى الغداء مع أبى الحسن .. واتفقنا على أن نتصـــل بهم هاتفيا لنخبرهم بما اســـتقر عليه الرأى ضحى الغـــد ..

ولقد عرضت أمر هذه الدعوة على فضيلة الاخ أبى الحسن فلم يـر بأسا فى الاجابة ما دمت أرى فى ذلك مجالا للتعاون على تخفيف شدة متعصبيهم عن التحرش بمقدسات أهـــل السنة ، كما لاحظنا فى فتنـة لكناو ، حيث أراد الشـــيعة الخروج فى موكبهم التقليدى الذى يعلنون فيه الاساءة الى صفوة رجال الاســـلام .. وكادت تقع الواقعة لـــولا لطف الله بتدخل السلطة التى حجزت بين الفريقين ـ كما أسلفنا ـ ..

وفى الموعـــد المضروب اتصلت بالقـــوم على الرقم الذى حددوه، وبعد ما يقارب نصف الساعة أقبل الفتى بالسيارة ، فأقلنا الى مقر المندوب الذى استقبلنا بالترحـــاب ، ويبدو أنه يعرفنى فعـــلا من خلال بعض آثارى ، وقد جعل يذكر منها مالا أذكره ، وقد رغب الى ان أؤمن لـــه نسخة من ديوانى الثانى (همسات قلب) فوعدته خيرا ..

ولقد وجدت المندوب الشـــاب عالى الثقافة فصيحا مبينا .. ودار الحديث بيننا حـول حاجة المسلمين الى التوحـد والتعـاون .. وكان مما قلته له : كيف تريدون من أهل السنة تقاربا وهم يســـمعون الى غوغائكم يرفعونعقائرهم بالتحدى لمشاعرهم واعلان عـــداوتهم ! .. وضربت لـــه مثـلا بحوادث لكنـــاو وغيرها .. فكان تجاوبه تاما معنا ، وأعلن ان علماء الشـــيعة أبلوا العـــوام ان ذلك التحدى حـــرام

قطعا ، فقلت من الخير أن تصدروا بيانا مكتوبا بذلك حتى تسكت تلــك الالسنة التى تتغذى بالفتنة ·· فقال : ان اساس المشكلة هو انصـــياع العامــــة الى دسائس الساسة الذين لا يخافون الله ، ولا يرعون مصلحة المسلمين ·· وضرب لذلك مثـــلا أن هذه الفتن لا تنبعث فى الهند الا على مشارف الانتخابات فى الغـــالب ··

وأخيرا عرض رغبته فى زيارة الشيخ أبى الحسن للبحث معـــه حول الدعوة الى مؤتمر يضم كبار علماء الفريقين ، وفيه يتفقــون على الاصول التى تقمع الفساد ، وتصون الوحدة ، ويصدر عنه بيان يعلن موضوع الاتفاق ، ويدعو الامة الى التزامه ، على ان يعتبر الخارج عنه خارجا على مصلحة الامـــة ··

وبما ان هذا العرض يتفق مع افكارى الخاصة فى هذا الجـــانب ، فقد وعدته بأن أنقل رغبته الى سماحة الشيخ ، واستطلع رأيه فى اللقـــاء المنشود ·· وافترقنا على ذلك ·· وفى طريقنا الى المطــــار رجوت من صاحب السيارة الشيخ عــــلاء الدين ان يعرج بنا على منزل الشــــيخ محمد حى ، صاحب شركة الحافلات العاملة بين بومباى ومهرات ، وهناك ودعت نزيله فضيلة الشيخ أبى الحسن ، وأبلغته أمنية الرجل فــوافق عليها ، ولم يــر بأسا فى استقباله ·· وتركت لابى سحبان تحديد الموعد وابلاغـــه المندوب ··

المؤنس الحبيـــــب :

وكانت الساعة السابعة ـ بتوقيت الهند ـ عندما ارتفعت بنـــا الطائرة السعودية الترايستار الى الاعالى ، برعاية الله لتأخذ سمتها باتجـــاه الظهران فجـــدة ··

وشـــد ما كان سرورى كبيرا حين انطلق صـــوت المذيع فى القلعة الطائرة يعلن للركب البلاغات المعتادة عن الوقت والمدى والاتجاه ومواعيد الهبوط والصـــعود ··

وانمـــا جـــاء السرور من ارسال ذلك الاعلان بلغـــة القـــرآن ، متوجا بأحب الكلمات الى قلوب أهل الايمان : (بسم الله الرحمن الرحيم) لقد كان ذلك النغم بمثابة البشرى تطرق سمع المستوحش ، وقد ســـمع بغتة صـــوت مؤنســـه الحبيب ··

ويا ليت ذلك المذيع قد أتم ايناســـــه فقرأ على الركب الغافل عن

أهمية مسبحه في ذاك الفضاء ، الذى لا سلطان فيه الا الله الواحد القهار ٠٠ ليته أتم فتلا علينا آيات من كتاب الله تذكرنا بموقعنـــا الخطير ، وحاجتنا الماســة الى رحمة اللطيف الخبير القدير ، كمثل قوله تعالى : ((فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ـ ١٢٥ الانعــام) ٠٠

أو قوله عــز من قائل : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بهــا جاءتها ريــح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعــوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ـ ٢٢ ـ فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق ٠ يا أيهــا الناس انما بغيكم على أنفسكم متــاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بمــا كنتم تعملون ـ ٢٣ ـ يونس) ٠٠

وكم سيكون مفيدا أن تتبع هذه الآيات بشرح وجيز يذكر الانسان بمبدئه ومصيره وواقعه فى الوجود ، وحاجته الدائمة الى موجد الوجود ٠٠ فتكون الرحلة مغمورة برحماته ومحفوفة ببركاته ٠٠

وحبذا لو يكون ذلك ديدن الطيران السعودى فى كل رحلة ، على أن تكون ثمــة آيات تتبعها شروح مكثفة ومسجلة لطائفة مختارة من اكابر مفكرى الاسلام ، وبمختلف اللغات العالمية ٠٠

ومن أحق من الخطوط السعودية بهذه المأثرة التى لم يسبق اليهــا حتى الان ٠٠ ولا جــرم سيكون لهذا الخير مردوده المشكور ٠ ولا سيما فى أيــام الحج ٠٠

أمنيــة لعلهــا تتحقــق :

وأنظر الساعة فى الجزء الاخير من مذكراتى عن هذه الرحلة فأقرأ الكلمات التاليــة :

فى قاعة الانتظــار من مطــار بومباى ، ألفيت نفسى فى جوار لا احســد عليه ٠ فها هنا عجوزان هندوسيان ينتظران مثلى موعد الانتقال الى الطائرة ، وقد ارتدت المرأة منهما السارى الوثنى ، تعرض بطنهــا وظهرها فى قحــة القرود ٠٠ ثم يكون مكانهما فى الطائــرة بنفس الجــوار حتى هبطت الطــائرة فى مرفأ الظهران ٠٠ وعلى الرغم

من تبدل الامكنة لدى استئناف الرحلة ظل حظى هو نفسه من ذلك الجوار البغيض .. واستمر هذا اللقـــاء الكرهى حتى الهبوط الاخير فى مطار جــــدة ..

ولكم تسءلت : أليس من حق حمـــاة الامن والآداب فى هـــذه المملكة العزيزة أن يلزموا نزلاءها باحترام فضائلها ولا أقول نقاليدها ، كما يفعل شرطة الاخلاق فى بعض الولايات الامريكية ، حيث يقطعون كل كعب لحذاء امرأة يزيد ارتفاعه عن الحد المقرر بمنشار خاص يتسلحون به لهذه الغـــاية .. ولا يسمى أحد ذلك التصرف عدوانا على الحريات الشـــخصية ..

الى مهبـــط الـــوحى :

وكان وصولنا مينـــاء جـــدة بعد الساعة الواحدة من نصـف ليل الثلاثين من صفر الخير ، أى فى الثانى من ربيع الاول على حساب الهنـــد .. ولم يكن ثمـــة من رحلات المدينة الحبيبة سوى واحـــدة توشــك على الاقلاع .. وحسب المألوف من رعاية الله تبارك اسمه وافانا الخـــير على يد موظف كـــريم فى قسم العبور – الترانزيت – ما أن علم بأمرى حتى انطلق لانجاز كل الاجراءات اللازمة لسفرى ، وفى أقل من ربع الساعة كنت فى سيارة المطـــار مع أمتعتى الى الطائرة .. وأحببت أن أتعرف اسم ذلك المحسن فاذا هو صبحى الساسى ، الذى لم أعـــرفه ولم يعرفنى قط ، وما احسبنى بقادر على نسيان هذا الاسم ما دمت أقدر عمل المحسنين .. جـــزاه الله عنى كل خـــير ..

وبذلك تمت نعمـــة الله على فعدت الى مهبط الوحى فى الليـــلة نفسها التى غادرت فى مطلعها بومباى ، وذلك بعــــد ثمانية وعشـــرين يوما من فراقه .. وكان الفـــرق بين الزمنين ساعتين ونصف الساعة دون زيادة ولا نقصـــان ..

وبهذه الحلقـــة تنتهى انطباعاتى عن تلك الرحلة لنبدأ الحديث عن الرحلة التالية ان شاء الله ..

العــودة الى لكنــاو :

السبت ٧ـ٦ـ١٤٠١ هـ ٠

ها نحن أولاء فى أحضـان التريستار السعودية تشق بنا أجـواز الفضاء باتجاه الهند ٠٠

وبعد استراحـة قصيرة فى مطـار الرياض استأنفت الطائـرة انطلاقتها ٠ وكانت ليلة ناعمة لم نكد نستشعر مرور سـاعاتها الست ، التى قضينا أكثرها نيـاما حتى حطت بثقلها فى مطـار دهلى ، وكان ذلك فى تمـام الساعة ½ ٥ مع صـباح الاحد بتوقيت المدينة ، أى الساعة الثامنة من يوم الثلاثاء بتوقيت الهند ٠٠

وعند ما أثبت التوقيتين على هذا الوجـه فانما أريد اشـعار القارئ بجهلى لهذا الفرق بين أيام دهلى وأيام جـدة ، فحتى الان لم أوفق الى حـل هذا اللغز ، وبخاصة بعد ذلك البحث العلمى الذى قرأته ذات يوم فى احدى المجلات الاسلامية مؤكدا ان ليس بين طنجـة وجاكرتا ، من الزمن والحيز الجغرافى ، ما يؤلف يوما كاملا ، ومعنى ذلك ان ثبوت رمضـان فى اى بلد على امتداد ذلك الخط يشمل بحكمه كل سكانه من المسلمين دون تفريق ٠٠

ومرة ثانية اعترف بجهلى المطبق لهذه القضية ، ولكن هذا لا يخفف من حيرتى وانا ارى الاندونيسى يصوم بعد سكان الحرمين بيوم ، والهندى والباكستانى يصـوم بعدهم بيومين ! ٠٠

وفى مطـار دهلى أعاننا الله بأخ فاضـل هو الدكتور عباس الندوى فانجـز لنا الاجراءات النظامية بمنتهى اليسر ، وأراحنا من مشـقة لا بد منها ، وبخاصة ان ليس بيننا ، نحن الاربعة مندوبى الجامعـة الاسلامية الى النـدوة العالمية للادب الاسلامى فى لكناو ، من يحسـن حل عبارة من لغـة القـوم ، اللهم الا الاخ الدكتور عبد الباسـط بـدر ، الذى يستطيع التحرك ضمن نطاق محدود من اللغة الأنجليزية ٠ وأبى الدكتور عباس أن يدعنا قبل أن يؤمن لنا سائر ما يعوزنا ٠ رها نحن أولاء بمسعاه الحميد نحتـل حجرتين صالحتين من فنـدق (أمبريال) احتجز كل اثنين منـا احداهما ٠٠ وكان حظى من الرفاق صـاحب الدكتوراه الآتية ، ان شاء الله الشيخ عبد الله القادرى ، عميد كلية اللغة العربيـة بالجامعة ، وهو الاخ القديم الحبيب ، الذى زوده الله

بنشاط فى الجسم ، وبسطة فى العلم ، وقدرة عجيبة على اختراع (المقالب) التى توتر انتباهك ، وتجعلك فى حذر دائم . . وكفى بهذه (المواهب) باعثا على الحركة التى تجعل للحياة معنى جميلا . .

معـــالم دهـــلى :

وقد أسلفت القـــول باننى سافرد لدهلى مجالا خاصا فى هـــذه الحلقات يوفيها بعض ما تستحق آثارها الاسلامية من اهتمام ، وها انذا استدرك من ذلك ما فـــات . .

لقد كان نزولى فى دهلى من قبل على طريقة العبور ـ الترانزيت ـ فلم اقم فيها اكثر من الوقت الذى يتسع للانتقال من طائرة الى اخرى ، لذلك كان أسفى غير قليل عندما اسمع بعض الاخوان يلومنى على حرمان نفسى متعـــة النظر الى مخلفات الحكم الاسلامى فى ذلك البلد ، الذى كان فى زمن ما مركزا هاما للحضارة التى شيدها نشـــاط المسلمين فى مختلف جـــوانب الحيـــاة . .

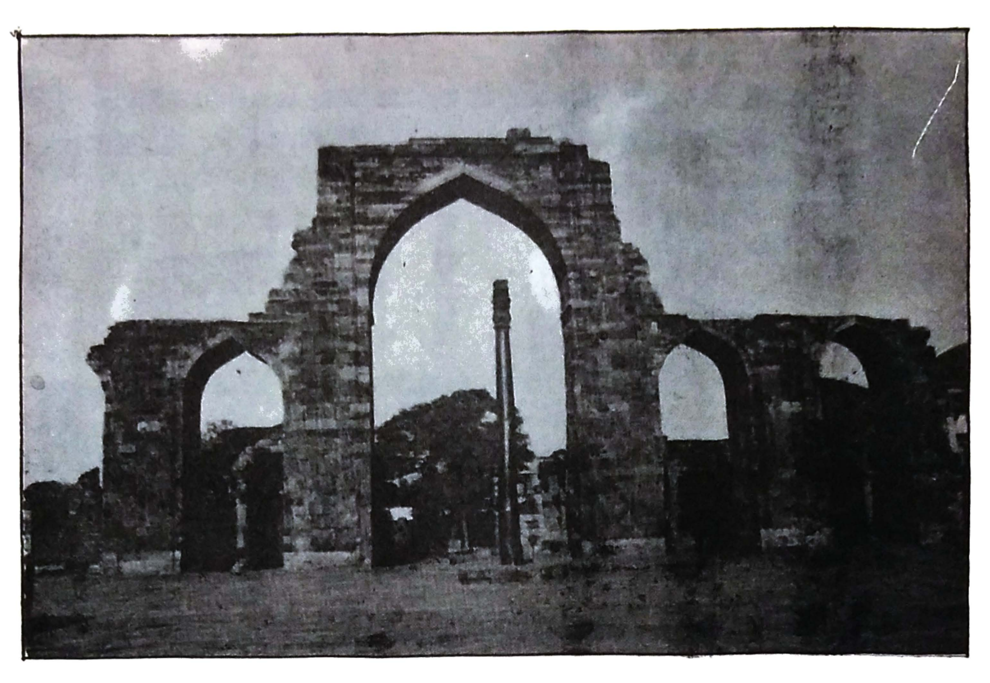
فهى اذن فرصـــــة لاستدراك ما فـــات . .

واول هذه المعالم التى قصدنا اليها المنارة المشهورة باسم السلطان قطب الدين ، وقد التقينا فى ظلها بالاديب الكبير الاستاذ عبد العـــــزيز الرفاعى . والحق انها اعجوبة الفن والسرف فهى برج لا يقل اهمية عن برج ايفـــل ، الذى هو مفخرة باريس ومهوى أنظـــار السيـــواح من شتى انحاء العالم . . وما احسب الباعث على انشائها هو الشعور الدينى وحـــده ، بل لا بد أن يكون ثمـــة أمران اخران أيضا ، أحدهما هـــو ارادة التحدى لمعالم الحضارات الوثنية ، والثانى هو الرغبة فى اثبات الذات على طريقة المعاصرين من رجال الحكم فى تخليد مآثرهم ، بامثال هذه البنى التى يشتد فيها تنافسهم . .

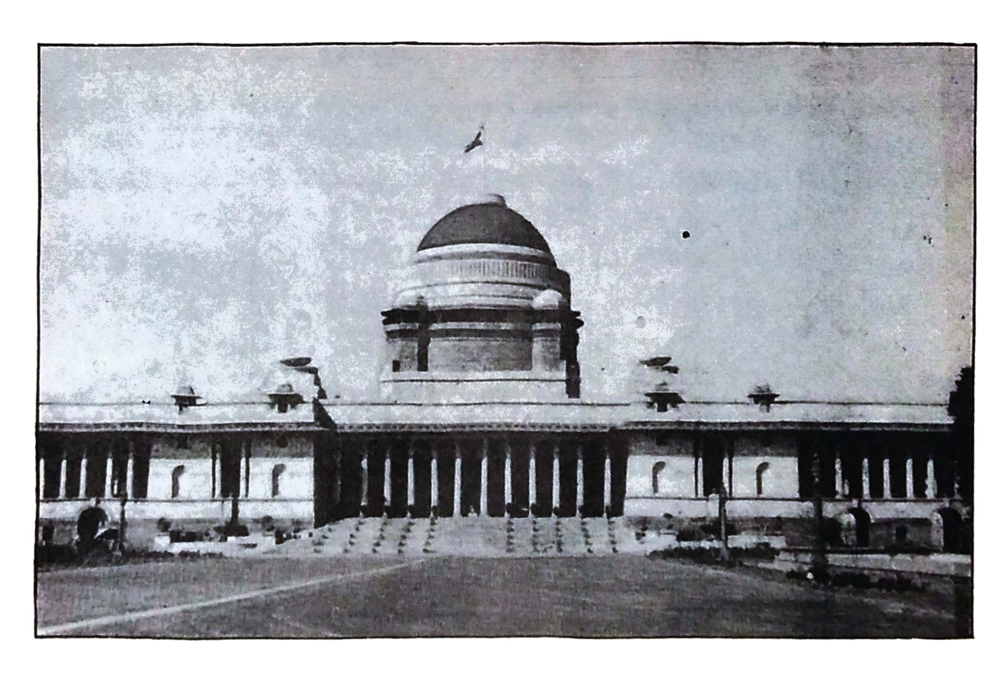
ومما يؤكـــد التقـــدير الاول كـــون هـــذه المنارة الهائلة تقـــوم فى وسط تكثر فيه اطلال المعابد الوثنية . .

منـــارة قطب الـــدين :

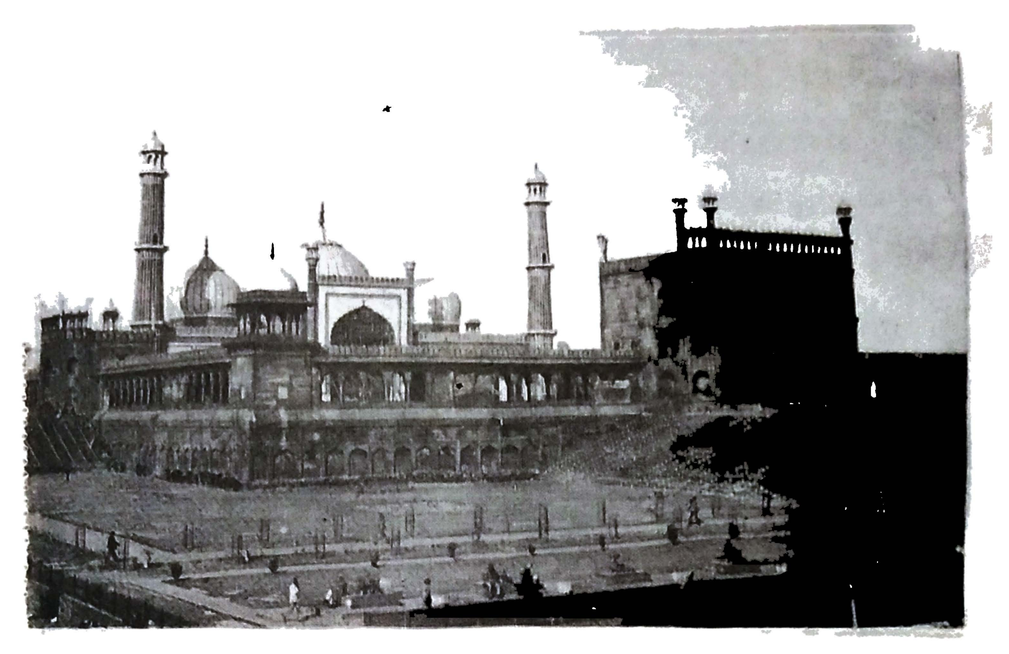
والى القـــارىء صورة مصغرة عن هذا المعلم العجيب فى ضخامته وارتفاعه ونقوشـــه . .



أطلال بعض المشـــات الملكية بجوار منارة قطب الدين بدلهى



قصر الرئاســـة بدلهى



مسجد دلهى الكبير



المدفن الملكي بدلهي

هذه المنابرة تتخذ شكل مجموعة من الاعمـــدة الذاهبة الى الاعالى حيث تؤلف خمسة ادوار ، فى جـوف كل منها سلم يصعد الى شرفتـــه على ١٩٧ درجة ·· وقد طـــوق كل دور منها بالآيات القرآنية بارزة بأروع الخطوط ·· واستغرقت قاعدة المنـــارة ما لا يقل بنظـــرى عن أربعمئة من الامتار المربعة ··

وقد باشر السلطان قطب الدين بنـــاء الدور الاول ، ثم تـــــلاه السلطان التمش فاتم الثانى والثالث ، ثم جـــاء بعدهما فيروز شـــاه تغلق فاتم بقيـــة الادوار ·· وهكذا تتابع على بناء هذا الاثر ثلاثة من سلاطين دهلى ، ولا بد انه التهم مئات الملايين من خزائنهم ··

ويقابل المنـــارة هـــذه قاعدة منـــارة اخـرى من الطراز نفســه بوشر ببناء دورها الاول ، ولكنه لم يتم منـــه سوى الدعائم الداخلية ، فبقيت عـــارية من كسوة الفن الذى ارتدته المنارة الاولى ولا ندرى ما الذى عرض لبناتها حتى توقفوا ·· ولعل الحائل دون ذلك عائد الى الحـــروب أو الى الافـــلاس ··

واطـــــلال تاريخيـــــة :

وفى جـــوار المنارة التامة اطلال مدرسة يبدو انها كانت خاصـــة بأبناء الحكـــام ، يتعلمون فيها القـــرآن الكريم وما لا بد منـــــه لامثالهم من الثقافة الاسلامية ، وقد زينت بالزخارف والنقوش ، وطوقت جوانبها بالآيات القرآنيـــة ، وهناك قاعدة خاصة بضريح السلطان التمش وهى عبارة عن مربع كبير بولغ فى أناقته وبرز فى وسطه الصـــندوق الرخامى الذى يرمز الى مثواه ، وتحت مدخل المربع درج يوصـــل الى القبر الحقيقى الواقع أسفل ذلك الشكل الرمزى ، وهو الطـــراز الذى شهدنا مثله فى (تاج محـل) بأكرا ، ويظهـــر أنه هو الوضع التقليدى المتبع فى مدافن الملوك أثنائئذ ··

والى جانب الساحة المخصصة لمسجد كان مقدرا ان يقوم هناك ، وان يكون متناسبا مع عظمة المنارتين ، بقية من أطلال معبد وثنى لا يزال معرضـــا لانواع من الاعمال الفنيـــة البالغة الدقة ، وقد نظمت بينهـــا ضروب من التماثيل تصور بعض معبوداتهم ، وطائفة من راقصى المعابد ··

وحـــول المنارتين والاطلال فسحة رحبة من الارض فرشت بأمثال النسيج الحريرى من العشب الدائم الخضرة ··

وكان من تمـــام المتعة ان وجدنا هناك بعض الباعة الذين يعرضون المصنوعات الوطنية ، وبينها مجموعات من الرسوم التى تصور هـــذه البقعة بما تشمله من الآثار التاريخية والفنية ، الى جانب العديد من الرسوم المختلفة لمعالم دهلى التاريخيـــة ..

وتصرمت ساعات فى هذه الجولة السياحية ، لم نستشعر مرورها حتى نبهنا أحد الاخوان .. فانصرفنا الى الفندق ، على نية أن نستأنف الحركة بالقصد الى المسجد الجامع ، مسجد شاه جهان الذى لا مندوحة للسائح الطلعة من زيارته ..

المســـجد الجـــامع :

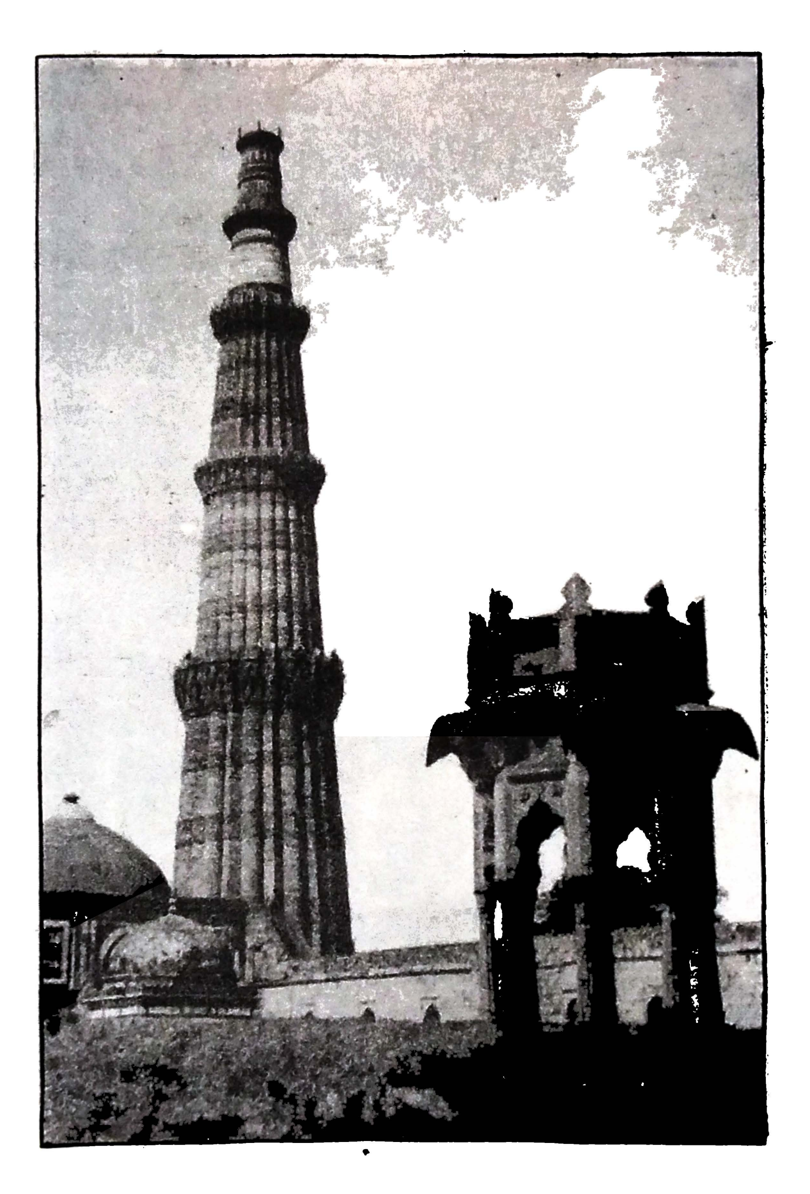
يقع هذا المسجد الجامع فى القسم القديم من المدينة ، ويمـــيز القسم الاخر عنه باسم (نيودلهى) أى دلهى الجديدة ، لانه الجانب الذى أحدثته بريطانية ، فأرادت ان تصرف به الاذهان عن ماضى المدينة حتى بالعدوان على الاسم ، اذ غـيرت موضع اللام منه فصار دلهى بـــدل دهلى ..

وأول ما يواجهك من دهلى القديمة مظاهر التخلف كأنهـــا شىء متعمد لابقـــاء سكانه ، وكثرتهم من المسلمين ، فى وضع أقرب ما يكون الى ما كانوا عليه قبـــل التطـــور العمرانى ، الذى يشمل كل شىء فى دلهى الجديدة : الشوارع العريضة المظللة ، والعمائر الشـــــوامخ ، وبخاصة الفنادق العالمية ..

والغريب ان اكثر ما تواجهه هنـــا من وسائل المواصلات المحليـــة هو الريتشاك ـ الدراجة الثلاثية التى يقودها الانسان ـ وهى التى لا تلمح لها أثـرا فى نيودلهى ! ..

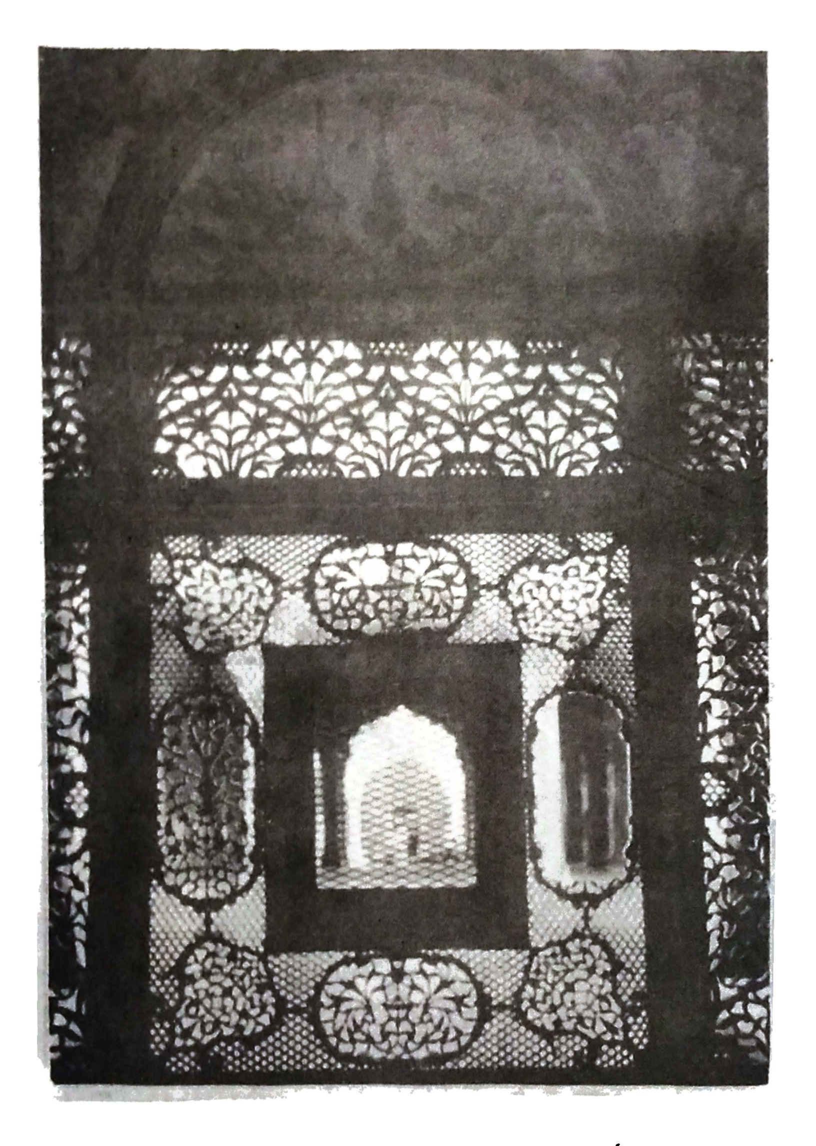
وها هو ذا المسجد الجـــامع .. انه يعلو عن الشارع ثلاثين درجة ، وتدخل الى فنائه المربع الفسيح من أحد ابوابه الثلاثة ، ومن هذا الفناء تصعد بعض الدرجات الى المبنى الكبير ، وهو مستطيل وذو امتداد كبير ، ويتسع فى الداخل والخارج لعشرات الالاف من المصلين ..

وصلينا المغــرب فى الصف الاول من الفناء بعد انفضاض الجماعة التى لم ندركهـــا ..



منظر اخر لمنـارة قطب الدين فى دلهى

واجهة أحد القصـور الملكية فى القلعة الحمراء بدلهى



واجهة أحد القصـور الملكية فى القلعة الحمراء بدلهى

وكانت الاضاءة ضعيفة وحزينة . وظاهرة الفقر والتخلف ماثلة فى كل شىء هنا ٠٠ حتى فى صنابير الوضوء التى بعد عهدها بالماء ، ولعل أبرزها وفرة المتسولين من عجزة النساء والصبيان والشيوخ ، الذين يستقبلونك على مداخل المسجد ، وفى الشارع المواجه ٠٠ ولهم الحاح عجيب لا تعرف كيف تتخلص منه ٠٠

نكــــرى المــــذابح :

وقال بعض رفاقنا ونحن نهبط آخر درجات السلم الحجرى الى الشارع : هنا قــام العديد من مذابح المسلمين التى قادها سنجاى بن انديرا غاندى ، ولا ســيما فى أعقاب عملية التقسيم بين الهند وباكستان ٠

ولا ننسى ونحن نشير الى المذابح الجديدة ، أن نذكر القارىء ببعض ما أسلفنا من ان دهلى ، ذات الماضى الاسلامى العريق ، والمعالم التاريخية الرائعة ، قد شهدت قبل ذلك ابادة العشرات من الوف المسلمين على ايدى المستعمرين الانجليز وحلفائهم من السـيك ٠٠

ولعل ذكر هذه وتلك من مذابح المسلمين قد أصبح من الاخبــار المألوفة التى تقرع سمع القارىء صباح مساء ، ومن كل جانب من الارض فلم تعد تستحق منه التأمل فضلا عن التوجع ! ٠٠

ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠٠

فى القلعــة الحمــراء :

فى الساعة ٤٥ر٩ من صباح اليوم وصلنا بسيارة الاجرة الى ميدان (القلعة الحمراء) وهى احدى المعالم الكبرى من آثــار الحضارة الاسلامية فى الهند ، ولا بد ان يكون لاسمها علاقة بلون حجارتها الخارجيـــــنة الحمــــراء ..

انهــا بنــاء هــائل فى الحجم والسعة والتخطيط والاعمال الفنيـة التى يتعذر تعدادها بـلـه وصفها ..

يحيط بها سور لا يزال محتفظا بسلامته ودقة صنعه ، مبنى بالحجارة المتناظرة بقياس ٥٠ × ٥٠ سم على وجــه التقريب ، ويعلو قرابة الخمسة من الامتار ، فى اربعة من الصفوف ، يفصل كل واحد عن الاخر طنــف كالقلادة يطوق السور كله ، ويؤلف الصف الرابع والاخير منها مقــاطع تزيينية مفرجة ، تتخللها مراقب مقببة رشيقة كأنها المظال ، ينطلق من أعلى وسط كل منها ما يشبه الحربة ، وبين المرقب والاخر مسافات متوازنة لا يقل الواحد عن المئة من الامتار ..

ويجارى لمتداد السـور الطويل خندق منتظم . لا بد انه كان يمتلى عند الحاجة بالماء يتدفق اليه من نهر (جمنــة) الذى يجاور القلعــة من جهــــة الشمال ..

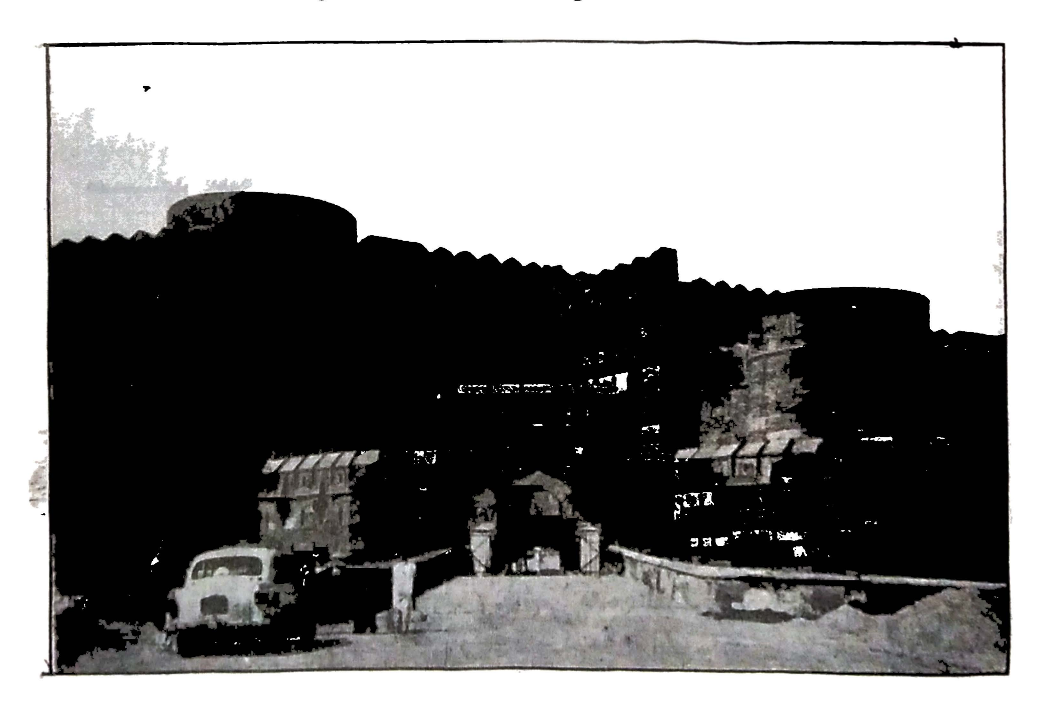
ودلفنا الى داخل القلعة بعد أداء الرسم المعتاد ، فاذا نحن تلقاء مدينة كاملة .. شوارع ومساكن وحدائق وحوانيت بارعة العرض ، فيها روائع التحف من صناعة الهند ..

تــاريخ عهـدين :

كل شىء من هذه القلعة الجبارة يؤكد انها بنيت فى الاصل لتكون مقــــر الاسرة الحاكمة ، والثكنة العسكرية المشحونة بالجنود والاسلحة لحماية المنطقة من المفاجآت .. وقد اعدت فيها المرافق التى توفر وسائل الحيـــاة لمجتمع قد يصل الى العشرة الالاف من السكان فى حـــــالات الــــطوارىء ..

وتمثل منشـــآت القلعة عهود المسلمين ، الى جانبهـــا آثــــار المستعمرين الذين اتخذوا منها ــ كما يبدو ــ مقرا لكبار قادتهم وحكامهم

مســجد فى القلعة الحمــراء بدلهى



القلعة الحمراء فى أكرا

.. ولكن الفارق بين الظاهرتين كبير ، اذ تمثل الاولى قمة الترف والقوة، على حين تصور معالم الدخلاء مجرد البساطة المرتكزة على التفكـــير البعيـــــد ..

ولنقف قليلا على بعض الاثار الملكية من عهود ما قبل الاستعمار .. حيث نشاهد الديوان العـــام ، وهو رواق كبير يتسع لالف انسان . وقد أطلت عليه من صـــدر القصر سدة مقببة بشكل هندسى عجيب ، شيدت بالرخـــام اللبنى ، ورصعت بالنقوش والصور الاخاذة .. وبين يدى السدة على مستوى أرض الرواق مائدة رخامية من اللون اللبنى نفسه . والظاهر من تنظيم هذه الاثار انها جعلت على هذا الوضع لتكون ملتقى الملك مع اساطين دولته او مبعوثى الحكومات الاخرى ، يجلس لهم فى أعلى السدة ، التى يخرج اليها من باب خلفها ، وينتظم الكتاب حـــول المائدة مستغدين لكتابة ما يسمعون على سجلاتهم الخاصة ..

وسيكون هـــذا الوصف كله ناقصا اذا لم أشر الى نوعية تلك النقوش والتصاوير المرسومة على السدة والمائدة ، ذلك ان كل رسم هناك يمثـــل لونه الطبيعى ، لا بالادهان بل بأنواع الحجارة الكريمة التى فصـــلت مقاديرها ، ونزلت فى مواضعها ، بدقة وصبر واناة لا يمكن تصـــورها ، وسأقص على القارىء ان شاء الله طرفا من هذا الفن ، الذى انقرض من سائر بلاد العالم الا هنا وبخاصة فى مدينة أكـــرا التى تحتفظ بالبقيـــة الباقية من ورثاء هذه الصناعة المدهشة ..

مســـجد عالمكـــير :

ومن هذه السدة الملكية الى مسجد السلطان الصالح عالمكير أورنك زيب ..

وعلى مدخل المسجد يواجهك اللوح الذى يؤرخ بناءه بالعام ١٦٥٩، ومنذ النظرة الاولى الى ظاهره وباطنه ندرك انه جزء لا يتجزأ من هذا المتحف العجائبى ..

انه مظهر بأروع الرخـــام المرصع بالزخارف المؤطرة . والمنزلـــة بالفصوص الملونة .. وقيل انه كان فى هذا المسجد درة نادرة المثـــال سرقها الانجليز فى ما سرقوا من نفائس هذه القصور .. وأحسبها هى التى تحدثت عنها الصحف العالمية مؤخرا على انها اكبر درة فى العالم تزين التـــاج البريطانى .. وان حكومة الهند قد شـــرعت تطـــالب باســـتردادها ..

الاستراحة الملكية :

ومن ثم الى الاستراحة التى يظن انها مصممة لاستقبال كبار الزوار ، وكل جزء منها غارق بألوان النقوش ، وقد رصعت اسقفها بالمذهبات الفائقة ، وعلى أحدها بيت من الشعر الفارسى ترجم لنا بالعبارة التالية (اذا كان فى الارض جنة فهذه ··) ··

ومن أعاجيب هذه الاستراحة المطلة على نهر جمنة تلك المنضدة الرخامية الأخرى التى تذكرنا دقائقها الهندسية بأخبار المائدة ، التى غنمها الفاتحان العظيمان موسى بن نصير وطارق بن زياد من انتصاراتهما فى الأندلس ، فكانت السبب فى أفجع مأساة لقيها واحد من أكابر أبطال الاسلام ! ··

وبعد ساعات عديدة فرت من أعمارنا كذلك دون انتباه ، قفلنا عائدين الى الباب الذى دخلنا منه ، وهو أحد الابواب الاربعة التى لم نر منها سوى المسمى باللاهورى ، على حين تحمل الاخريات أسماء الدهلوى والجمنى والسليمى ··

ولم نجد حافزا للنظر فى آثار المستعمرين ، بعد أن امتلأت صدورنا بالمواعظ التى خلفتها فى قلوبنا آثار المسلمين ··

فى مركز الجماعة :

وكانت مناسبة صالحة ان تضم ذكريات القديم من ماضى الاسلام فى دهلى . بعض المعلومات عن حاضر العمل الاسلامى ايضا ، وقد تم لنا ذلك من خلال زيارتنا لمركز الجماعة الاسلامية ، التى لا يسع منكرا اسلاميا ان يغفل اثرها العميق فى مسيرة الفكر الاسلامى ، لا فى الهند وحدها بل على مستوى العالم الاسلامى بأجمعه ··

والداخل الى هذا المركز المتواضع ، بل المسرف فى التواضع ، عقيب خروجه من قصور القلعة الحمراء وأطلال السلطان قطب ·· لا بد أن تمر فى خاطره لمحة من المقارنة بين الامس واليوم ، بين الترف الطاغى ، الذى حبس حكام المسلمين فى نطاق المتعة العابرة فسخروا لها كل شىء ·· الوقت والارض والانسان والمال ·· فلما استرفوا حظهم من هذه الظلال الخادعة ، مضوا الى ربهم ليواجهوا حسابه على ما فرطوا فى حق الاسلام ، وحق الضائعين من البشر على اهل الاسلام ·· ثم صورة الحاضر الآسى الذى انتهى اليه اعقاب اولئك الغافلين ، وقد جردوا من كل قوة الا ايمانهم بهذا الاسلام ، وتصميمهم على تداركه ما فات آباءهم من ابراز محاسنه وتعميق الوعى لحقائقه القيمة المضيئة ··

واستقبلنا فى مقر الجماعة اميرها الوقور الشيخ محمد يوسف ، واميتها العام الشيخ افضل حسين .. واتخذنا معهما مجلسنا على المقاعد الخشبية الفازية ، التى لا يملكون خيرا منها ، ولكنها كانت بنظرنا ابهج واجمل من تلك الارائك المتجاوزة حدود السرف ..

وتداولنا الحديث حول نشاط الجماعة ومدى جهودهم فى خدمة الدعوة ، فكان مما علمناه ان لهذا المركز فروعا منتشرة فى سائر انحاء الهند ، منها اربعمئة وثلاثة وخمسون للرجال ، وثلاثمئة وتسعة فروع للنساء . وكلا القسمين خارج عن نطاق النشاط الطلابى ، الذى يبلغ مئتين وسبعين فرعا خاصا بالطلاب ، وخمسة واربعين فرعا خاصا بالطالبات ..

نشاط يعم الهند :

وطبيعى ان يتطرق الحوار الى ميدان الاعلام ، فكان الجواب سارا جدا اذ علمنا انهم ، الى جانب عنايتهم بنشر الكتب والرسائل ، يصدرون عددا غير قليل من الصحف ربما يزيد على عشر من لغات الهند ..

وقد سبق ان تحدثنا فى احدى الحلقات عن جامعة الفلاح التابعة للجماعة في بالرياكنج القريبة من (اعظم كره) وفيها صور رائعة من النشاط الفائق ، وبخاصة فى الوسط النسوى حيث رأينا العمل جاريا فى انشاء الكلية الخاصة بهن ..

ولعل اروع ما لمسناه من مميزات هذه الجماعة هو صبرها النفسى على اذى بعض المنتسبين للعلم الاسلامى ، الذين لا ينفكون يوغرون ضدهم صدور السلطات ، وينسبون اليهم اسوأ المفتريات ! ..

والمتأمل فى اوضاع هذه الجماعة ، والناظر فى اخلاق قادتها من حيث الصبر والتواضع وصلابة العزيمة ، سواء فى الهند او باكستان ، يدرك انهم ملتزمون بسلوك مؤسسها الاصلى المودودى ، تصميما على العمل ، وصبرا على الضر ، وزهدا بمتاع الدنيا .. وهى العناصر الاساسية التى لا مناص من توافرها فى الداعين الى دين الله ، المجاهدين لاعلاء كلمته ..

واين هواة الترف فى النقوش والزخارف والبنيان ، من دعاة الهدى وجنود القرآن ! ..

والله الموفق والمستعان ..

من دهلي الى اكــــرا :

الثلاثاء ١٠ـ٦ـ١٤٠١ هـ .

ها نحن أولاء في مطار دهلي ننتظر موعد اقلاعنا الى مدينــــة اكـــــرا ..

لقد قررنا ألا نغادر هذه المنطقة الا بعد أن نأخذ بحظنا من مشاهدة (تاج محل) ذلك المعلم الذي أجمع واصفوه على انه أحد عجـــــائب الدنيـــا السبع .. وأنا أذكر (السبع) جـــريا مع المصطلح القديم فقط والا فمن أين استمد صاحب هذا الرأي حكمه على السبعة المشاهد على أنها سيدة العجائب العالمية ؟ .. وفي ظني أنه لا يعدو كـــونه حكما شخصيا أطلقه انسان من خلال مشاعره ، فاذا هو يجري على الالسنة دون تفكير ، وبالتالي دون تجربة ذاتية ..

ومالي ولهذا التفلسف البارد ، فنحن مصممون على استعمال بصرنا في تقدير ذلك المنظور ، الذي بات أشهر من الدولار في عـالم الانسان ، ليكون حكمنا مستمدا من البصر والبصيرة جميعا بدلا من ارتكازه على السمع وحـــده ..

وما ان سمعنا اسم أكـــرا على لسان المضيفة حتى هببنــا عن مقاعدنا المصنوعة من اللدائن ، لنأخذ مواضعنا في مقدمة الصف الى مدخل الطائرة .. وهمس أحد الاخوة في سمعي بأن وسخا قــد لطخ مؤخرة ثوبي الابيض . وجعل كل منا يتفقد ثوبه ، فاذا هي جميعـــا تحمل نفس الطابع من آثار المقاعد البعيدة العهد بالنظافة فلم نستغرب ذلك ما دمنا في الارض التي تجمع النقائض ، ومن ذلك أن تترك لركـاب الطائرات أن يقوموا بتنظيف مقاعد المطارات ، ولو بنقـــل أوساخها الى ثيابهم .. ولا مفر لاحدنا في مثل هذا الموقف ان يتذكر نعمة الله علينـا في مطارات المملكة ، حيث يتلألأ بلاطها بصفاء المرايا النقية .. وسرعان ما قفزت بي الذاكرة هنا الى أندونيسية . حيث تسجل النظـــافة حـد الغلو ، حتى ليقول أحد الاصحاب : لو صب السمن على بلاط مســاجد اندونيسية لمـــا ترددت في جمعه وأكله .. ولا غرابة ان تغير المقاعد هذا الوان ثيابنا ، ما دام السواد الاعظم من السكان يتبركون ببول البقـــر وخثيه فيمسحون به وجوههم .. وكأن المعري لا يريد غيرهم بقوله :

عجبت لكسرى وأشـــياعه   وغسل الوجوه ببول البقر

على ان ثمـــة وسخا أخبث من هذا كله ، هو الذي نراه في هؤلاء

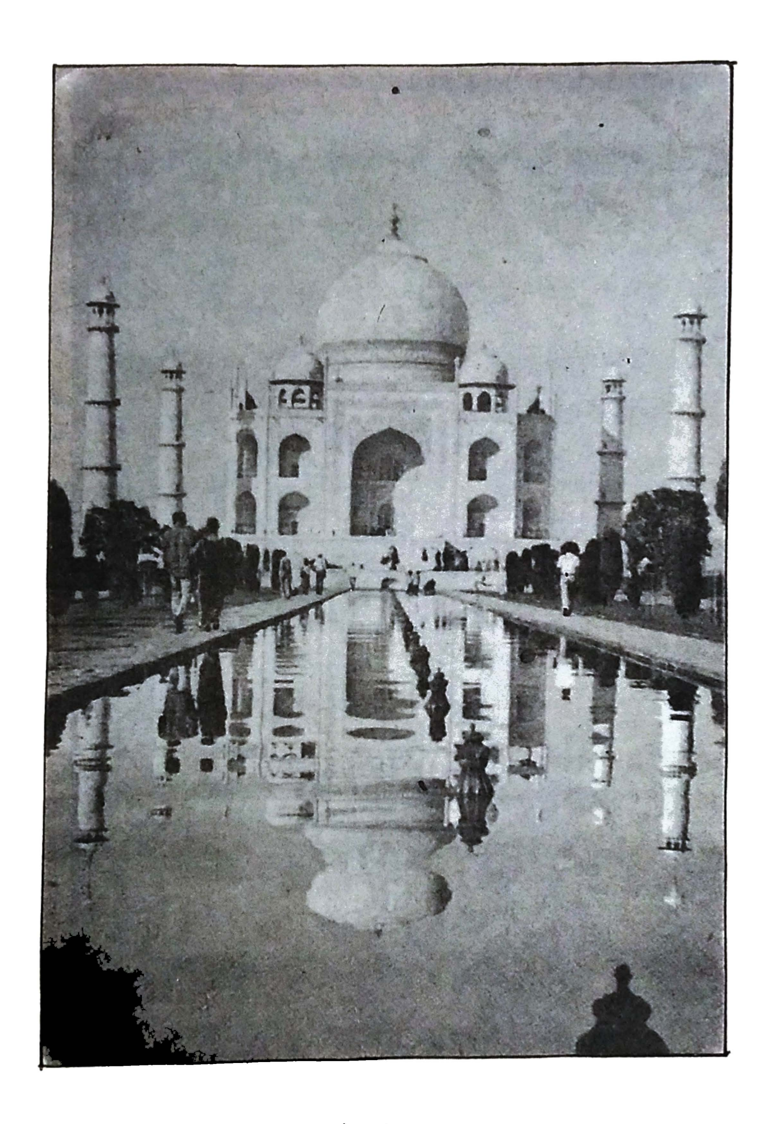
السائحين الغربيين أينما اتجهنا ٠٠ وفى السيارة التى اقلتنا قبيل ساعة الى هذا المطـــار جلست مقابلى فتـــاة أوربية على جانب كبير من حسن التكوين ، ولكن ما أقبح ما ظهر منها زمى تصلح جلستها فلا يستتر منها شىء شيئا ! ٠٠

ألا انها الحضارة القردية التى مسخت الانسان ذكـــرا أو أنثى حيوانا مفرغا من كل حس كريم ٠٠ وفى مثل هذا الموقف فليفرح المؤمنون بفضل الله ، الذى حفظ لهم انسانيتهم بالهدى ودين الحق ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠٠

فى حـــدائق تـــاج محـــل :

وراكب الطائـــرة من دهلى الى أكـــرا لا تزايل بصره مشـــاهد العمران ، تتلاحق من تحته فى الحقول والاقنية والجواد العريضـة على جوانبها الاشجار الباسقة ٠ وما هى الا عشرون دقيقة حتى يجد نفسه على الارض فى مطـــار أكـــرا ٠٠ ودقائق أخـــرى واذا نحن على أبواب الحدائق التى تحتضن مشاهد (تـــاج محـــل) ٠٠

أول ما يستقبل القادم الى هـــذا المعلم العالمى فناء رحيب ، وجزء من حـــدائقه التى لا تبرح كثيرة الاشجار وارفة الظـــلال ٠٠ يقـــوم فى وسطه بنـــاء ضخم يمتد يمنة ويسرة ، وفى كل من الجانبين الاروقة المسقوفة بالحجارة المستطيلة ٠ ويقول دليلنا الاكروى انها لاجتمـــاع زائرى القبر من حملة الازاهير ٠ وفى وسط هذا البناء البـــوابة الهائلة التى منها يلج الداخل باتجاه القصر المنشود ، فاذا ما تجاوز البـــوابة هبط الى البسيط الرائع الممتد بينهما وبين القصر ، حيث يستقبله حوض مستطيل طويل لا يزال يموج به الماء ولو قليلا ، وعلى الممر الذى بجانب الحوض يأخذ سبيله الى أحد الجانبين من الدرج الرخامى الموصل الى الفسحة الانيقة ، الممتدة أمام المشهد الذى يرقد فى جوفه الزوجـــان (شـــاه جهـــان) وقرينته (ممتـــاز محـــل) التى سبقته الى الموت عـــام ١٦٣١ فكاد يفقد فى أثرها ، ثم لم يجـد وسيلة يترجم بهـــا أحزانه الا بهذا البناء الذى استغرق صنعه احدى وعشرين سنة ، وقد عملت فيه عبقريات أمـــة من أهـــل الفن وأساطين الهندسة ومهـــرة العمال ، الذين امتازت بهم حضارة المسلمين العمرانية فى الهند خـــلال



تاج محل وظله فى البحيرة



القبران الملكيان من الداخل

ذلك العهد · وبمجرد اطلالك من البوابة المقابلة للمثوى الملكى يجتذب بصرك الطوق الباهـــر ، الذى يمتد على ثلاثة اضلاع الواجهة ، مزدانا بالآيات الكريمات من كتاب الله الخالد ، مخطوطة بأروع ما وصل اليه الحرف العربى فى هذه الديار ··

ولا أحب أن أتعرض لمـــا لا أحسنه من وصف لهذه الكتابة ، التى اكتشف فيها أولو الخبرة أسرارا عجيبة من التوازن والتظليل ، وما اليهما من الابداعات الموجهة للنظر والمؤثرة فى استشراف المنظور ، وانما اكتفى بالاشارة الى روعة الحروف ودقة التنظيم بين الكلمات والآيات ··

مرقـد الزوجـين الملكيين :

وها نحن أولاء أخيرا أمــام البناء ، الذى يعده خبراء الفنــون احدى العجائب السبع كمـــا أسلفنا ·· ويعتبره أمثالى من المجـاذيب واحدا من أمثلة الترف والسرف والضياع فى تاريخ الانسان ··

انه بناء متوسط الارتفـاع بالقياس الى ما رأينـــا من قصـــور ذلك العهد حتى الان تعـلوه القباب ، وتقوم على زواياه الاربـــع المنارات العالية ، التى لا علاقة لها بالاذان وانما هى لمجـــرد الزينة التقليدية ·· التى تربط هذه الانواع من روائع الابنية بالطراز المسجدى الذى هـــو المدخل الرئيسى لمفهوم الحضارة الاسلامية ··

والبناء كله داخلا وخارجا مؤلف من ناصع الرخام الابيض ··· الذى لا بد ان يكون له جماله الاضافى اذا انسكبت عليه اشعة القمـــر فى الليالى المضيئة ، كما ان له لألآءه المتألق وهو مغمور بوهج الشمس أثناء النهار ··

ودخلنا البنـــاء نتفقد أقســـامه ، ونتبين روائعـــه ·· ففى الوسط منه البهو الذى يضم مثالى القبرين الملكيين ، وقد جلل كل جزء منهمـــا بالنقوش الغريبة ، والفصـــوص المنزلة فى أطرها المصنوعة من الذهب الخالص ، ويقال انها تتألف من مئة وخمسة وثلاثين من الالوان الطبيعية وبعضها يمثل انواعا من الزهر ، بينها واحدة كبيرة قيل لنا ان فيها اربعة وستين فصا ، يصور كل واحد منها نظيره فى الزهرة الاصلية بحجمها الطبيعى ··

ومن روائـــع الصنعة فى هذا البهو ان السادن ، الذى يتولى تعريف الزائرين بالخصائص المميزة له ، يقف ليرسل بعض الكلمات فى انشاد

خفيض ، فاذا بالصدى ينطلق فى فضاء البهو حزينا مستطيلا متناميا مستمرا ، حتى يتلاشى بالتدريج كما يتلاشى الحلم عند الانتقال الى اليقظة وطبيعى أن للسادن حظه من نقود الزائرين ، التى تلقى فى مكانها المعين بجوار الشموع المضاءة على كلا القبرين ..

القبران والقاعات الثمـــان :

وعلى الطريقة نفسها التى رأيناها فى القبر المزدوج للسلطان التمش فى دهلى ، هكذا جعل للزوجين الملكيين ضريحا هما المزدوجان أيضا .. فتحت هذين القبرين الخاليين قاعة خاصة يقع فيها جدثاهما ، وقلمـــا يقصدان للزيارة .. والاسفلان كالاعليين متشابهان فى الزخرف والنقش والترف ، الا ان احد الاسفلين قد طوقت جنباته بأسماء الله الحســـنى مما لا اذكر انى رأيته على غيره ..

واذا تركنا بهو القبرين الملكيين الى ما حوله شاهدنا القاعـــات الثمانى ، التى يقال انها مخصصة للقراء ، يجتمعون فيها لتلاوة القرآن ايناسا لروحى الدفينين . وفى كل من هذه القاعات منظورات لا تحصى من آثار الصنعة الفائقة التى تميز كل شىء فى هذا المكان ، وأشـــير منها بخاصة الى تلك المشبكات الرخامية التى أقيمت ضمن أطـر النوافذ بدل المشبكات الحديدية ، التى تحصن بها نوافذ المنازل لصيانتهـــا من اللصوص ، وهى عبارة عن صفائح كبيرة تملأ فراغ النوافذ ، وقد حفرت فيها الفروج المفرغة بأشكال هندسية غاية فى الدقة ..

والعمـــــائر الاخـــرى :

والان وقد فرغنا من النظر الى دواخل المشهد المشهور ، وغادرناه الى الفسحة الرخامية المحيطة به ، أعود الى مذكراتى لاقرأ فيها الكلمات التالية : من هذه الفسحة أطل على العمائر الواقعة على مسافة مئـــة متر من جانبى المشهد ، ففى كل من الجهتين بناء كامل بنى باللونين الابيض والاحمر ، وعليهما القباب الكثيرة والمتباينة الحجم ولا ندرى مهمة هذين البناءين ، ولعلهما انشئا فى الاصـــل ليكونا مساكن للخـــدم وللحرس ، ومضافات للزوار ..

والى الغرب من الفسحة ينهض البناء الخاص بالصلاة ، وقـــد بنى على الطراز نفسه الذى ميز به مشهد القبرين ، وزينت أعاليــــه بمثل المنائر التى تعلوه ، ولولا تعريف الدليل ، بأنه هو المسجد لمـــا أمكننا تمييزه عن ســـواه ..

تاج محل فى مدينة أكرا



مجموعة منشـات تاج محل على كتف نهر (جمنـه)

ومن هنــــا ايضا ومن الجانب الشرقى الشمالى ، نطل على نهر جمنة القادم من جهة دهلى ، وهو الذى شهدناه من اعالى القلعة الحمراء يـــوم امس ٠٠

واذا التفت الى الغرب قليلا رأيت على مبعدة ميل القلعة الواسعة التى بناهـــا شــاه اكبر ، جد الســلطان الصالح عالمكير اورنك زيـب ٠٠ وهى التى قررنا زيارتها عقب فراغنا من منطقة (تـــــاج محــــل) ان شاء الله ٠٠

المشـــغل العجيب :

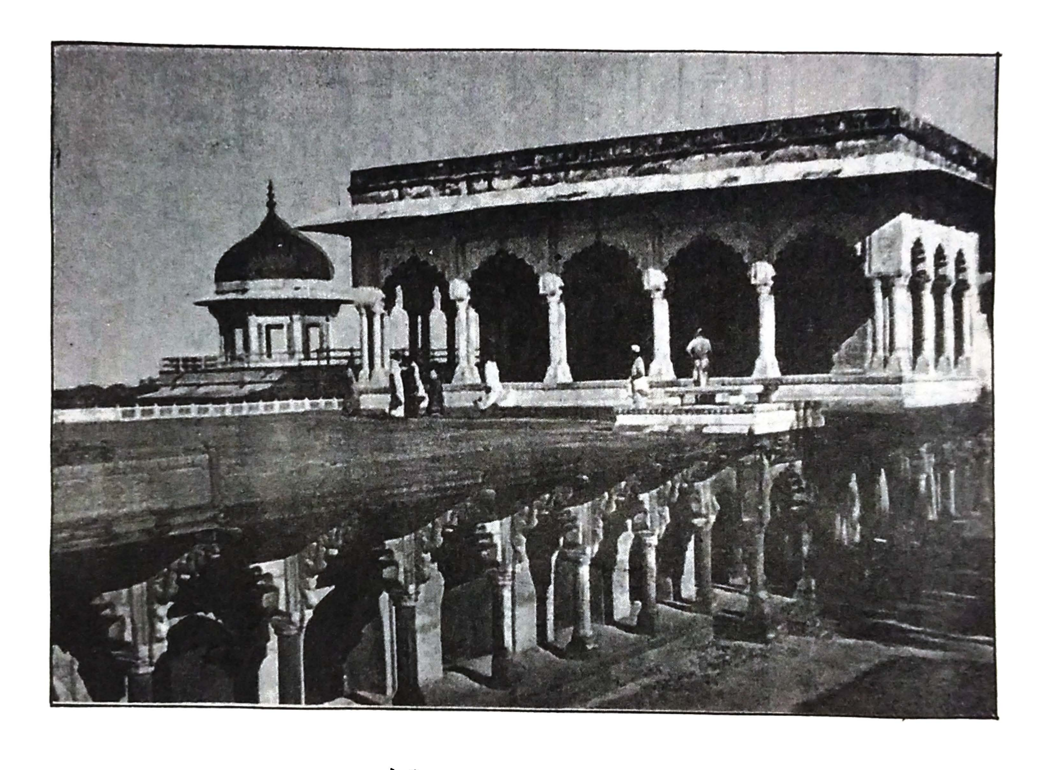
(رب صدفة خير من موعـــد) ٠٠

وما اصدق هذا المثل على صدفتنا اليوم ! ٠٠

لقد غادرنا (تاج محـــل) على نية الزيارة للقلعة المقابلة (ردفورد اكــرا) ومعناه (قصر اكرا الاحمر) ولكن دليلنا الذى اختـــار لنــــا هذا الطريق ، قد صمم كما يبدو على ان يمر بنا على كل متجر يعرض التحف المحلية ٠٠ ولا بد ان تكون هذه من اصول حرفته ، التى حذقهـــا فى دورات تدريبية خاصة استغرقت بزعمه ثلاث سنوات ٠٠ فتعلم خلالها كل الوسائل التى تمكن لبلده من اموال السائحين ٠٠ ومن يدرى فقـــد يكون له على كل سلعة نشتريها جعلا معينا ، فمن مصلحته اذن ان يقودنا الى اغلى المطاعم ، وان يطلعنا على اجمل المصنوعات المحلية الصالحـــة للاهـــــداء ، وان يسهل لنا سبيل الصلوات فى اوقاتها ، وان لم يكــن هو من المعنيين بأمر الصلاة ٠٠

اجــل ٠٠ انها لصدفة رائعة أن تقف الســــيارة بنا عند هذا المشغل العجيب الذى يدعى : (أسوال أمير يوم) ٠٠

ها هنا يعمل احفاد المهرة الذين حفروا ونقشوا ونحتوا وصــــقلوا ونزلوا الفصوص الكريمة فى متون الصفائح الرخامية ، فى تاج محــــل والقلعة الحمراء ، وكل الخوارق الفنية التى ابدعها ذلك العهد المترف ، الذى عاشه شــــاه اكبر وشــــاه جهان وأورنك زيب ، وهم من عظماء ملوك الاسلام فى ربوع الهند ٠٠



الديوان الملكى فى قلعـة أكرا

انهم بقايا اسرة محمد (...) التى توارثت هذه الصناعة ، ولا تزال تعالجها على النهج نفسه ، الذى سلكه أولئك السابقون فى صنع مبدعاتهم التى لا تنفك موضع الدهشة والحيرة من الناظرين والمتأملين ..

فها هم أولا يجثون على مفرش عادى يقى ركبهم وسيقانهم صلابة الارض ، وقد أكب كل منهم على مصقله يديره بأحدى يديه ، ويحرك بالاخرى الذرة الكريمة التى يريد توقيعها على مقدار الحفرة المحددة فى البلاطة التى بين يديه ..

متحف النفائس :

وهؤلاء العمال الصابرون ليسوا سواء فى البراعة ، ولذلك لا بد من أن يتفاوتوا فى الاجر ، ما بين خمس عشرة روبية ومئة وخمسين فى اليوم الواحد ..

ودعانا صاحب المشغل الى معرضه لنرى العجائب المخرسة .. مئات القطع على عشرات الاشكال ، تملأ الواجهات وتزين اركان المتحف الكبير .. ولكل قطعة ثمنها المتناسب مع نوعها وحجارتها وحجمها وزمنها .. ولكنك لن تجد واحدة بأقل من ألف روبية ، وقد تجد ما يلائم ثروتك حتى ثمانين ألف روبية .. وهى عبارة عن لوح مستدير من الرخام اللبنى يضاهى قطره المتر ، وتنتشر على سطحه مئات ، وربما ألوف الشذرات الباهرة من الياقوت والزبرجد والعقيق ، وما اليهن من الوان وانواع الحجارة الكريمة .. قد أنزلت فى امكنتها المرسومة بدقة وأناة استغرقتا ـ على حد قولهم ـ عمل عدة من الفنيين مدة ثلاثين شهرا .. والمعرض على أتم الاستعداد لايصال ما تشتريه من القطع المختارة الى حيث تشاء على مسئوليته .. كما هى عادته فى شحن نفائسه الى السعودية والكويت وسائر دول الخليج ..

ومن فضل الله انه لم يكن لدينا من المال ما يكفى للحصول على اية قطعة من هاتيك النفائس ، فغادرنا المشغل شاكرين حسن ضيافته التى لقينا مثلها فى كل معرض دعانا اليه ذلك الدليل ! ..

ولم نرض ان نتوقف بعد ذلك دون ابواب القلعة المنشودة ..

فى قلعة روفورد اكرا :

وكان الارهاق قد بلغ منا عندما واجهنا مدخل القلعة الهائلة .. وعلى كتف الممر الطويل لوح من الرخام كتب عليه خلاصة من تاريخها ومنه ان شاه أكبر قد باشر انشاءها عام ١٥٦٥ م واستمر على تعهده

الى حين وفاته ١٥٧٣ م ثم تتابع ابنائه واحفاده على استكمالها طوال خمس وتسعين سنة ..

وداخل القلعة عبارة عن مجمع من القصور المتنافسة مستقلا كل منها عن الاخر بحدوده وساحته وحديقته .. الا ان لها منافذ تصل بعضها ببعض ..

وفى مذكراتى عن هذه القصور ذكرت أن بعضها مصفح القبـــاب بالذهب أو البرونز الساطع ، ولكن ذاكرتى خالية من هذه الصور فـــلا أدرى كيف ولا اين ..

على أن الاهمـــال يغمر أقسام هذه القصور جميعا ، وبخاصة الحدائق الموشكة على الموت .. وما اكثر الاحواض الرخامية البالغة التنظيم وليس فيها قطرة من مـــاء ! ..

انها أطلال .. ولكنها تحتفظ بروائع الفن ماثلة فى كل شىء . . . البناء والخط والنقوش التى تركت آثارها الفائقة فى كل شىء ..

ولا بد ان يكون لهذا التخطيط الدقيق والبارع آثاره الموحية فى تنظيم القلعة الحمراء التى شهدناها فى دهلى .. فالمنطلق الفنى واحد فى كلتيهما ، واكثر ما يظهر ذلك التأثير فى اوضاع الديوان العـــام الذى يشبه نظيره فى قلعة دهلى الى حد بعيد .. وكذلك القول فى تاج محل الذى يحتفظ بعلاقة وثيقة من الناحية الفنية بكلتا القلعتين ، وبخاصـــة زخارف الحمراء التى تكاد تنطق بأن يـــدا واحدة هى التى نظمتهـــا جميعـــا ..

الامبراطـور السـجين :

وسأخص بالذكر من هذه القلعة موضعين لا أنساهما ..

أما أحدهما فالشرفة الملكية المواجهة لمشهد تاج محل .. وهى من الروائع التى لا ترتوى منها العين ، ولا يفى بوصفها القلم .. واذا علمنا أن هذه القلعة كانت هى السجن الذى اختاره لنفسه شاه جهان ، ليقضى فيه بقية حياته بأمر ولده السلطان أورنك زيب ، أمكننا ان نتصور الحالة النفسية التى كان يعانيها ذلك السجين الولهان ، وهو يطل صباح مساء على ضريح زوجـــه الحبيبة الأثـيرة ..

اما لم كان هذا السجن ؟ ٠٠ فالقول فيه مختلف ، اذ يقال بأن أورنك زيب قد خشى ان يعهد والده بالملك لبعض اخوته الذين لا يصلحون له ، فيدمروه ويطمعوا به أعداء الاسلام ٠٠ فبدافع من الغيرة الدينية قام باقصاء والده عن الحكم ، بعد ان أحاطه بكل الاسباب التى توفر له نعيم الحياة ٠٠ ويقال ايضا ان انشغال شـــاه جهان عن واجبات الملك بمتع الدنيا ، هى التى دفعت ولده لاحتلال مكانه ، تلافيا للاخطار المتوقعة ٠٠

ومهما يكن فلا ننسى أن شـــاه جهان ، على اسرافه وتبذيـــره ومشاغله العاطفية ، كان صاحب الاثر الاول فى وقف طغيان والده شاه اكبر ، الذى غـــرر به المفسدون ، فأغروه بمحاربة الاســـلام ، واختراع دين ملفق من مختلف النحـــل والملل ، عمل على الزام الناس به عن طريق الارهاب والترويع ، حتى قيض الله لدينه الامــــام المجاهــــد الشيخ احمد بن عبد الاحد السرهندى ، الذى تصدى لهجمته الشرسة بعزيمـــة لا تعرف الكلل ، وراح ينشر دعوة الحق فى صميم الحاشية الملكية ، وفى بعض أهله الذين كان أسرعهم الى الاستجابة له ولده جها نكير والد شاه جهان الذى اجهز على بقية ضلالات جـــده ٠

شـــاه جهـــان والمتوكـــل :

وما أشبه قصة شاه جهان هذا بحكاية الامام المتوكـــل على الله العباسى ، الذى هياه الله لصـــد الطغيان المعتزلى ، الذى قاده آبـــاؤه من قبل ، فما ان تولى أمر الخلافة حتى عمـــد الى تطهير أجهزة الدولة من بقايا المفسدين ، فأقصاهم ورد للامام أحمد بن حنبل اعتباره الرسمى فأولاه من التقدير والتكريم ما هو أحق به وأهله ، وأعاد بذلك الى قلوب علماء الاســـلام الامن الذى سلبهم ايـــاه الطاغوت المذهبى ، منذ عهـــد المامون الى نهاية عهد الواثق ٠٠

فمن هنا كان تلاقى الرجلين على خدمة الاسلام ، وانقاذ العقيـــدة الربانية من الانحراف السفسطائى ٠٠

ثم جـــاء التلاقى الاخر ، وهو ولـــع كل منهما بالترف العمرانى ٠٠ فاذا كان للسلطان الهندى عمائره المدهشة فى تـــاج محـــل والقلعـــة الحمراء والجامع الكبير فى دهلى ، فللمتوكل كذلك قصوره الصـــبيح والمليح والكامل والجعفرى و ٠٠٠ ناهيك بالبحيرة التى يقول فى وصفها شـــاعر الحضارة العباسية أبو عبادة البحترى :

بحسبها انهـــا فى فضل رتبتها ... تعـــد واحدة والبحـــر ثانيهـــا
محفوفـــة برياض لا تزال ترى ... ريش الطواويس تحكية ويحكيها

أما ثالثة المتشابهات فى حياة الرجلين فهى الخاتمة التى صارا اليها ·· فكان الخلع والسجن نصيب شاه جهان ، على حين كان الاغتيال الغادر مصير الامام المتوكل · ورحم الله الاثنين وغفر لهما ··

الحمام الفائق الاساطير :

وأما ثانى المكانين اللذين أخصهما بالذكر فالحمام الملكى ··

وأنظر الساعة فى مذكراتى لاستعين بما سجلته عنه فلا أجد سوى العبارة التالية : « هنا الحمام الملكى ·· وهو حقا من الاعاجيب التى تفوق الاساطير » ·· وطبيعى أن عبارة كهذه لا تعنى شيئا لمن أضعفت الشيخوخة والمتاعب الفكرية الفادحة حافظته ، فبات أحوج الى التفصيل الواضح منه الى العبارة الخاطفة ··

على ان ما لا يدرك كله لا يترك جله ـ كرأى ابن المقنع ـ وحسب هذه الكلمات اليسيرة ان تخض أعماق الذاكرة فتطفو على سطحها بعض الرواسب ··

انه لقاعة كبيرة ذات أقسام ، الاول لاستراحة الداخل وخلع ملابسه ثم الاخرى وفيها الحوض ، الذى يبدو انه مخطط على اساس ان يتجدد ماؤه بصورة دائمة ·· ومن المميزات التى لم ألمحها فى سواه أن جدرانه من المرايا ، ولا يفطن لها المتطلع الا ان يركز بصره من خلال المشبك ولعله من النحاس الذى ينتشر عليها ··

وهنا أستعير من ذاكرة الاخ الشيخ عبد الله القادرى ملاحظته على هذه المرايا بأنها تريك شخصك جيشا من الاشخاص ·· ولكن لم أسأله : أعلى صورة واحدة هذه الاشخاص ، أم على صور واشكال لاعداد لها ··

ومن أحد جوانب هذا الحمام الاسطورة يمتد درج حجرى طويل ، ينحدر منه النازل الى ذهر جمنة الجاثم تحت أسوار القلعة ·· ويقول الدليل : ان هذا الدرج خاص باحدى زوجات شاه اكبر الثلاث ، وهى الوثنية ، فمن على هذا الدرج كانت تهبط الى الذهر لتطهر جسدها بمائه المقدس على مذهب الهنادك ··

الى لكنـــــاو :

نحن الان فى مطـار دهلى بانتظار الاقلاع الى لكناو ، وقد لقينـا هنا وفد قطـــر المسافر بالطائرة نفسها للغرض نفسه ، وعلى رأس الوفد فضيلة الشيخ عبد الله الانصارى ، وفيه الدكتوران على الجماز وعدنان زرزور ، والشاعر الاسلامى أحمد الصديق ..

وأثناء الطريق الى المطار مررنا لاول مرة بمبنى البرلمان ذى الشكل المستدير والسعة الهائلة اللائقة بدولة شاسعة الارجـاء كالهنـــد .. وشاهدنا كذلك المبنى الخاص بمجلس الوزراء ، وكانت الشوارع الرئيسية حافلة بأنواع الزينات المرفوعة لاستقبال تاتشر رئيسة وزراء بريطانية ..

وفى الساعة ٣/٤ ١٢ هبطنا فى مطار لكنـاو البسيط المتواضع ،حيث كان بانتظارنا فضيلة الشيخ ابى الحسن ، ومعه المشايخ واضح رشـيد وسعيد الاعظمى وشمس الحق ومحمد الرابع وابو سبحان وغيرهم ..

اطلالـــة فاتنـــة :

وبعد اســـتراحة فى القاعة الخاصة حملتنا السيارات الى فنـدق (كلارك أود) ووجهوا كلا منا الى غرفة مستقلة ، ولكننا ، وفد الجامعة الاسلامية ، آثرنا جمع كل اثنين فى غرفة ، فذلك أوفر راحة لنا وايناسـا .. وكذلك فعلوا فأبدلنا بغرفنا حجرتين وفق المطلوب ..

وكان نصيبنا ـ الشيخ عبد الله القادرى وأنا ـ الغرفة ذات الرقم ٥٠٩ من الدور الخامس وهى تطل على روائع من طبيعة لكناو ٠ فهناك نهـر غومتى يجرى على مد البصر ، وعلى مقربة منه جامعة لكناو الحكومية ، وبجوارها جامعة نـدوة العلماء ، وعشرات المناظر التى لا تحصى ولا نعرف هويتها .. وفى الجانب الاخر احدى حدائق البلد التى فيها مجسم الكرة الارضية ، وقد سبقت الاشارة اليه ، يقـابل ذلك بعض الابنيـة التاريخية من مخلفات الشيعة ٠ على اننا هنا فقدنا المناظر التى أطللنـا عليها فى الغرفة السابقة من الدور السابع ، حيث تتكاثر اصناف الحدائق والشوارع وما اليها من مشاهد العمران الحديث ..

ومن الجديد الذى أتيحت لنا رؤيته من موقع هذا الفندق الفخـم ، تلك المجموعة من المعابد الوثنية المتناثرة على ضفة غومتى .. وقـد سرحت خلالها القرود البنية المقدسة ذات الستر السابغ ، تتواثب هنـا وهناك ، على سطوح الابنية ، وفى أعالى الاشجار ..



مجلس الشورى بلكناو

والمهم ان وجودي في هذا المرتفع الماتع قد اطلعني على ما لم اكن وقعت عليه من معالم لكتاو طوال اقامتي السابقة فيها ..

حتى هذه الارجال الهائلة من البعوض الناشيء في احضان غومتي، لم أر ولم اتوقع مثله قط . لقد فوجئنا به منذ الليلة الاولى يغطي زجاج النافذة الشاملة لصدر الحجرة كلها بمجرد اقبال المساء ، وكأنه يريد اقتحام الغرفة علينا للحصول على شهوته من الدم البشري .. رما أدري اي معركة كنا سنخوضها لو لم نفطن لذلك الجزء من النافذة ، الـذي تركه الخادم مفتوحا لتهوية الغرفة ، ولولا الستار الذي حال دون نفاذها اليـنـا ..

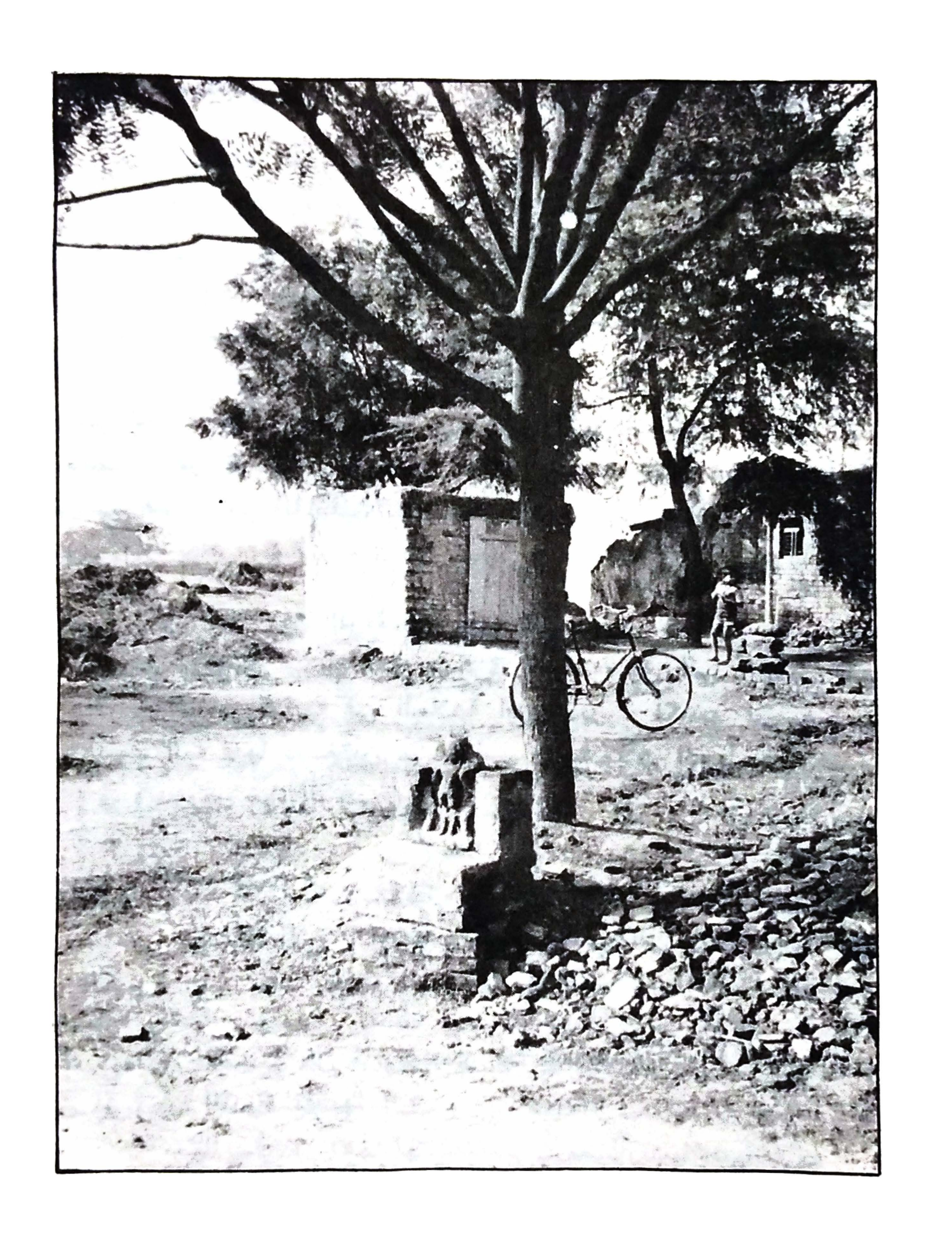
فرصـة أفـدنا منهـا :

ابلغتنا لجنة التحضير للندوة العالمية للادب الاسلامي ان موعـد الاجتماع الاول سيكون ضحى الجمعة ، الذي هو الحادي عشر من جمادى الاول ـ بتوقيت الهند ـ فأمامنا اذن يومان لا ينبغي ان نقضيهما في فراغ وقد شاء الله أن افقد زجاجة نظارتي اثناء خروجي من آخـر صلاة في مسجد قباء ، اذ سقطت من اطارها دون انذار سابق ، فآليت لا أرثي لها من كلالة قبل وصولنا لكناو .. ومع الاخ ابي سحبان مضينا الى خبـير بهذه المهنة ، فركب البديل المنشود مقابل عشر روبيات ، وهو الذي اديت ثمن مثله في المدينة ثلاثين ريالا ، أي ما يساوي سبعة الاضعاف ، ولذلك أوصيت الرجل على نظارة احتياطية كاملة من النوع نفسه ، فكان ثمنها مع الاطـــار اربعين روبية ، فدفعت المبلغ وفي ذاكرتي رقم مئتين رخمسين ريالا اداها ولدي في المدينة ثمن واحدة من هذه النظارات ..

تعقيـــدات يهـودية :

ومن ثم اخذنا طريقنا الى احد المصارف لاستبدال مقدار من الدولارات فاذا نحن تلقاء عملية غاية في الثقل والاملال ، اضاعت علينا اكثر مـن ستين دقيقة في جهد مضن يسجلون فيه كل رقم على كل دولار ، وكل رقم واسم على الجواز .. فما انتهينا من هذه المعركة حتى انتهينـــــا الى الارهـــاق ..

وما ادري لذلك من سبب سوى فقدان الثقة العامة ، الذي تمتاز به الدول المتبنية للانظمة الاشتراكية والماركسية .. وحمدا لله الذي حررنا في المملكة من هذه القيود المضيعة للاعمار ، واطلقت يد كل انسـان في كد يمينه يتصرف به كيف يشاء في حدود العدالة الاسلامية ..



معبـد وثنى بلكنـاو

وما كان اسعد الغابرين أيام كان للنقد قيمته بنفسه فضة أو ذهبا أو نحاسا ، فلا يتطلب صرف أى جهد فى سوى الوزن ·· وما احسب هذا التعقيد الا حلقة فى سلسلة الاساليب اليهودية المركزية التى تجعل مصير كل معاملة اقتصادية الى ايديهم فى النتيجة ··

اللقاء النادر :

وكان من متع هذه الفرصة ، فرصة الفراغ ، ان سعدنا بلقاء اخوة ما كان لنا ان نطمع بلقائهم فى غير هذه المناسبات ·· وما أسعدنى بحب هؤلاء الذين يتلقوننى بمثل الفرح والشوق الذى اتلقاهم به ، وبخاصة أولئك الذين قدموا من الابعاد وفيهم الشيخ الفاضل ابو الليث الندوى - امير الجماعة الاسلامية سابقا - واخوة الصديق الودود الشيخ نظام الدين الاصلاحى · ويلاحظ أن كلا منهما ينتسب الى المؤسسة العلمية التى تخرج فيها ، حتى لتحسبهما من ابوين مختلفين · · ولعلها ظاهرة خاصة بأهل العلم من مسلمى الهند ، تترجم شدة حفاوتهم برابطة العلم ،وتقديرهم البالغ للقائمين على هذه الدور من فضلاء العلماء والمربين ··

وسرنى ان القى بين الوافدين على الندوة الدكتور مسعود الرحمن الندوى الاستاذ فى جامعة عليكرة ، وقد سبق الى الفضل فأهدى الى فى القدمة الاولى كتابيه فى العلامة ابن كثير ، فكانت فرصة لسرد الجميل أهديت اليه فيها نسختين من كتابى (مشكلات الجيل فى ضوء الاسلام) و (دروس من الوحى) ··

وامرهم شورى :

وجاءنى فضيلة الاخ الشيخ واضح رشيد الى الفندق يكاشفنى بالمتاعب الكبيرة التى يجب عليهم النهوض بها فى هذه المناسبة الضخمة ،

فهم لذلك شديدو الخشية من كل تقصير قد يتعرضون له ، سواء نحو المدعوين او نحو الندوة نفسها ··

وعرض على الخطوط الرئيسية التى اعدوها حتى تلك الساعة ، ليستطلع رايى فيها ، فطمانته بأن الجهود المتضافرة كفيلة بانجاز المشروع على خير الوجوه ان شاء الله ، ولا سيما انه واخوانه ، وعلى رأسهم فضيلة الشيخ ابى الحسن ، من اكثر رجال الفكر الاسلامى مشاركة فى قضايا المؤتمرات الاسلامية · ومع ذلك فلا بأس من التعاون مع بعض الاخوة من ضيوف الندوة المحبين لها ولاهلها ، وكلهم كذلك ··

وبالاتفاق مع الاخ الدكتور عدنان زرزور موفد الامارات ، قدمنا صورة لجدول مبسط للعمل ، يعتمد فى اسه على مخططهم السابق ، فنال الموافقة ·· ثم جاء الشيخ واضح يبلغنى اقتراح اللجنة التحضيرية بأن تسند الى ادارة العمل منذ اليوم الاول للافتتاح ، فشكرتهم على تلك الثقة الغالية ، واوضحت لهم ما اعانيه من وضع صحى يحول دون قيامى بالواجب على الوجه المطلوب ، واقترحت عليهم بعض الاسماء ليتخيروا منها من يشاؤون ··

وهكذا تم التدبير اللازم على افضل وجه ولله الحمد ·· ولكنهم ابوا الا أن يشركونى فى ذلك التنظيم ، مع الاخ عبد الرحمن رأفة الباشا ، الذى عهد اليه القيام بادارته ··

تنظيم ناجح :

وانتظم عقد الاجتماع مؤلفا من عشرات المندوبين ، من رجال الفكر والادب والعلم والشعر ، من مختلف أقطار العرب والمسلمين ، فكانت فى الحق ندوة شاملة لكل ما هو خير وصالح ان شاء الله ··

وبعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم تفضل صاحب الدعوة ورئيس الندوة الشيخ ابو الحسن بكلمة الافتتاح ، وكانت واحدة من روائعه التى اعتاد ان يلامس بها العقول والقلوب ·· ومن ثم انقسم الحضور مجموعتين ، احداهما للادب الاسلامى باللغة العربية ، والثانية للادب الاسلامى باللغة الاوردية ، وانتقلت المجموعة الثانية الى القاعدة المعدة لها ·· وقبل البدء بطرح الافكار المعروضة فى البحوث المكتوبة ، ألقيت بعض القصائد تنشيطا للنفوس ، وتوجيها لانظار الحضور الى الغايات العليا ، التى يجب التطلع اليها خلال المناقشات الآتية ··

ثم عرض البرنامج المساعد على تنسيق العمل ، وعين لكل يوم عمله الخاص ، وفى الفترات التالية لخصت البحوث المقدمة فى نقاط رئيسية ، تلتها المناقشات المفيدة ·· وهكذا استمر العمل فى ترتيب محكم ناجح ، حتى استوفيت البحوث ومناقشتها خلال الايام الثلاثة ، واختيرت لجنة لصياغة التوصيات التى جاءت على غاية من التوفيق والتسديد ولله الحمد ··

وكانت الخاتمة اصمامة من القصائد العالية تلاها عدد من المندوبين ، وفى كل منها شوارد تركت آثارها عميقة فى القلوب ··

اما البحوث فلا ارى حاجة للتفصيل فى شأنها ، لانها ستنشر فى بعض صحف ندوة العلماء ، وفى العديد من مجلات العالم الاسلامى ، وحسبى اشارة خاطفة الى انها ـ فيما أتصوره ـ ستضيف الى صحائف الادب الاسلامى العالمى رفداجديدا ، فيه الكثير من رفيع الفكر بليغ البيان ٠٠ وسيتاح للقراء بعد الاطلاع عليها مجال واسع لتقييمها الذاتى والموضوعى ، بأحسن مما يتاح لحلقة كهذه ان تستوعبه ٠٠

لغة القرآن تهاجر للهند :

على ان ثمة جانبا احب ان اخصه بالذكر لاشرك القارىء فى النشوة التى خالجت نفسى ، وانا استمع الى بعض البحوث العربية المكتوبة بأقلام هندية ٠٠

لقد شارك فى المجموعة العربية عدد من الاخوة الهنود والباكستانيين وقدموا الى الندوة بحوثا قيمة اثارت العميق من الاعجاب ، فى أسلوب لا يهتدى الى صياغته العالية الا الملهمون ، الذين اشربت عقولهم والسنتهم نفحات القرآن ، فجاء أداؤهم كأبحاثهم صورة من البيان الساحر الذى يستهويك بمعانيه ومبانيه وفصاحة ملقيه ٠٠

وعلى سبيل التمثيل اذكر بحثا للشيخ محمد سعيد المجددى ، كان عرضه اكثر من تلخيص ، فكان المتوقع ان يبعث على الملل لتجاوزه الدقائق المقررة لامثاله ، ولكن الواقع جاء على غير القاعدة ، اذ اعتبر الرجل بحثه بنـاء متكاملا لا يصلح للاختصار ، فمضى فى قراءته حتى استوفاه ٠٠ وقد استقبل بغاية الرضى ، لان النبرة العربية قد شقت له السبيل الى القلوب ، فلم تشك منه قصرا ولا طولا ٠٠ وسمعنى الشيخ ابو الحسن اصف ما سمعت بالسحر الحلال ، فقال : من حق هذا الهندى اذن ان يستمع الى رأيك فى حديثه ، فأدنيت المكبر لاقول ما خلاصته : اجل ان من حق هذا الفاضل ان يعرف رأى اخوانه فى ما القاه عليهم من عمل جمع خصائص الادب العالى من اطرافها وليس غريبا بالنسبة الى بلد كالهند ، عرف فى تاريخ الاسلام بأنه من أعظم مراكز الدعوة الاسلامية واللغة العربية ٠ وعلى الرغم من كل الاحداث والتغيرات استطاع الحفاظ على امتيازه هذا عن طريق مؤسساته الاسلامية العريقة ومفكريه الذين تركوا بصماتهم عميقة فى صميم التراث الاسلامى المستمر ٠٠ وانها لمفخرة لمسلمى هذه القارة ان يحرزوا قصب السبق فى انقان لغة الضاد ، حتى ان المستمع للناطقين بها ، ومنهم الاخ المجددى ليخيل اليه ، وهو يصغى الى فصاحتهم المميزة ، أن العربية العليا قد

هاجرت اليهم من موطنها الاصلى · فها هنا لا نسمع من لهجات العربية سوى لغة القرآن محتفظة بسلامتها من كل لحن ولغو ·· على حين لا نكاد اليوم نلمحها فى بلاد العرب الا من خلال الكتب والبحوث والخطابة المسجدية ، بعد ان فسدت فيها لغة التخاطب حتى على السنة كبار العلماء ··

خاتمة لا تنسى :

وهكذا ختمت ايام الندوة بما يشبه المهرجان الادبى ، بما القى فى جلستها الاخيرة من قصائد موفقة ، وتعليقات طريفة ، وبما شاع بين الحضور من روح الاخوة السعيدة ، ولئن اكتفيت حتى الان بالاشارات الخاطفة الى الكليات دون التفصيل ، فان ثمة بقية لا يحسن بى اغفالها من خواتيم هذه الايام ، تلك التى انطوت عليها كلمة فضيلة الشيخ عبد الله الانصارى مدير الشئون الدينية فى قطر ، فكانت تعبيرا نقيا عن مشاعر المؤتمرين جميعا نحو ندوة العلماء واخواتها من المؤسسات الاسلامية الاخرى فى الهند وغيرها ·· وبصراحة اخوية اعلن اقتراحه – وهو ما سبق ان عرضناه على بعض الاخوان اثناء افطارنا فى مطعم الفندق – بأن يتبرع كل من المدعوين بما شاء لهذه الجهات العاملة للاسلام والعربية ، وان لم يتيسر ذلك على الفور فليكن تنفيذه عند العودة الى الديار ··

ومع ان الاقتراح بمثابة التذكير بواجب يؤمن به الجميع ، الا ان الشيخ ابا الحسن لم يلبث ان عقب عليه بكلمة من مرتجلاته المؤثرة ، خلص منها الى القول بأنه لا يوافق على تحويل ندوة الادب الى ندوة للمال ·· واقسم أن غاية ما يرجوه واخوانه هو أن يوفقهم الله لخدمة دينه ولغة كتابه · وذكر ان هذه المؤسسة قامت على الايمان والاخلاق من اول يوم ، وكل امنيتهم ان يحفظ الله لهم هذه الصفة ·· ونوه بفضل العرب واطرى مزاياهم ، وقال انه اجتمع بملوكهم ورؤسائهم ، فكان حديثه معهم مقصورا على شئون الاسلام ، وخص بالذكر المغفور له الملك فيصل ابن عبد العزيز ، فاعلن انه فى خلواته به ، التى كان بوسعه أن يطلب اثناءها ما يريد ، ابى أن يتكلم الا عن العرب والمملكة ، لانه واخوانه يعتبرون كل خير يصيبهما هو خيرا للمسلمين جميعا ، وكل ضرر ينالهما فعاقبته على أهل الاسلام فى كل مكان ··

وما ان فرغ الشيخ من بيانه البليغ حتى نهض الاخ عبد البديع الصقر – من وفد قطر – فعقب بكلمة الهبت المشاعر ، اذ ذكر اسراف

بعض اثرياء العرب ، وضرب على ذلك الامثال ، منها ان رجلا زوج ولده فانفق على هذه المناسبة اربعمئة مليون ·· وآخر انشا ملعبا فى بلده الصغير بالف مليون ··

وكل ذلك فى الوقت الذى تتكالب ذئاب الانام على اهل الاسلام فى كل مكان ، فلا تمتد اليه اليد الا بالفتات الذى لا يسمن ولا يغنى ·· ولا حول ولا قوة الا بالله ··

من لكنـــاو الى بومبـاى :

الاثنين ١٦ـ٦ـ١٤٠١ هـ .

لم نستسلم لشهوة النـــوم بعد صـــلاة الفجر ، رقد جمعنـــا امتعتنا استعدادا للطيران الى دهلى فبومباى ، حيث قررنا المقام حتى مساء الخميس القادم .. واجمعنا المرور بالندوة لوداع الشيخ فى طريقنا الى المطـــار ..

وها انـذا أكتب هذه الكلمات مشرفا على الرحب الرائـع المواجه للفندق ، وقد بدأ الوثنيون يتوافدون الى هذه المعـــابد ، التى يتـواثب فيها القردة المقدسة ، ليؤدوا عبادتهم لنهر غومتى ! ..

وابى الشيخ واخوانه الا ان يصحبونا الى هناك .. وفى قاعـــة الاستراحة اجتمعنا بالشيخ عبد الله الانصارى واخوانه من وفد قطـر ، وشغلنا وقت الانتظار القلق بشتى الاحاديث التى لم تخل من الخير المأجور ان شـــاء الله ..

وفى تمام الساعة الثانية بعد الظهر دعينا الى العبور نحـــــو الطائرة ، وبدأ التفتيش المزعج ، الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة .. حتى مقص الشعر وآلـة الحلاقة الصغيرة لم يسمحوا بمرورها فحولتهمـــا الى الشيخ ســـعيد .. ولبث الاخوة المشيعون على مـــرأى منا حتى انتهينا الى المطية التى وصفها شـــوقى بقوله غير الموفق

- مركب لو سـمح الدهـر به   كان احدى معجزات القدماء

وما هى الا ثلاثة ارباع الساعة حتى تلقانا مطـــار دهلى ، الذى لم نفارقه الا الى الطائرة الجبارة التى أقلعت بنا الى بومباى ..

اهنـــــا دمشـــق ؟

وقد أسلفت الكلام عن تلك المناسبة التى اعقبت وصولنا الى مطـار بومباى ، حيث ذهبنا نبحث عن الفندق المناسب ، فلم نجـــد ما يرضى الاخـوة الا فى (تـــاج محـــل) الذى حـــدد رسم الغرفة فيه لمجــرد النـــوم بستمئة روبية لليلة الواحدة ..

ولقد صلينا صبح اليـــوم التالى فى الساعة السابعة ، اذ غلبنـــا النـــوم والتعب ففاتنا الشعور بمرور الزمن ، وبعد الافطار البـــاهظ

الثمن امتطينا سيارة الاجـــرة الى قلب البلد ، وها نحن أولاء فى سوق (هندى بازار) وهو جزء من شارع محمد على الذى سبق ذكره ..

هذه السوق تكـــاد تنسينا اننا فى بومباى الهند ، فهى اسلاميـــة مئة فى المئة فيما أرى ، فواجباتها مزدانة بالحـــرف العـــربى الجميل ، والمكتبات الكثيرة مشحونة بالمطبوعات الاسلامية على اختلاف لغاتها .. فما أقـــرب الشـــبه بين هذه السوق وسوق المسكية القائم منذ القـــدم بجـــوار الجامع الاموى فى دمشق الحزينة ..

وأقبل الشيخ مختـــار النـــدوى – من معارف الشيخ عبد الله – الى مكتبته السلفية بعد ان انتظرناه طويلا ، فاذا الرجل من أهل العـــلم والعمل ، يتكلم العربية الفصحى التى لقتها فى نـــدوة العلماء بلكناو .. ويقوم بمهام رئيس الجامعة السلفية فى بنارس ، ويرئس الجامعـــــة الاسلامية التى فى ضواحى بومبـــاى ، وهو يوزع وقتـــه يوميا على الاعمال التالية : حتى الظهـــر فى منزله حيث يعمل فى تحقيق الكتب التى يريد طبعها من نفائس التراث ، ثم الى المكتبة ليواجه زبائنه ومستفتيه ، وقد أعطى الجامعة يومين من كل اسبوع .. فجزاه الله من الخـــير كفاء نشاطه الصالح ان شاء الله ..

وتركـــوا روائـــع البـــدائع :

وحملتنا سيارة الشيخ مختـــار الى مطعم تخيره لنا على أنه جيد الطعام مقبول الاسعار ، وكان كما وصف ، ولكن الزحام عليه شـــديد حتى لم نجـــد مكانا فيه الا بعـــد ما يقارب الساعة ، ولا غـــــرابة فالمورد العذب – كما قرر بشـــار – كثير الزحـــام ..

وتواعدنا مع السائق – المسلم – على ان يوافينا الى الفنـــــدق أثناء الاصيل ..

وها أنذا اكتب هذه الكلمات العجلى من وراء زجـــاج الشرفـــة لغرفتنا ذات الرقم ١٢١٢ حيث نرقب – القادرى وأنا – بدهشة هـــذه الشوامخ الهائلة تنطلق كالصواريخ نحو الاعالى ، فى أعداد لم نجـــرب احصاءها ، وفى طبقات يتجاوز بعضها الثلاثين ، وهى تعبر بشموخها عن مدى التقدم الاقتصادى واليسار الكبير ، الذى تتمتع به المدينة العالمية ..

وتمضى الساعات الطوال ويقبل الاصيل اللطيف ، وقـــد ذهـــب الاخوة الثلاثة يريدون البحـــر ، للاستمتاع برحلة فى أحد الزوارق المهيأة



برج راجا باى فى بومبـــاى

تحت غرفتنا لاستقبال امثالهم ·· واعتذرت عن مرافقتهم لظنى ان مثل هذه الجولة ميسورة فى أى من سى‌سواحل العـالم ، بيد أن معالم بومباى الماثـلة فى بحيرتها الساحـرة وحديقتها العالمية ، ومتحفها السمكى ، ومتنزهاتها الساحلية ·· لا يعوض عنها منظر فى أى بلد - فيمـا اتصور - طلا تغنى عنها رحلة فى أى بحـر ·· الا ان يكون (بحـيرة الذكريات) للشاعر الفرنسى الفونس دولا مارتين ·· وقد رفضوا هـذه المعالم كلها ولم يعيروا المسجد العجيب القائم على المـاء اى اهتمام ·· ولا غرو فلكل امرىء عينان لا يرى بغيرهما ، وقد بدا أن عناية اصحابى بالسلعة يشترونها اكثر من عنايتهم بمواطن الجمال يستجلونها ، فيشرفون من خلالها على روائع البدائع ·· ولله فى خلقه شئون ··

متخمـون ومحرومـون :

انى الان وحدى هنا ارجع البصر فى هذا البحران من العمـران الممتد الى الاقاصى من الحيز الذى تشرف عليه الغرفة ·· ولا يسـع القلم الاتيان على بعضه ، فازداد يقينا بأن فى بومباى - كما اسلفت - اكبر العبقريات الهندسية ، واوسع الاعمال الاقتصادية ، ولكنى لا اكـاد انتهى الى ذلك حتى اتذكر اولئك المحرومين ، الذين يملئون الشوارع بل معابر (كاماتى بوره) فأتخيلهم ملقين كأكياس القمـامة على حـواف القاذورات الوبيئة ، فأعود الى تساؤلى المكرور : هل يتاح لاولئك البؤساء أن يحلموا برؤية هذه المشاهد ، فضلا عن زيارتها ! ··

واخـيرا ·· هـل يمكن اعتبار نظام يشق السكان ، بمثل هذه الفواصـل الواسعة بينهم ، نظاما سليما ومعقولا ! ··

اللهم لا ·· الا فى الهند ، حيث لا يزال التمايز الطبقى هو الاساس الذى عليه يقوم بنيان المجتمع ، حتى ليكون فيه مئة مليون منبوذ لا يحق لهم بموجب الديانات - الهندوكية - ان يتمتعوا بصفة الانسان ·· وقـد كان فى قوانينهم القديمة توكيد حاسم على ان قتل المنبرذ ، والتمثيـل بجسده حيـا ، لا يعدو احداث ذلك فى جسد جرذ أو فـار ! ··

حوار مع أحـد البهـرة :

وفى احدى السيارتين ، اللتين اقلتانا الى مطار بومباى ، فى طريق العودة ، كنت استعيد بعض الذكريات التى حملتها من هذا البلد ، الذى يشبه مجمعا من المتناقضات الغريبة ·· ولا أدرى لم وقف بى ملف الذاكرة على تلك الهنيهة التى قضيناها فى مكتب لمديـر اكـبر الحـاويات (السوبر ماركت) التجارية فى تلك المدينة ··

لقد جاءنا رسوله يدعونا لزيارته أثناء تنقلنا بين الشام الحاوى نستطلع ونساوم ونشترى ، فلم نر بأسا فى اراحة اقدامنا بعض الوقت عنده ..

واستقبلنا الرجل بالاكرام ، وجعل يخاطبنا بلسان عربى .. وعرفنا شخصه بأنه من مسلمى البهرة الذين يتجمع سوادهم فى بومباى .. وراح يشرح هوية القوم على أنهم بقية الفاطميين من النحلة الاسماعيلية .. للتفريق بينهم وبين الاسماعيليين الاخرين من الشيعة الاغاخانية ، الذين يتركزون مثلهم فى هذه البقعة ، وتنتشر دعوتهم واتباعهم فى العديد من ديار المسلمين وبخاصة أفريقية ..

ولقد شعرت اثناء الحوار بيننا وبينه ان اصحاب هذه النحلة يريدون التقرب من اهل الاسلام ، وان من الممكن تصحيح بعض مفهوماتهم عنه ، لو اتيح لهم الاتصال بالدعاة الوعاة من ذوى الثقافة الموسوعية ، وبخاصة ان القوم من المواظبين على الصلوات الخمس ، حتى لا تكاد تجد بينهم تاركا لها ، وهذا فضلا عن قيامهم بالحج والعمرة .. ولا جرم ان التزام هذه العبادات يؤلف نصف الطريق الى قبول الحقيقة كما اوضحها الله ورسوله .. ومع ذلك فقلما نرى حثيا بالدعوة يجرب معهم هذا الضرب من المحاولات الواجبة ، بل على الضد من ذلك تراهم ممعنين فى مباعدتهم ، حتى لا يكادون يعرفون عنهم شيئا .. ولينو هم رجعوا الى هدى رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى شأن التبليغ لادركوا انهم غير معذورين فى مثل ذلك ، بل لا مندوحة لهم عن بذل الوسع فى كل مناسبة يجدون فيها مجالا لمحاورة الشاردين بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ..

حتى الاسماعيلية الاغاخانية ، على الرغم من رفضهم للاسلام جملة وتفصيلا ، حتى ليعلنون صراحة ان لهم دينهم الخاص ، صنعه لهم الاغاخان الذى يوجهون اليه كل عبادتهم ، حتى هؤلاء لا تسقط مسئولية دعوتهم عن القادرين عليها بالوسائل الصحيحة المتاحة ، والا فكيف يحقق أهل الحق فى أنفسهم الصفة التى اختارها لهم ربهم بقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم : (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ..

ما فيش فلوس ؟!

وكانت الساعة تقارب السادسة عندما بلغنا مدخل المطار ، هو وقت متأخر جدا بالقياس الى المرة السالفة ، اذ كان علينا يومئذ

ان نحضر قبل اربع ساعات ونصف الساعة من موعد الاقلاع ، ثم لا نغادر بهو المطار حتى نستوفى قسطنا من عناء الانتظار الثقيل المليل ، الذى لا سبيل الى تفسيره أو تسويغه ..

والفضل فى هذا التخفيف عائد بعد الله الى مدير الخطوط السعودية الذى أوصى بنا خيرا أحسن الله مثوبته ..

ومع ذلك فقد ظل امامنا أنواع من المزعجات لا سبيل الى تفاديها الا بالصبر ورحابة الصدر .. ولو هى قد جمعت دفعة واحدة لسهل احتمالها ، ولكنها توافيك متفرقة واحدة تلو الاخرى ، منذ ان يرتفع النداء بمواجهة الاجراءات الى ان تضع قدمك على سلم الطائرة ..

فها هنا تدقيق الجوازات .. وهنا ضريبة المطار .. وهناك رسوم التحميل المحددة ، ولا ثم للحمالين انفسهم .. ثم هناك تفتيش الامتعة الذى لا بد معه من الدفع بعد الدفع ..

- مافيش فلوس ؟..

- بلى .. هاك خمسين ريالا سعوديا ..

ويقلبها بيده مستصغرا .. فنطمئنه بأنها تساوى مئة وخمسا وعشرين روبية كاملة .. ثم يمسك بالعلبة الشفافة التى فيها جهاز الحلاقة ، يشير الى رغبته فيها فلا أمانع .. ثم يمسك بقارورة من الطيب عزيزة على .. فأدعها له خشية ان يختلق من الاسباب ما يؤخر دخولى ..

ولم يكن حظ رفقتى بأقل من ذلك ..

ولا حاجة للكلام عن اعمال الاخرين من الفضوليين .. وحسبك ان تعلم ان لكل شىء هنا ضريبة ، والاصل فى معظم هذه الضرائب ان تكون من لابسى الزى العربى ، لانه فى تقدير كل ناظر ومسئول لا يعدو أن يكون راية على بحيرة من النفط ..

والحمد لله على السلامة ..

واخـــيرا ...

من المسئول عن هـؤلاء الضائعين ..

فى طريقنا الى الفلبين كان لا بد لنا من الهبوط فى بومباى لتغيير الطائرة ، وكان علينا أن نقضى معظم الليل فى ردهة المطـــار بانتظار موعـد الطائرة التى ستقلنا الى مدراس .. وبينما انا اغـالب اغفـاءة خفيفة اخذ سمعى دوى بعيد ترافقه ضجة . موزونة ثم ما زال يقترب شيئا فشيئا حتى انجلى لنا عن موكب يضم قـــرابة العشرين رجـلا ، كلهم من العـــرق الاوربى الابيض البشرة ، الازرق العيون الفـارع الهيكل . كان احـــدهم حدثا لا يتجاوز الخامسة عشرة ، وبينهم واحد فى سحنة الهنود ..

وقد استرعى انتباهى من هؤلاء أزياؤهم الغريبة ، فهى عبارة عن سراويلات فصلت على الطريقة الباكستانية ، وفوقها قمص تنسدل الى الركب ، وكانت رؤوسهم حليقة كلها ، الا امتدادا كذيل الثعلب ، يبدأ من وسط الرأس ، ثم يتدلى الى مؤخرة الرقبة ..

كان بعض هؤلاء يحمل طبولا على شكل اسطوانى ، ينتهى طرفـاه بفتحتين ضيقتين الصقت بهما قطعتان من الجلد ، عليهما يضرب حاملوها..

وينطلق الجميع فى اناشيد محفوظة يكررونها وهم يترنحـون فى انتظام ، وكلما انتهوا الى فقرة منها معينة قفزوا معا الى الاعلى ، ثـم يعودون الى اهتزازاتهم الاولى ..

وهكذا جعلوا يبدئون ويعيدون حتى نال منهم الارهاق . وجعلت اصواتهم تخفت من التعب .. فاذا ما استعادوا بعض قدرتهم اعـادوا العمل ضربا وترنحا وقفزا وانشادا ..

لم استطع بادى الراى تفسير عملهم .. وخطر فى بالى انهم مجموعة من الضـــائعين الذين يتكاثرون هذه الايام فى شـــوارع اوربـــة وحواضر امريكة ، قد اقبلوا على الشرق فى سياحـــــة ترفيهية ، فهم يجوبون شوارع بومباى على هذا الوضع ، اعرابا عن تمــــردهم على الحضارة الغربية ، التى اعطت الانســـان الغـــربى كل وســـائل الرفاه وسلبته مقابل ذلك كل اسباب الطمانينة . الا انى لم البث ان هديت الى التفسير الصحيح حين اقبل رفيق رحلتى الدكتور ف عبد الرحيم . فبين لى ان هؤلاء نموذج لكثيرين من الغربيين الذين فرغت قلوبهم من ســـكينة الايمان ، فراحوا يهيمون على وجوههم ، حتى احتضنهم دعاة الوثنيـــة الهندية ، فاعتنقوا بعض مذاهبها ، ثم جاءوا الى الهند ليمارسوا شعائر

دياناتهم الجديدة على النحـــو الذى ترى ·· فهم يؤدون هذه الحركات داخل المعـــابد ، ولعلهم يريدون من اجرائها فى الشوارع تذكير الناس بها ودعوتهم الى احيائها ··

وسرعان ما وجدتنى مشدودا بما شاهدته من هذه الغـــرائب الى التأمل فى ما وراءها من عبر واحداث :

لقد وثبت بى الذاكرة الى منظر بعض الطرقيين فى العديد من ديار المسلمين ، وقد تحلقوا حول (الراقص المولوى) يعزفون له ويقرعـــون وينشدون ، وراح هذا يدور فى سطهم على قدم واحدة ، كخذروف الوليد ، وقد انفتحت (تنورته) الواسعة حتى اشبهت مظلة الطيـــار الهـــابط من الاعـــــالى ··

ثم تتابعت على الرؤى حتى وقفت بخيالى على واحدة منها لم تزل تعمل عملها فى صدور الغافلين ·· انها صورة هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبـــا ولهـــوا ، فكان من بين مبتدعاتهم تلك الحلقات الاخـــــرى ، التى يتوسطها (قائد السيرك) فتأخذ فى التمايل وفق اشارته ، وقـــــد تصاعدت من صدورها همهمات تبدأ واضحة باسم الله ، ثم ما تنفك تتغلغل فى الغموض حتى تستحيل زفيرا وشهيقا لا مفهوم له ، ثم لا تفتر ولا تهدأ الى أن يأخذها الارهاق ، الذى يأخذ هؤلاء الراقصين فى ردهة مطـــــار بومباى ··

فمن هنـــا أنى ·· من رقصـــــات الهنادك والبوذيين لآلهتهم ، قد تسرب بهذا الرقص الطرقى ، الذى يسميه الضللون والمضللون فى بـــلاد المسلمين (حلقات الذاكرين) ! ··

ثم الفيتنى اتساءل : هذا الجيــــل المتمرد على حضارة المـــــادة والشـــهوات ، وعلى تعاليم الكنيسة ، بعد ان تمردت الكنيسة نفســــها على وحى الله ، حتى صـــارت تعاليمها مجموعة من مقررات رجـــــال الكنيســـــــة ··

هذا الجيل الذى تتخطفه البوذية والبرهمية والهيبيــــة ·· و و ·· لماذا اغفله دعـــاة الاســـــلام ، فلم يفتحوا أعينه على نـــــور ربــــه ؟ اليس الاســـــلام هو خاتم رسالات الله الى عباده ؟ ··

فمن المسئول عن تبليغهم حقائقه ، اذا لم يقم المسلمون من أولى العلم بهذه المهمة ؟ ··

ولا حول ولا قوة الا بالله ! ··

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٧٧ / ١٩٨٤

الترقيم الدولى ٤- ٠٦٧ - ١٤٢ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية

٢ نشاطى - شبرا مصر

تليفون : ٧٧٣٢٢١